شرح العقيدة الطحاويّة

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة حمود بن عقلاء الشعيبي

رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد

فإنه لا يشك عاقل مطلع أن الأمة الإسلامية لا تزال تعاني خللا واضحا في فهمها للمعتقد الصحيح ، وكانت مثل هذه الأحداث الأخيرة التي اخترق فيها العدو الصليبي بلادنا بأسهل طريق من أمثل الأدلة على أننا نحتاج إلى تصحيح شامل عام يشمل أكثر مناحي الحياة العلمية والعملية ، مما يَضطر هذا الواقع إلى أن تكشف منطلقات هذا المخترِق الثالوثي بوجهه المادي الجديد ، حتى يغلق المعنيون تلك الثغرات التي ولج من خلالها إلى هذا العمق من بلاد المسلمين ، وقد استجمع قواه واستدعى كل طاقاته ليعيد نفس سلسلة الحروب الصليبية السابقة .

ولعل في التاريخ القريب ما يثبت لنا جليا أننا أمام تكرار لحلقات سابقة مرت بها الأمة الإسلامية ، ظهرت فيها حقيقة تلك الشعارات البراقة والتي تصيد بها العدو المخدوعين منا ، كشعارات حرية الرأي والفكر ، وحرية العقائد ، وحقوق الأقليات ، وتقارب الأديان ، والديمقراطية وغيرها ، وما تلك الدماء والأشلاء في فلسطين وأفغانستان والعراق وغيرها إلا أجلى صورة تظهر فيها حقيقية تلك الشعارات .

إن ما نراه من تشويه تصويري لهذه الأحداث وما نرى من تسليم فئات كثيرة من الأمة لهذا الاختراق ولهذا الواقع البائس سواء من رؤوس الناس أو من عامتهم ليدفع أهل العلم إلى المسارعة في توضيح الحالة ، وتنبيه الأمة ، وقد كان أهل العلم على وجه الخصوص – وغيرهم من المطلعين – أول من توضع على عواتقهم مثل هذه الأحمال وهذه الهموم .

ثم في هذا اليوم الذي نرى فيه الأمة الإسلامية أحوج ما تكون إلى فهم معتقدها الصحيح وفهم واقعها – نرى فئات تنتسب إلى العلم والدين تقف سدا منيعا ضد إفاقة الناس من رقدتهم لفهم حقيقة واقعهم وتصحيح منهجهم ، بل وتدعو إلى الإعانة على قيام مؤسسات وتجمعات تدعوا إلى التشويه وإلى الذلة والاستكانة .

فضلا عن تراجع فئات أخرى عن منهجها الصحيح وقد انهزمت وتضعضعت في أولى مراحل التصحيح ، وقد أوهموا البعض أن هذه الانهزامية عبارة عن تكتيك يحتاجه المسلمون في هذه المرحلة – في نفس الوقت الذي تدعو فيه هذه الفئات إلى إقحام الأمة إلى مناهج أخرى أكثر سلمية في نظرهم ، حتى جاء اليوم الذي يتنادى فيه هؤلاء إلى أن يلتحم أو ينتقل أهل السنة –

بصورة أو بأخرى – إلى عقائد أخرى ومناهج ومؤسسات أخرى أجمعت الأمة على ضلالها وإضلالها .

و مع ما نراه من اتفاق بعض هذه الفئات مع بعض المناهج الخرافية والارجائية والليبرالية .. وما نراه من تحسينهم لصورة عقائد أخرى ضالة كالرافضة وغيرها .. وما نراه من مطالبتهم بالتعايش مع الغازي الصليبي وقد أعادوا لنا تجربة بني قريظة في غزوة الأحزاب .. وما نراه من التفاف هؤلاء مع أعوان الغزاة – مع ذلك كله – هاهم المنهزمون يرجفون بالأمة بقوة معسكر الصليب ، في حالة لا يسمح فيها أن تطرح مثل مسألة لزوم المكافئة في القوة في جهاد الدفع(١) ،مع أنه لا يخفاهم ذلك .

ولكن قد قال تعالى : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم)(سورة التوبة آية :٤٧) .

وقد كان للشيخ حمود رحمه الله جهوده في كشف مثل هذا الفكر المنهزم وتبيين حاله أمام الناس ، وقد ذكر رحمه الله في بعض المواضع أن كثيرا من أصحابه يتسترون لنشر فكرهم المنهزم بما رصدوه من تاريخ حافل استغفلوا فيه بعض الناس ، وقد ناقش الشيخ بعضا منهم ، وألزمهم بمنطلقاتهم السابقة .

ومع هذا الخضم المتلاطم من الأحداث الشائكة والتي تزحف بالأمة إلى ما نرى لا ننسى أن ننوه بأولئك الشبيبة النزاع من القبائل الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم في سبيل تخليص مقدسات المسلمين وبلادهم وحريمهم ، وقد هابهم ما يُظن أنه أكبر قوة في الأرض ، مع ما يكتنف هؤلاء الشباب من العجز المادي والمعنوي والمطاردة وغيرها ، متمثلين بقول الأول :

ولست أبالي حين اقتل مسلما
على أي شق كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

---

(١) ينظر التعليق أسفل ص ١٢٥ من هذا الشرح .

مع صبر هؤلاء الشباب حتى على أقرب الناس إليهم وقد شوهوا صورتهم وألبسوهم ثيابا ليست لهم ، والصقوا بهم تقتيل المسلمين وتكفيرهم وغير ذلك ، وقد كان الأولى أن يوصف بذلك الملبِّسون أنفسهم ممن وقف مع أعوان الغزاة ، حتى غدا الأمر بهذه الصورة المشوهة – في بعض الأحيان – على أوثق من يعرفهم ، والله يتولى هؤلاء الشباب بنصره ومؤازرته سبحانه .

ولعل في إخراج هذا الشرح إسهاما في القيام ولو بشيء يسير مما ذكرنا ، وقد تطرق فضيلة الشيخ في ثنايا الشرح إلى مسائل مهمة معاصرة يحتاج الكثير إلى توضيح صورها ، كبعض مكر العدو الصليبي في تفريق المسلمين بإبرازه لأفكار ومناهج تدعو إلى ترك الجهاد والاعتياض عنه بأمور أخرى أقل أهمية في زمن صولة معسكره على بلاد المسلمين ، وغيرها من المسائل .

وقد كان فضيلة الشيخ حمود رحمه الله شرح هذه العقيدة الطحاوية ارتجالا على بعض طلابه من مدينة الرس فيما يقارب عام ١٤١٤ هـ ، سجل هذا الشرح في أشرطة كاسيت وهي متناولة في شبكة الانترنت وبين طلبة العلم ، وقد قمت بتفريغها وتهذيبها وتنقيحها من بعض التكرار ، وبالتقديم والتأخير في بعض المواضع ، مع عزو الأحاديث والآثار إلى مصادرها ، والتعليق على ما يحتاج إليه الأمر ، وأضفت بعض الإضافات اليسيرة من شروح أخرى للشيخ دون عزو ، نقلته عنه سماعا ولم يذكره الشيخ في هذا الشرح ، وذلك لأن الشيخ رحمه الله كان يشرح هذا المتن دون تحضير له ، وقد جعله مختصرا اختصارا شديدا جدا كما ذكر في أحد فصول الشرح فيما ستراه إن شاء الله (١).

أما ما كان يعرضه الطلاب من أسئلة ومناقشات فقد أدرجت كثيرا من إجابات الشيخ في الشرح دون تنبيه ، والبعض الآخر تركته لرداءة التسجيل ولعدم وضوح الصوت في بعض المواضع .

وقد كان السبب في نشر هذا المؤلف أمور منها :

أولا : الإسهام في نشر معتقد أهل السنة والجماعة ، والرد على أهل الأهواء والبدع .

ثانيا : حرص كثير من العلماء وطلبة العلم على مؤلفات الشيخ ومعرفة رأيه حول مسائل مهمة في معتقد أهل السنة والجماعة .

ثالثا : خبرة الشيخ بأقوال الفرق واختلافاتهم وتبيينه ذلك .

رابعا : كون الشيخ طرح في هذا الشرح قضايا عقدية مهمة معاصرة تحتاج إليها الأمة شُوهت حقيقتها ، كتحكيم القوانين الوضعية ، والجهاد ، والتعامل مع الحاكم المرتد ، والتقارب مع المبتدعة وغير ذلك .

---

(١) ينظر ص ١٤٥

خامسا : سهولة الشرح ووضوحه .

فما كان فيه من خطأ فهو للمتصرف فيه ، والله يكتب الأجر ، ولسنا بمعزل عن الحاجة إلى إبداء النصيحة والتوجيه ، وما كان فيه من صواب فنسبته إلى الله تعالى ، وأسأل الله بمنه وكرمه أن يغفر للشيخ حمود ويجعل منازله في عليين ، وأن يأجر من أعان على نشر الكتاب ، والله أعلم وصلى الله على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

موقع فضيلة الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي

غرة شوال ١٤٢٩ هـ

سيرة مختصرة للشيخ حمود العقلاء الشعيبي:

هو أبو عبدالله حمود بن عبدالله بن عقلاء الشعيبي الخالدي من آل جناح ، ولد في الشقة من بريدة عام ١٣٤٦هـ حفظ القرآن قبل البلوغ على يد الشيخ عبدالله العمري ، وقد فقد إحدى عينيه عام ١٣٥٢ هـ بسبب مرض الجدري ثم لحقت الأخرى بعدها بوقت قصير حتى فقد بصره ، انتقل إلى الرياض لطلب العلم عام ١٤٦٧ و التحق بدروس الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم كمرحلة علمية أولى ، ثم في فترة وجيزة انتقل إلى دروس الشيخ مُحَمَّد بن إبراهيم ، فلازمه ملازمة تامة حتى برز من بين طلابه ، وقد كان يلقي الدروس في مسجد شيخه بعده مباشرة ، وذكر لنا الشيخ سعيد بن زعير – وهو من طلابه — أن الشيخ ابن إبراهيم إذا كتب فتوى لم يصدرها حتى يعرضها على تلميذه الشيخ حمود العقلاء .

انتظم الشيخ في المعهد العلمي في أول افتتاحه ثم استثني من إكمال بعض سني الدراسة حتى الحق بكلية الشريعة ، فدرس فيها حتى تخرج منها في أول دفعة لها وكان من أوائلها ، ثم عين قاضيا ، فوقف دون تعيينه في القضاء الشيخ مُحَمَّد الأمين الشنقيطي ، وطالب الشيخ ابن إبراهيم أن يعين الشيخ مدرسا ، فعيّن في نفس كلية الشريعة ، وقد ترقى في سلم الدرجات العلمية فيها حتى بلغ إلى درجة بروفيسور .

وقد تتلمذ الشيخ على العلامة مُحَمَّد الأمين الشنقيطي فقرأ عليه في التفسير والأصول والنحو والمعتقد والمنطق وغيره ، وكان الشيخ حمود متأثرا به تأثرا ملحوظا ، وقرأ أيضا على الشيخ عبدالرحمن الإفريقي والشيخ يوسف الضبع وغيرهم من أهل العلم .

و تتلمذ على الشيخ – خلال الخمسين سنة من التعليم – مئات من الطلاب فكان اشتهارهم بين الناس ملحوظا حتى غدا من بين طلابه علماء ومصلحون وأساتذة جامعات وغير ذلك ، ومن ضمن طلابه فضيلة الشيخ سعيد بن زعير رئيس قسم الإعلام في جامعة الملك سعود سابقا وفضيلة الشيخ عبدالله الغنيمان رئيس قسم الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية سابقا وفضيلة الشيخ عبدالرحمن العجلان رئيس محاكم القصيم سابقا وفضيلة الشيخ علي الخضير وغيرهم كثير .

وللشيخ مؤلفات وفتاوى وشروح وتعليقات منها الإمامة العظمى والبراهين المتظاهرة ومختصر عقيدة أهل السنة والجماعة وكتاب القول المختار في حكم الاستعانة بالكفار وهذا المؤلف الذي بين أيدينا وغيرها ، وللشيخ فتاوى منتشرة في المعتقد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد وغير ذلك .

وله فتاوى في وجوب جهاد الأمريكان ومن معها ودفع صولتها ، وله أيضا فتاوى في نصرة قيام الحكومات الإسلامية كحكومة طالبان والجماعات الجهادية في الشيشان والفلبين وغيرها .
توفي الشيخ رحمه الله سنة ١٤٢٢ هـ اثر مرض أصابه في قلبه ، نسأل الله أن يغفر للشيخ وأن يفسح له في قبره .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله :

(هذا ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم البجلي وأبي عبد الله مُحَمَّد بن الحسن الشيباني ﷺ أجمعين وما يعتقدون من أصول الدين ويدينون به لرب العالمين)

الشرح : هذا المختصر جمع فيه الإمام الطحاوي رحمه الله جل المسائل التي يتفق عليها أهل السنة والجماعة في المعتقد ، والإمام الطحاوي إمام في الحديث والفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة ، وهو إمام أيضا في العقيدة ، لأن منهجه في المعتقد منهج أهل السنة والجماعة إلا أن عليه بعض المآخذ التي لا تخرجه عن كونه من أهل السنة والجماعة التي ستأتي الإشارة إليها إن شاء الله في أثناء الكلام على الكتاب ولا سيما فيما يتعلق بالإيمان والكفر(١) .

(١) ذكر الشيخ رحمه الله أثناء الشرح عدة ملاحظات على الطحاوي من ضمنها قول الطحاوي رحمه الله :
١ – ما زال بصفاته قديما قبل خلقه .
٢ – وتفسير على ما أراد .
٣ – ومعناه على ما أراد .
٤ – ومن لم يتوق .. التشبيه .
٥ – موصوف بصفات الوحدانية منعوت بنعوت الفردانية .
٦ – تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ...
٧ – ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود .
٨ – والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان .
٩ – الإيمان واحد وأهله في أصله سواء .
١٠ – وأفعال العباد خلق لله .
١٢ – ولم يكلفهم إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم .
وهناك ألفاظ أخرى محتملة اعرض عنها الشيخ رحمه الله ، وألفاظ أخرى ليست على طريقة السلف ، وكون الشيخ يصف الطحاوي أنه من أهل السنة مع ما ذكره من مؤاخذات فلا يعني نسبة أقواله التي أخطأ فيها إلى أهل السنة .

وهذا المختصر عني به العلماء شرحا وتعليقا ، وهو يشتمل على أكثر المسائل التي هي معتقد أهل السنة و الجماعة .

ذكر المؤلف أن هذا المعتقد على مذهب أهل السنة والجماعة الأئمة ، فذكر منهم النعمان بن ثابت وأبا يوسف ومُحَّد بن الحسن ، ومن أئمة السنة والسلف من هم أشهر من هؤلاء كالإمام احمد بن حنبل والإمام الشافعي والإمام مالك رحمهم الله ، ولكنه قدم هؤلاء واكتفى بذكرهم لأنه حنفي وهؤلاء أحناف ، فمثّل لأئمة السلف بالسلفيين الذين هم على مذهبه الفقهي .

(نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : إن الله تبارك اسمه وتعالى جده وجل ثناؤه واحد لا شريك له) .

الشرح : التوحيد معناه إفراد الله سبحانه وتعالى بما يستحقه ،(١) سواء إفراده بأفعاله هو سبحانه ، أو إفراده بأفعال العباد ، أو تنزيهه عما لا يليق بجلاله وعظمته من السوء ، وإثبات ما يليق به ويختص به من الكمال .

فالتوحيد ثلاثة أنواع :

- توحيد الربوبية
- توحيد الألوهية
- توحيد الأسماء والصفات (٢)

لا بد من هذه الأنواع الثلاثة للعبد حتى يكون موحداً ، ولا بد أن يحقق هذه الأنواع الثلاثة ، ولو قصر بواحد منها أو نقصت كلها فإنه لا يكون موحدا .

وتوحيد الله في ربوبيته : هو اعتقاد أنه الواحد في خلقه وفعله وتدبيره وتصرفه في الكون ، وأنه لا أحد يشاركه في ذلك ، بل هو الخالق وحده والفاعل وحده ولا يشاركه أحد في أفعاله الخاصة به سبحانه وتعالى .

أما توحيد الإلهية : فهو أن يفرد الله بأفعال العباد ، بمعني أن يؤلَّه ويُعبد وحده دون غيره ، أي لا يصرف لأحد سواه -كائنا من كان - شيء من أنواع العبادة التي لا تصرف إلا له سبحانه

---

(١) انظر منهاج التأسيس والتقديس للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن ص ٦

(٢) انظر هذا التقسيم في الإبانة لابن بطة الكتاب الثالث (الرد على الجهمية) ٢ / ١٧٢ ، وكذلك شرح ابن أبي العز للطحاوية ص ٢٤ ت التركي ط ٢ ، وللتوسع ينظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ١ /٩٠ وما بعدها

وتعالى ، فجميع أفعال العباد العبودية يجب أن تصرف لله وحده ولا يجوز صرف شيء منها لغيره ، كالذبح والنذر والاستعاذة والاستغاثة والتوكل والصلاة والزكاة والصوم والحج ،
كل هذه يجب صرفها لله سبحانه ، أي كل ما يصدر عن العبد من فعل من أفعال العبادة فإنه يكون موجها لله وحده .

النوع الثالث توحيد الأسماء والصفات : فهو أن يوصف الله سبحانه وتعالى بكل صفات الكمال على وجه التفصيل وينفى عنه كل نقص أو عيب أو سوء على وجه العموم ، ولذا فالقاعدة عند السلف في هذا الباب هي إثبات الصفات إثباتا مفصلا خاليا من التشبيه والتمثيل ونفي النقائص والعيوب نفيا مجملا خاليا من التعطيل وقاعدتهم في ذلك قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)(سورة الشورى آية :١١) فإن في قوله : (ليس كمثله شيء) نفيا عاما مجملا وفي قوله : (وهو السميع البصير) إثبات مفصل لأنه أثبت صفتين إحداهما تخالف الأخرى ، فاثبت صفة السمع وصفة البصر وكل صفة مستقلة عن الأخرى وهذا هو التفصيل في الإثبات .

(ولا شيء مثله ولا شيء يعجزه ولا إله غيره) .

الشرح : إن الله واحد لا يماثله شيء لا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله ، فهو واحد مختص بالوحدانية في ذلك ، لا أحد يماثله ولا أحد يستطيع أن يفعل كما يفعل سبحانه و تعالى ، لأنه الفاعل المطلق الخالق المدبر المتصرف في الكون خلقا وتدبيرا وتصرفا مطلقا ، لا أحد يماثله في شيء من ذلك .

و أما قوله : (ولا شيء مثله) فمعناه ما سبق ، أنه منزه عن مماثلة المخلوقات تنزيها عاما مجملا، أما طريقة المبتدعة الذين حادوا عن طريق أهل السنة والجماعة ، طريقتهم في التنزيه أنهم ينزهون الله على سبيل التفصيل ، فيقولون : إن الله ليس بجسم وليس بجوهر وليس بعَرَض وليس متصلا بالعالم ولا منفصلا عنهم ولا هو بائن من خلقه ولا هو حال فيهم ، وهذه التفاصيل في النفي المستعمِلُ لها يصل إلى العدم ، لأن الذي لا يوصف بهذه الصفات ولا تقوم به كلها معدوم ، وكما ذكر العلماء في غير موضع أن هذا مع أنه يوصل إلى العدم ففيه أيضا تنقص لله سبحانه وتعالى ، قالوا فلو أنك أتيت إلى ملك وقلت له : أطال الله عمرك ، أنت رجل طيب ، لست بكسّاح ولا حلاق ولا قمّام ولا كذا ولا كذا ، هو صحيح ليس كذلك لكن هل في هذه

السّلوب (١) المفصلة كمال .؟ أو هي عيب ونقص في حقه ؟ هو صحيح أنه ليس متصفا بشيء من هذه الصفات الرديئة ، وفي نظره وفي نظر غيره فوق ذلك بكثير – ينطبق عليه قول البيت المعروف :

ألم تر أن السيف ينقص قدره

إذا قيل إن السيف أمضى من العصا (٢)

السيف أمضى من العصا يقينا ، لكن إذا قرنته بالعصا كان ذلك نقصا في حقه ، وكما قال العلماء : لو أنك قلت مثلا : إن الذهب خير من قشر البصل وخير من قشر السمك لكان صحيحا لكن فيه تنقص لهذا المعدن النفيس حيث قارنته بهذه الأمور الرديئة.

الحاصل أن طريقة السلف رضوان الله عليهم هي النفي و التنزيه المجمل ، (ليس كمثله شيء) ، ليس له مثيل ليس له شبيه ليس له سمي ليس له ند وليس له ظهير ، نفي عام مجمل ، فهذا هو الذي فيه التنزيه وهو الذي يتضمن الكمال ، أما السّلوب المفصلة فإنها لا تتضمن كمالا وتفضي إلى العدم ، وهي عيب وذم .

قوله : (ولا شيء يعجزه) إثبات لقوته وقدرته سبحانه وتعالى .

قوله : (ولا إله غيره) أي وهو الواحد في الإلهية أيضا ، إله واحد لا مثيل له أو لا أحد يستحق أن يؤله أو أن يعبد بأن يصرف له شيء من أنواع العبادة كما يصرف لله سبحانه وتعالى .

(قديم بلا ابتداء دائم بلا انتهاء)

الشرح : جعله القديم من أسماء الله سبحانه وتعالى – السلف يتحفظون فيه ، ويقولون إن القديم هو الذي يكون مسبوقا بالحدوث ، وليس هو من الأسماء الواردة في الكتاب والسنة ، لأن أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته توقيفية ، لا يوصف بصفة ولا يسمي باسم إلا بما ثبت في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه ﷺ ، أما الذي ورد في القران وفي السنة وهو الذي يفضله السلف رضوان الله عليهم فهو الأول ، لأنه جاء في القران قوله سبحانه وتعالى (هو الأول والأخر والظاهر والباطن)(سورة الحديد آية:٣) وجاء في الحديث الصحيح قوله صلى الله علية وسلم :

---

(١) أي الصفات السلبية وهي التي دلت على سلب مالا يليق به سبحانه ، والمراد أنهم لا يعرفون الله إلا بالسّلوب ، فمثلا صفة العزة لا يثبتونها بل يقولون ليس بذليل وليس بحقير ، أما أنهم يصفونه بالعزة أو العظمة أو غيرها مما ينازعون فيها فلا يثبتونها بل يقولون ليس بكذا وليس بكذا . انظر بيان تلبيس الجهمية ٧ / ٣٦٩ هامش رقم ٦ .

(٢) أورده الثعالبي في تتمة اليتيمة ٢٩٩/٥ .

(اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ..) الحديث (١) وأما القديم فقد أطلقه الطحاوي رحمه الله هنا وتحفظ بعض أهل السنة في إطلاقه وقالوا الأولى بالاستعمال ما ورد ، وإن كان الطحاوي رحمه الله يقصد بالقديم هنا الأول قطعا ، ولا يقصد بالقديم الذي سبقه حدوث ، لأنه من أهل السنة والجماعة وليس من أهل البدع أو أهل المذاهب المنحرفة ، ولذا قال : (قديم بلا ابتداء) ،

أي قديم لا بدء لوجوده سبحانه وتعالى ، لأن وجوده سبحانه وتعالى واجبٌ ، والواجب لا أول له ، واجب عقلا لا يقبل العقل سوى أوليته سبحانه وتعالى ، فهو لا يريد القديم بمعناه المقابل للحديث وإنما يريد بالقديم هنا الأول .

وقوله : (قديم بلا ابتداء) يحسن أن يبحث هنا مسألة بدء الحوادث وخلاف الناس فيها ، فمسألة بدء الخلق ونهايته – وهي التي تعرف عند العلماء بتسلسل الحوادث – افترق الناس فيها على ثلاثة مذاهب :

فالمذهب الأول مذهب أهل السنة والجماعة : وهو أن الحوادث متسلسلة في الماضي كما هي متسلسلة في المستقبل .

ويقابله المذهب الثاني مذهب الجهم بن صفوان وأتباعه : وهو أن الحوادث ليست متسلسلة في الماضي كما أنها ليست متسلسلة في المستقبل .

المذهب الثالث مذهب الأشاعرة ومن سار على طريقهم كالكلابية والماتريدية : وهو أن تسلسل الحوادث مستمر في المستقبل ولكنه منقطع في الماضي .

أما أهل السنة والجماعة فقالوا إن الله سبحانه وتعالى كما أنه لم يزل موجودا ولا أول لوجوده فهو لم يزل فاعلاً ولا أول لفعله لكن أفعاله سبحانه وتعالى تحدث شيئاً بعد شيء ، يعني خلقه للسموات حادث لكن قبله خلق آخر وقبل ذلك الخلق خلق وهكذا ، إنما كل أمر أحدثه الله سبحانه وتعالى فهو أحدثه من العدم ولكنه ليس هو الأول بل قبله محدث وذلك المحدث حادث من العدم وليس هو الأول بل قبله محدث وهكذا إلى ما لا نهاية في الأزل وإلى ما لا نهاية في الأبد ، وأما الجهم بن صفوان وأتباعه فإنهم قالوا بانقطاع التسلسل في الماضي لأنه لو قلنا إن الحوادث لم تزل للزم أن تكون مماثلة لله ومشاركة له وهذا لا يجوز ، هكذا يقولون ، يعني إذا كان الله لا حدّ لأوليته

والحوادث لا حدّ لأوليتها كانت مماثلة لله في الأولية ، ولكنهم عموا عن أننا لا نقول إن كل حادث بعينه فهو أول لا أول له وإنما نقول كل حادث بعينه فقد حدث من العدم وقبله حادث آخر وهكذا إلى ما لا نهاية .

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣) .

وأما شبهتهم في انقطاع التسلسل في المستقبل فهم يقولون لو قلنا بالدوام للزم أن تكون هذه الحوادث مماثلة لله في البقاء والدوام وهذا شرك لا يجوز ، وعموا عن كون تسلسل الحوادث في المستقبل كدوام الجنة والنار ودوام أهلها ودوام إحداث النعيم فيها ، نسوا الفرق بين ذلك وبين دوم الله وبقائه سبحانه وتعالى ، فإن صفة البقاء وصفة الدوام لله سبحانه وتعالى واجب لذاته ، وأما الحوادث كالجنة والنار ومن فيها فهذا دائم لإدامة الله له وليس دائما لذاته بل الله أراد أن يدوم فدام ، وإلا فهو ممكن وليس بواجب الدوام والبقاء .

وأما المذهب الثالث وهو مذهب الأشاعرة ومن معهم وكذلك المعتزلة فهؤلاء يقولون إننا لا بد وأن نضع للحوادث حدا في الأزل لأن الله سبحانه وتعالى يجب أن يتفرد بالوجود من غير أن يكون معه موجود ، ولكن بعد مدةٍ متطاولة حدث له الفعل والإحداث ، وهذا يرد عليهم بأنه يلزم عليه أن يكون الله سبحانه وتعالى – مدداً متطاولة – لا يفعل ولا يحدث ولا يخلق ، والفعل والإحداث كمال ، فيلزم من ذلك أن الله سبحانه وتعالى ناقص في ذلك الوقت الذي جردوه فيه عن الفعل والإحداث تعالى الله وتقدس .

فالأشاعرة والكلابية : يقولون التسلسل في الماضي له حد وكذلك الجهمية لكن بينهم فرق ، فالجهمية والمعتزلة يقولون كان التسلسل في الماضي منقطع وهو ممتنع على الله ، بمعنى أن الله سبحانه لو أراد أن يحدث لما قدر وهو مستحيل عليه الفعل في ذلك الوقت وممتنع ، والأشاعرة يقولون الفعل كان ممكنا والله قادر عليه لكنه ما أراد أن يفعل في تلك الأوقات المتطاولة في الأزل ، وعلى كل فهذا مختصر ما قيل في مسألة الحوادث ونهايتها .

فقول الطحاوي رحمه الله : (قديم بلا ابتداء) يعني أنه أول لا نهاية لأوليته وهذا لا يمنع من أن يكون لا حد ولا أولية لأفعاله و إحداثاته سبحانه وتعالى .

لما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : إن جنس الحوادث لا أول لها وأما إفرادها فلها أول ، قال خصومه : إن قولك لم يزل سبحانه وتعالى يفعل ويحدِث يلزم منه أن تلتقي مع الفلاسفة في قدم الحوادث ، ولكن فرق بين مذهب الفلاسفة ومذهب شيخ الإسلام رحمه الله تعالى والسلف في قدم الحوادث ، فإن الفلاسفة يقولون : إن كل جزء من العالم فهو قديم لم يسبقه حدوث ، لأن كل جزء فهو من جزء من آخر ، وكل جزء من جزء آخر ، ولا يوجد شيء عند الفلاسفة وجد من العدم بعد أن لم يكن ، بل العالم قديم والأجزاء التي توجد بعضها بعد بعض كلها متولدة من العالم القديم ، وهذا فرق .

والجهمية قالوا : إنه يستحيل أن يكون معه سبحانه مثيل في الأولية ، إذ لو قلنا إنه يوجد معه محدثات لكانت مماثلة له في الأولية والقدم ، ولكنهم غفلوا عن أنه لا يوجد محدثات بعينها قديمة أزلية ، يعني جنس الحوادث قديم وأما أعيانها وأفرادها فهي حادثة ، فإذا كانت كذلك ما لزم المحذور الذي تخشاه الجهمية .

ونقول تقريبا لفهم ما يقصده السلف أو تقريبا لفهم الفرق بين مذهب الفلاسفة ومذهب أهل السنة و الجماعة :

نحن نقول هذه الأرض محدثة لكن هل أحدثت من شيء قبلها ؟ نقول محدثة من العدم ، كانت في وقت ما معدومة ثم أحدثها سبحانه ، لكن ليست هي أول ما حدث بل قبلها العرش والعرش خُلق من العدم لا من شيء آخر وقبل العرش عالم والعالم خُلق من العدم لا من شيء آخر وقبل ذلك العالم عالم لكن ذلك العالم حدث من العدم ، وهكذا يتسلسل الأمر والأفعال والحوادث إلى ما لا حد لذلك ، والذي يلزم هو المحذور الذي يكون في مذهب الفلاسفة وهو أن العالم بعينه لا أول له ، هذا الجدار لا أول له أبدا لأنه خلق من الاسمنت والحصى ، والاسمنت والحصى خلق من شيء آخر والشيء الآخر خلق من شيء آخر إلى ما لا نهاية ، فهم لا يعتقدون بأن هناك جزء من العالم وجد من العدم ، الذي عند الفلاسفة أن كل جزء من جزء قبله ، وهكذا إلى ما لا نهاية (١) .

(لا يفنى ولا يبيد) .

الشرح : صفات الباري سبحانه وتعالى في اصطلاح العلماء ثلاث أقسام :

صفات ذاتية وصفات فعلية وصفات اصطلحوا على تسميتها : خبرية .

فأما القسم الأول : الصفات الذاتية ، وهي صفات الذات التي تلازم الذات كالعلم والحياة و القدرة و الإرادة و السمع و البصر و الكلام ، وهذه هي التي أثبتتها الأشاعرة والكلابية والماتريدية ، وقالوا : إن العقل يثبتها فأثبتوها ، وأما ما عداها من الصفات فقد نفوها .

وطريقة إثبات الصفات السبع بالعقل عندهم : يقولون إن الإحكام الموجود في الخلق يدل عقلا على العلم ، والتخصيص الموجود في المخلوقات يدل على المشيئة والإرادة قالوا وهذه الصفات لا تكون إلا للحي ، ثم الحي لا يخلوا : إما أن يكون سميعا بصيرا متكلما أو أصم أعمى أبكم ، والصفات الأُول أكمل فيكون الله سبحانه وتعالى مستحقا لها بالعقل ، هذه الصفات السبع أثبتوها بالعقل بهذه الطريقة وقالوا ما عداها فإن العقل لا يثبته وإذا كان العقل لا يثبته فإننا لا نثبته

---

(١) يأتي إن شاء الله مزيد توضيح عند جواب الشيخ على الإشكال الذي أورده الألباني حول كلام ابن تيمية ص ٦٥

، وقد رد عليهم شيخ الإسلام رحمه الله وقال : إن إثباتكم هذه الصفات السبع ونفيكم ما عداها لا يصلح الاستدلال عليه بالعقل لأن العقل وإن دل على هذه الصفات السبع فإنه يدل على غيرها أيضا بالطريقة التي استدللتم بها ، وأيضا العقل لا ينفي هذه الصفات الزائدة على الصفات السبع ، وإذا كان العقل لا ينفيها فلا يجوز لكم نفيها ، لاحتمال أن تكون ثابتة بدليل آخر لأن انتقاء الدليل المعين لا يدل على انتقاء المدلول المعين فقد يكون الأمر منتفيا عنه دليل ما مخصوص لكن يوجد دليل آخر يثبته وهذا هو الواقع في صفات الباري سبحانه وتعالى ، فعلى تسليم أن العقل لا يدل على ما عدا الصفات السبع فإنه لا ينفيها وكونه لا يدل عليها لا يقتضي انتفاؤها لأنه يمكن أن تكون ثابتة بدليل آخر كما هو الواقع ، فإذا أثبت لهم أن العقل أثبت الصفات السبع فإن صفات الباري سبحانه وتعالى ثابتة بالسمع أيضا ، والسمع دليل سالم من المعارض فيجب القول به .

وقد أجابهم رحمه الله بطريقة أخرى فقال : إنه يمكننا أن نثبت ذات الصفات بالعقل بالطريقة التي أثبتم بها الصفات السبع ، فكما أنكم استدللتم بالإحكام على العلم واستدللتم بالتخصيص على المشيئة فإننا نستدل على الرحمة بالإحسان ، فإحسانه إلى عباده يدل على صفة الرحمة ، وإكرامه لأوليائه يدل على صفة المحبة وعذابه وانتقامه من أعدائه الكافرين يدل على صفة الغضب عقلا ، فالطريقة التي أثبتم بها الصفات السبع نثبت بها أيضا باقي الصفات .

القسم الثاني : الصفات الفعلية وهي التي يفعلها إذا شاء ويتركها إذا شاء كالنزول والاستواء والمجيء والغضب والرضا والمحبة والرحمة وغير ذلك من صفات الفعل . وهذه تسمى صفات فعلية وتسمى صفات اختيارية .

القسم الثالث : اصطلح العلماء عليه – وخصوصا علماء الكلام – على تسميتها بالصفات الخبرية ، والصفات الخبرية هي اليد والقدم والأصبع والعين و الساق وغيرها (١) ، ومثل هذه الصفات الخبرية يقول من أثبتها : جاء بها الخبر فننثبتها لأجل الخبر الصحيح السالم من المعارض ، ولكن السلف رضوان الله عليهم يثبتون هذه كلها على سبيل أنها لا تماثل شيئا من صفات المخلوقين ، ويثبتونها لأن الخبر أثبتها ، فكل صفاته تخصه وإن اشتركت في الاسم فإنها تختلف عند الإضافة والتقييد ، فمطلق علم ، مطلق حياة ، مطلق بصر ، مطلق كلام ، هذا قبل الإضافة والتقييد يصلح لكل من يتصف به لكن إذا أضيف تقيد بمن يضاف إليه ، فقولك علم الله حياة الله سمع الله بصر الله هذا يفصل العموم الموجود في العلم والسمع والبصر والحياة – يفصله ويضيفه

---

(١) أسموها خبرية لأنه لا يمكن إثباتها بالعقل ثم حرفوا معانيها باسم التأويل .

إلى الله سبحانه وتعالى ، فيكون لائقا بجلاله وعظمته ، فكما أن له ذاتا لا تشبه ذوات المخلوقين فكذلك له صفات لا تشبه صفات المخلوقين .

ووجه غلط النفاة المعطلة ظنهم أنه إذا حصل اشتراك في الاسم فإنه يلزم اشتراك في المسمى ، فقالوا ما دام أننا نرى صفة الحياة وصفة العلم وصفة البصر وصفة الغضب وصفة الرضا لا نشاهد – في العالم الشاهد الحاضر – لا نشاهد شيئا متصفا بها إلا وهو جسم فلو أثبتناها لله سبحانه وتعالى للزم أن يكون جسما ولكن هذا يرد بأن الصفات التي يشاهدونها ويرونها هذه تليق بمن قامت بهم وهم المخلوقون أما الله سبحانه وتعالى فصفاته قائمة بذاته وتناسبه ، كما أن ذاته لا تشبه الذوات فكذلك صفاته لا تشبه الصفات .

وقوله : (لا يفنى و لا يبيد) هذا تأكيد لدوامه سبحانه وتعالى وصفة البقاء والدوام لله سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية الواجبة له ، فإذا كان كذلك انتفى عنه الفناء وانتفى عنه أن يكون من الأمور التي تبيد ، فهو دائم سبحانه وتعالى لا يفنى يعني لا يجوز عليه الفناء ولا يجوز عليه أن يبيد أو أن ينعدم لأن دوامه كأزليته سبحانه وتعالى فكما أنه أزلي لا مبدأ لوجوده فكذلك هو دائم باق لا نهاية لدوامه ، فلا يطرأ عليه الفناء ، ولا يطرأ عليه أن يبيد أو ينعدم ، لأن بقاءه واجب وجوبا ذاتيا لا يقبل العقل سواه ، فإذا كان العقل لا يقبل سواه امتنع أن يطرأ عليه الفناء أو أن يطرأ عليه العدم ، فهو دائم سبحانه وتعالى ، ودوامه واجب لذاته ، إذاً فلا يجوز عليه الفناء ولا يجوز عليه العدم .

(ولا يكون إلا ما يريد) .

الشرح : هذا له صلة بالكلام على القضاء والقدر ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يكون في ملكه إلا ما يريد ، فما أراده كونا وقدرا كان ، وما لم يرده كونا وقدرا فإنه لا يكون ، **والإرادة نوعان** :

إرادة كونية وإرادة شرعية :

فالإرادة الكونية لا بد من كونها ، والإرادة الشرعية قد تحصل وقد لا تحصل ، فإن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئا كونا وقدرا فلابد أن يقع وإذا أراد شيئا شرعا فقد يقع وقد لا يقع ، فهو سبحانه وتعالى أراد من أبي جهل وأبي لهب كونا وقدرا – أي قضى عليهما وقدر عليهما – أن يكونا كافرين إرادة كونية ، وأراد من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن يكونا مؤمنين فكانا مؤمنين ، أراد منهما ذلك كونا وقدرا وأراده منهما شرعا ودينا .

فالمحبة والرضى ، والإرادة الشرعية والأمر الشرعي من الله – كل هذه مترادفة ، فما أراده شرعا فقد أحبه ورضيه وأمر به ، أما الإرادة الكونية فإنها المشيئة الشاملة والقضاء والقدر السابق ، وأهل السنة والجماعة متفقون على الإيمان بالإرادتين واعتقادهما ، وأما القدرية من المعتزلة وغيرهم فإنهم يقرون بالإرادة الشرعية وينفون عن الله الإرادة الكونية لأفعال العباد ، وينكرون أن الله قضى وقدر أو أراد شيئا مما يكون ، لا سيما المعاصي والكفر والفسوق الواردة إرادتها في القران ، ففي اعتقاد المعتزلة ، والقدرية من غير المعتزلة ، أن كل إرادة وردت في القران والسنة تفسر بالإرادة الشرعية ، أما الإرادة الكونية لأفعال العباد فإنها لا تكون ولا وجود لها عندهم لأنهم يقولون إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد المعاصي والكفر والفسوق ثم عاقب الناس عليه يكون ظالما لهم ، وما عرفوا أن الله لا يظلم أحدا شيئا ، وأنه أراد ذلك منهم كونا وقدرا لكنه أرسل إليهم الرسل وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ، واخبرهم بأنهم إنْ هم أطاعوه أفلحوا ، وإنْ هم عصوه خسروا ، فاختاروا الطريق الآخر بمحض إرادتهم ، فكان الله سبحانه وتعالى عادلا في تعذيبهم وليس ظالما .

(لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام ولا يشبه الأنام)

الشرح : لا تدركه الأفهام بمعنى إدراك حقيقته سبحانه وتعالى ، أما نحن فنعلم أن الله سبحانه وتعالى موجود ، ونعلم أنه فوق السموات ، فوق العرش ، ونعلم أنه متصف بجميع صفات الكمال من العلم والحياة والقدرة وغيرها ، ونعلم أنه أكبر من كل شيء ، ولكن الإدراك غير العلم ، والإحاطة به علما لا تمكن كما قال سبحانه وتعالى (لا تدركه الأبصار)(سورة الأنعام آية :١٠٣) فنفى الإدراك مع العلم بأن الأبصار تراه ، لكنه نفى الإدراك لأن الإدراك شيء والعلم والفهم شيء آخر .

ومهما تخيل الإنسان ما لله سبحانه من عظمة وجلال فهو أكبر من ذلك وأعظم بكثير ، وكذلك الأفهام لا تدركه عز وجل ولا تحيط به ، يعني لا يحيط أحد علما بربه سبحانه وتعالى (١).

(حي لا يموت قيوم لا ينام)

الشرح : يوصف سبحانه وتعالى بصفة الحياة الكاملة إذ الحياة تكون تامة كاملة و تكون ناقصة ، فحياة البشر ناقصة لأنها يطرأ عليها النوم ويطرأ عليها السّنة ويطرأ عليها الغفلة ، أما حياته سبحانه فهي تامة لا يطرأ عليها شيء من ذلك .

---

(١) سيأتي إن شاء الله تعليق الشيخ ص ٤٣ على كلام المؤلف حول لفظة (التشبيه) وكلام السلف في عدم ثبوتها .

قوله : (قيوم) بمعنى أنه قائم بنفسه مقيم لغيره وأنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، فهو الحي القيوم : حي حياة كاملة وقيوم السماوات والأرض ، قيوم يقوم بنفسه وبذاته ويقيم غيره سبحانه وتعالى ، وهو الغني عن خلقه وجميع خلقه فقراء إليه .

(خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤونة ، مميت بلا مخافة باعث بلا مشقة)

الشرح : الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، هل خلقهم لاحتياجه إليهم ، لا حاجة به إليهم ، هو خلقهم لعبادته سبحانه وتعالى لا يريد بخلقه لهم التكثّر من قلة والتقوّي من عجز ، فهو سبحانه وتعالى الغني الغنى المطلق وهو قائم بنفسه ومقيم لغيره وغني عما سواه . وسواه فقير إليه .

قوله : (رازق بلا مؤونة) يعني يرزق الناس ويقوم بأرزاقهم كلهم ، ولا يثقله ذلك ولا يعجزه ولا يشق عليه .

قوله : (مميت بلا مخافة) إذا جاءت آجال خلقه يميتهم ولا يخشاهم ، لا يخيفه أحد ولا يخشى أحداً سبحانه وتعالى .

قوله : (باعث بلا مشقة) البعث سيأتي له موضوع ، لكن هو سبحانه يبعث الناس ولا يشق عليه ذلك كما قال عز وجل : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)(سورة يس :٨٢) لا يشق عليه ولا يعجزه ولا يكون خلقه للناس وبعثه لهم كأفعال الناس التي تحتاج إلى آلات وتحتاج إلى كذا وإلى كذا ، إذا أراد خلق الناس قال كن فيكونون .

(ما زال بصفاته قديما قبل خلقه ، لم يزدد بكونهم شيئاً ، لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً ، ليس بعد خَلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداثه البريّة استفاد اسم الباري ،له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق ، وكما أنه محيي الموتى ، بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم ، ذلك بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير ، لا يحتاج إلى شيء)

الشرح : ما زال بصفاته قديما (١) قبل خلقه يعني هو موصوف بالخالق ولا خلق ، وموصوف بالرازق ولا رزق ، وهذا يتلاءم مع مذهب القائلين بأن الله سبحانه وتعالى بقى مدة طويلة أو مدداً متطاولة لا يفعل ثم أراد الفعل ففعل ، وهذا قول من أقوال الناس بالتسلسل ، سبق عند قوله : (قديم بلا ابتداء) .

---

(١) أشار الشيخ قبل قليل أن صفاته الذاتية سبحانه قديمة ، أما الفعلية فإنها حادثة .

قوله : (لم يزدد بكونهم شيئاً ، لم يكن قبلهم من صفته) أي لم يزدد بخلقه للناس صفة الخلق ، فهو موصوف بأنه الخالق قبل أن يخلقهم ، فليس اسمه الخالق اكتسبه عندما خلق الناس ، هو لم يزل خالقا ، فكما أنه لم يزل خالقاً ولم يزل رازقاً ولم يزل محيياً ولم يزل مميتاً ولم يزل فاعلاً فهو لن يزال أيضاً ، يعني هذه الصفات التي استحقها في الأزل هو مستحقها في الأبد أيضاً ، فصفاته كما أنها قديمة فهي دائمة وباقية لا تفنى ولا تنقطع ، يعني ما سميناه الخالق يوم خلق الناس فهو خالق قبل ذلك ، ومن صفاته الخلق ، ويطلق عليه اسم الخالق ، حتى قبل أن يخلق الناس ، هذا على رأي من يرى أنه كان لا يخلق ثم خلق .

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

الشرح : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) لما ذكر ما ذكره من أسماء الله وصفاته فيما تقدم وبين مسلك أهل السنة والجماعة في ذلك أحب أن يذكر دليلاً يكون مرجعاً يعرف أنه مرجع لأهل السنة والجماعة وهو الأساس الذي تقوم عليه عقيدتهم وهو قوله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لأن وصف الله سبحانه وتعالى على طريقة أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون له ما أثبته لنفسه من الصفات أو أثبته له رسول الله ﷺ على سبيل التفصيل ، وينفون عنه ما لا يليق بجلاله وعظمته نفياً عاماً مجملاً خالياً من التفصيل ، وهذا المنطلق أخذوه من قوله سبحانه وتعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)(سورة الشورى آية :١١) وما يماثلها من الآيات الواردة في القرآن الكريم من إثبات الكمال لله سبحانه وتعالى على سبيل التفصيل ونفي النقائص والعيوب على سبيل الإجمال ، فقوله (ليس كمثله شيء) هذا نفي عام مجمل ، ليس كمثله شيء ليس كالنفي المفصل عند المعطلة ليس بجسم ولا بعرض ولا بجوهر ولا كذا ولا كذا . (ليس كمثله شيء) الكمال لازم لمثل هذا النفي ، لأنه إذا كان لا يماثله شيء من خلقه علم كماله سبحانه وتعالى .

أما الذين سلكوا طريق التنزيه والنفي على سبيل التفصيل ، فهؤلاء يصلون بنفيهم وتفصيلهم إلى العدم فإذا كان ليس فوق العالم ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا متصلا بالعالم ولا منفصلا من العالم – يصلون في النهاية إلى أنه لا شيء .

وقوله : (كمثله) بعض المفسرين ولا سيما الذين يعتنون بتفسير القرآن من حيث اللغة يقولون إن الكاف هنا زائدة ، والمعنى مفهوم بدونها ، أي ليس مثله شيء ، ومن المفسرين المحققين – كابن كثير رحمه الله وغيره – من لا يستسيغ إطلاق الزيادة في القرآن ، وإنما يقولون ليس كمثله شيء

أي لو فرض له مثل لم يكن لمثله مثل ، أي ليس مثل الله سبحانه وتعالى شيء ، ومثل هذه الكاف تكون لتأكيد نفي المماثلة ، والمعنى الثاني أسلم .

قوله : (وهو السميع البصير) فهذا معناه إثبات صفات كاملة لله سبحانه وتعالى متغايرة المعنى ليس معناها واحدا كما يقوله أهل الضلال والتعطيل الذين يقولون إن العلم بمعنى الحياة والحياة بمعنى السمع والسمع بمعنى البصر وكلها بمعنى واحد تدل على ذات واحدة .

السلف يثبتون لله ما يثبتونه من صفات الكمال :

أولا : أن يكون الإثبات دليلهم فيه كلام الله أو كلام رسوله .

ثانياً : أن يكون على سبيل التفصيل لا على سبيل الإجمال الذي يوهم ، كوصف المعطلة لله سبحانه وتعالى أنه موجود وجوداً مطلقاً أو أنه الوجود المطلق وأنه لا يجوز تقييد وجود الله سبحانه وتعالى بصفة بل يثبتون إثباتاً مجملاً ، أما أهل الحق الذين استضاءوا بكتاب الله وسنة نبيه (فإنهم يثبتون لله سبحانه وتعالى الكمال ولكن على التفصيل ، فما ثبت في القرآن أثبتوه ، ومالم يثبت فهم فيه على نوعين :

النوع الأول : إما أن يكون من الألفاظ المجملة التي تحتمل حقا وباطلا ، فهذا يمسكون عنه فلا يثبتونه ولا ينفونه .

مثل وصف الله بالجسم فهذا من الأمور التي لم يرد في الكتاب ولا في السنة إثباتها ولا نفيها فالسلف يتوقفون في مثل هذه لا ينفونها ولا يثبتونها وإنما يقولون : لا نثبت إلا ما أثبته الله ورسوله ، ولا ننفي إلا ما كان نقصاً أو عيباً في حقه سبحانه وتعالى ، وسوف يأتي إن شاء الله زيادة بيان لهذا النوع (١).

النوع الثاني : أن يكون فيها نقص وعيب فينفوه .

وهذه الآية ومثلها هي التي تغضب نفاة الصفات والمعطلة وتقض مضاجعهم ، ولهذا يقال إن الجهم بن صفوان أو أحد أقرانه طلب من أحد القراء أن يقرأ قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)(سورة الشورى آية:١١) ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم ، ولكن ذلك القارئ رفض ، يقول شيخ الإسلام رحمه الله وغيره : حتى لو أطاعه وخان أمانته وكتب وهو العزيز الحكيم فإن العزة صفة والحكمة صفة ، فيقع في مثل ما فرّ منه .

---

(١) أنظر ص ٤٤

(**خلق الخلق بعلمه**)

الشرح : يعني أنه سبحانه وتعالى خلق الخلق وهو عالم بهم وأوجدهم وهو قادر عليهم لا أنه يجهل شيئاً من أمورهم قبل خلقهم ، وإنما هو يعلم ما تكون عليه حالهم بعد خلقهم يعلم ذلك قبل أن يخلقهم ، وعالم بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، فعلمه سبحانه وتعالى لا يحد ولا يحيط به أحد ، عام شامل ولا يخفى عليه خافية ، فهو عالم بخلقه ، خلقهم بعلمه وقدرته ، ما خلقهم وهو جاهل بعواقب الأمور التي سيصيرون إليها ، علم أحوالهم قبل خلقهم وعلم أعمالهم قبل أن يعملوا ، وخلقهم مع قدرته عليهم ، فلم يستعن بأحد ولم يعجزه شيء من خلقه الخلق ، (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)(سورة يس:٨٢) فهو سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى شيء عند إيجاده لما يريد ، إنما يقول له كن فإذا هو كائن .

قوله : (خلق الخلق بعلمه) يشير إلى الرد على المعتزلة والقدرية(١) الذين يقولون إن الله خلق الخلق وهو لا يعلم ما سيفعلون ، خصوصاً من الشر والمعاصي فإنه لم يعلمها ولم يخلقها وإنما بعد خلقه لهم هم خلقوها ، ففيه رد على المعتزلة و القدرية الذين يقولون إن الله لا يعلم أعمال العباد حتى يوجدوها . والقدرية طبقات ، من أول طبقاتهم من ينكر علم الله بالشر ، أما الخير فإنه يعلمه وهو منه ، وهو الذي ييسره ويهيئه له ،ولكن كما تفطن ابن عباس ﷺ حينما قال :(والذي نفسي بيده ليؤولن بهم الأمر إلى أن يخرجوا الله من أن يكون قدر الخير وعلمه كما أخرجوه من أن يكون علم الشر وقدره)(٢) .

والمتأخرون منهم قالوا إن الله لا يعلم شيئاً من أفعال العباد حتى يفعلوها لا الخير ولا الشر .

(**وقدر لهم أقداراً وضرب لهم آجالاً**)

الشرح : يعني قدر كل شيء على العباد ، وقدر ما سيفعله العبد من خير وشر ، قدر أن يكون سعيدا أو شقياً وأن يموت مؤمناً أو كافراً ، وهذا الذي تنكره المعتزلة والقدرية من غير المعتزلة ، ويقولون إن الله لم يقدر شيئاً مطلقاً وإنما إيجاد العباد لأفعالهم يستحيل أن يكون الله قدره بل يستحيل أن يكون علمه ، لأنه لو حصل ذلك لكان ظالماً لهم فلما كان عادلاً والظلم مستحيل عليه لزم أن يقال إنه لم يقدر شيئاً على العباد مطلقاً (٣).

---

(١) أي الغلاة منهم الذين ينفون علم الله بأفعال العباد .

(٢) رواه احمد في المسند (٣٠٥٤) وأورده ابن حجر في المطالب العالية (٢٩٣٦) ونسبه إلى إسحاق بن راهويه .

(٣) يأتي إن شاء الله ص ٥٦ الرد على هذه الشبهة.

قوله : (وضرب لهم آجالاً) هذا أيضاً فيه استنكار لمذهب المعتزلة الذين يقولون إن الآجال لا تتقدم ولا تتأخر ، ويقولون إن المقتول مات قبل أجله وله أجل محدود فإذا مات قبل ذلك بقتل أو بغيره يقولون إنه مات قبل أجله وهذه من ضلالاتهم وباطلهم وإلا فالمسلمون كلهم مجمعون– عداهم – على أن من مات فقد مات بأجله سواء مات بقتل أو حرق ، وسواء هَرِم أو مات طفلاً ، إنما لحياته حد قدره الله وحدّه ولا يجوز له أن يتقدمها ولا يجوز له أن يتأخرها (١).

(ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم ، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ، وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن)

الشرح : خلق الخلق وقدر عليهم المقادير ، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ولا تعارض بين قوله قدّر وأمر ، فإنه قدر التقدير العام وأمرهم أمراً خاصاً أمراً شرعياً ، وهو الذي يرادف الإرادة الشرعية ، لأن **الإرادة والمشيئة نوعان** :

النوع الأول : إرادة كونية معناها المشيئة والقضاء والقدر والتقدير الشامل العام .

النوع الثاني : إرادة شرعية معناها الأمر والمحبة والرضا بما يعمله الإنسان .

فهو قدر عليهم المقادير ولكنه أمرهم ونهاهم ، ولا تعارض بين ذلك كما أشار إليه في حديث الصحابي الجليل سراقة بن مالك حينما قال: يا رسول الله : بين لنا ديننا ، كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل ؟ قال : (لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير) ، قال : ففيم العمل ؟ فقال : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)(٢).

يعني لا يجوز للإنسان أن يقول أؤمن بأن الله قضى عليّ الخير والشر ، فإن كان قد قضى علي

---

(١) يقول ابن أبي العز رحمه الله عند هذا الموضع : (وعند المعتزلة : المقتول مقطوع عليه أجله ، ولو لم يقتل لعاش إِلَى أجله فكأن له أجلان وهذا باطل ، لأنه لا يليق أن ينسب إِلَى الله تَعَالَى أنه جعل له أجلاً يعلم أنه لا يعيش إليه ألبتة ، أو يجعل أجله أحد الأمرين ، كفعل الجاهل بالعواقب ، ووجوب القصاص والضمان عَلَى القاتل لارتكابه المنهي عنه ومباشرته السبب المحظور ، وعلى هذا يخرج قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صلة الرحم تزيد في العمر) أي: سبب طول العمر ، وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب إِلَى هذه الغاية ، ولو لا ذلك السبب لم يصل إِلَى هذه الغاية ، ولكن قدر هذا السبب وقضاه ، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إِلَى كذا ، كما قلنا في القتل وعدمه) اهـ.. انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ١٢٨ ت التركي

(٢) رواه مسلم (٢٦٤٨) وفي البخاري بلفظ آخر (١٣٦٢) .

الخير فسوف يحصل لي سواء عملت أم لم أعمل ، وإن كان قدر لي الشر فسوف يصلني سواء عملت أم لم أعمل ، وذلك أن نقول إن رسول الله ﷺ الذي أُمرنا بطاعته و اتباعه أخبرنا بأن الله قضى كل شيء وقدره فنؤمن بذلك ، وأمرنا أن لا نتكل على ذلك التقدير ، بل أمرنا أن نطيع الله ونهانا أن نعصيه ، فالمؤمن حقا هو الذي يؤمن بما أخبر الله به رسوله من القضاء والقدر ، ويطيع الله ويطيع رسوله فيما أمر به من الشرع والدين .

فجمع المؤلف بين القضاء والقدر والأمر والنهي يريد بذلك رفع هذه الشبهة التي قد يوردها جبري ويقول : إذا كان الله قدر علي الخير والشر فأي فائدة في عملي ؟ يقال له : الرسول الذي أخبرنا بأن الله قدّر الخير والشر أمرنا أن نعمل فقال : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) فنؤمن بالخبر ونطيعه فيما أمر ، والله سبحانه وتعالى أخبرنا أن ما قضاه سيكون مطلقاً ولا بد أن يكون .

وقوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)(سورة الرعد آية :٣٨) يمحو الله ما يشاء من التفاصيل التي تأتي بعد التقادير العامة ، والذي قضاه الله في اللوح المحفوظ لا يمكن أن يمحى .

والله سبحانه وتعالى مشيئته نافذة لا مشيئة لأحد مع مشيئته ، والعبد له مشيئة وله إرادة ولكن مشيئته وإرادته محدودة ومقيدة بمشيئة الله وإرادته ، كما قال سبحانه وتعالى : (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين)(سورة التكوير آية :٢٩) فما شاءه الله كان ، سواء أراده العباد أم لم يريدوه ، وسواء رضيه العباد أولم يرضوه ، ما أراده الله إرادة كونية فسيكون خيراً كان أو شراً ، وما لم يرده إرادة كونية فلن يكون مهما بذل العبد من الوسائل ، وهذا يمثله البيت الذي نظمه بعض العلماء حينما قال:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ

وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

فما شئت يا رب كان وإن لم أشأ أنا ، وما شئتُ أنا إن لم تشأ يارب لم يكن ،(١)

هذا يمثل مذهب السلف تماما ، و يوضح مذهبهم في المشيئة والإرادة ، وفي فعل العبد ومشيئة العبد توضيحاً كاملاً .

(يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلاً ، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا)

الشرح : هذه المسألة هي مسألة القضاء والقدر ، ومسألة العدل ، والمسألة التي ضل فيها فئام من

---

(١) هذا البيت منسوب للإمام الشافعي رحمه الله ، انظر الإيمان بالقضاء والقدر لعمر بن سليمان الأشقر ص٢١

الناس كالمعتزلة والرافضة وغيرهم من القدرية الذين يقولون إننا لو قلنا إن الله يهدي بمعنى يوفق ويلهم للزم أن يكون ظالماً ، كيف يهدي فلاناً ويوفقه ويضل فلاناً أو يمنعه من الهداية .

الهداية عند علماء أهل السنة لها معان :

هداية معناها البيان والإرشاد .

هداية معناها التوفيق والإلهام والتسديد .

فالهداية التي بمعنى البيان والإرشاد هذه تكون من الله وتكون من الرسل وتكون من المؤمنين العلماء ، وهي بيان الطريق والإرشاد والنهي عن الضلال والتحذير من الوقوع فيه .

أما الهداية التي بمعنى التوفيق والإلهام فهذه لا تكون إلا من الله عز وجل كما قال سبحانه وتعالى : (إنك لا تهدي من أحببت)(سورة القصص آية :٥٦) تهدي بمعنى تدل وترشد وتبين وأما هداية التوفيق فهي في قوله تعالى : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم*صراط الله)(سورة الشورى آية:٥٣-٥٢) و معنى (إنك لا تهدي من أحببت) أي لا توفقه ولا تعينه ولا تسدده بل ذلك كله إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذه القضية من كبريات القضايا التي احتدم فيها الجدال والخصام و المناظرة بين القدرية وغيرهم من مثبتة القضاء والقدر ، يقولون كيف نعتقد بأن الله يهدي فلانا ويضل فلانا ثم لا يكون ظالماً لمن أضله ؟ والجواب عن هذه الشبهة أجاب به كثير من العلماء ، وهو أن الهداية التي يعطيها سبحانه وتعالى من يشاء ويمنعها من يشاء هي ملك لله سبحانه وتعالى ، والمالك لملكه إن تفضل به على أحد فهو فضل منه وإن منعه فهو عدل منه لأن المالك للشيء يتصرف به في المنح وفي المنع .

وقد جرت مناظرة بين عبد الجبار الهمذاني المعتزلي وبين أبي إسحاق الإسفرائيني الأشعري حيث دخل عبد الجبار على الصاحب بن عباد وكان عنده الإسفرائيني : فقال عبدالجبار على الفور : سبحان من تنزه عن الفحشاء .

فقال الإسفرائيني فورا : كلمة حق أريد بها باطل ، سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء .

فقال عبدالجبار — وفهم انه قد عرف مراده - : أيريد ربنا أن يعصى ؟

فقال أبو إسحاق : أيعصى ربنا قهرا ؟

فقال عبد الجبار : أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى ، أحسن إلي أم أساء ؟

فقال الإسفرائيني : إن كان منعك ماهو لك فقد أساء ، وإن كان منعك ماهو له فيختص برحمته من يشاء ، فانقطع القدري عبدالجبار وسكت ولم يجد جواباً (١) .

---

(١) انظر دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي في آخر أضواء البيان ٣٣١/١٠ ، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١ / ٣٣٩

(وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله)

الشرح : سبق أن ذكرنا أن الإيمان بالقضاء والقدر من أصول أهل السنة والجماعة ، وأن الله قضى وقدر كل شيء على العباد قبل خلقهم ، وبينا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يملك هداية التوفيق ، وبينا أن الهداية تنقسم إلى هداية التوفيق وهداية الدلالة والإرشاد وأن هداية التوفيق هي التي اختص الله سبحانه وتعالى بها ، أما هداية الدلالة والإرشاد فتكون من الله ومن الرسل ومن العلماء وهي هداية الطريق والسبيل لمن يريد السلوك .

وهنا قال : (وهم يتقلبون) أي مع تقديره وقضائه عليهم الخير والشر كله هم يتقلبون بين عدله وفضله ، يعني هو سبحانه وتعالى يعامل عباده إما بالعدل وإما بالفضل فإذا وفقهم للخير وهداهم إليه ويسر لهم طرقه وفعلوه كان هذا من فضل الله سبحانه وتعالى ، وإذا منع عنهم التوفيق وخذلهم فإن ذلك يكون عدلاً منه سبحانه وتعالى ولا يكون ظلماً ، وقد بينت سابقاً أن القدرية يقولون إن الله لو شاء المعاصي ثم عذب عليها يكون ظالما لهم ولا يتحقق العدل في حق الله عند المعتزلة والقدرية إلا إذا أنكروا أو نفوا عنه أن يكون قدر شيئاً من المعاصي والكفر وغيره ، ولكن الذي عليه أهل السنة والجماعة وسلف الأمة أن الله سبحانه وتعالى حُكمه في عباده دائر بين أمرين ، إما أن يعاملهم بفضله وإما أن يعاملهم بعدله ، فإن وفقهم للخير فقد تفضل عليهم بذلك ، وإن منعهم ذلك التوفيق فقد عدل في حقهم لأن من ملك شيئاً ومنعه غيره لا يكون ظالماً لهم وإنما يكون عادلا في حقه ، لأن العقلاء كلهم متفقون على أن المالك للشيء إعطاؤه لغيره فضل ومنعه عن غيره عدل ، فهذا معنى قوله : (يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله) .

(وهو متعال عن الأضداد والأنداد)

الشرح : يعني أن الله سبحانه وتعالى لا ند له ولا ضد له ، والند والضد متقاربان ، و المماثل و المناظر والنديد بمعنى واحد.

(لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره ، آمنا بذلك كله وأيقنا أن كلا من عنده)

الشرح : الكلام الذي تقدم كله يتعلق بقوله : (نقول بتوفيق الله إن الله واحد لا شريك له)

(وأن مُحَّداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى)

الشرح : الآن انتقل إلى الكلام عن الرسول ، ومعلوم أن الركن الأول من أركان الإسلام هو الإقرار بالوحدانية لله والإقرار بالنبوة والرسالة لمحمد، وأنه لا ينفع الإقرار بالتوحيد مالم ينضم إليه الإقرار

بالرسالة والنبوة لمحمد ، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن أركان الإسلام قال : (أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله)(١) .

وقوله : (وأن مُحَمَّداً عبده المصطفى) يعني اصطفاه الله واجتباه من بين خلقه واصطفاه لعلمه سبحانه وتعالى السابق أنه هو من يصلح للرسالة والنبوة ، اختاره واجتباه وأرسله إلى أهل الأرض .

قوله : (ورسوله) الرسول هو من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغ ذلك الوحي ، بخلاف النبي : وهو من أوحي إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه ، فالنسبة بين الرسول والنبي هي العموم والخصوص المطلق ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً ، والرسول أخص من النبي لأنه لا يمكن أن يكون رسولاً إلا وهو نبي ، لأن التنبئة معناها الإخبار بوحي الله ، لكن إن كان هذا الموحى إليه بوحي الله وخبر الله أُمر بتبليغه للناس صار نبيا بإخباره بالوحي وصار رسولا بأمره بالتبليغ ، وإن أخبر بشيء من الوحي ولم يكلف بتبليغ الناس بذلك كان نبياً فقط .

وأما من يقول إن النبي هو المقرر لشرع من قبله فيعترض عليه بأن آدم عليه الصلاة و السلام نبي وهو لم يجدد لوحي قبله ، فيكون هذا التعريف ناقص لا يشمل كل نبي وكل رسول ، والتعريف الصحيح هو الذي ذكرته ، وهو الذي عليه أئمة السلف وهو الذي يشمل جميع من أوحى إليه بشرع سواء أمر بتبليغه أولم يؤمر بتبليغه ، كل من أوحى إليه بشيء من خبر الله فهو نبي ولا يخرج أحد عن ذلك أبداً ، لكن يكون رسولاً إن أمر بالتبليغ .

(وأنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين)

الشرح : من أصول الشريعة الإيمان بأن النبوءات ختمت بمحمد ، وهذا جاء في القرآن وجاء في الحديث أيضاً ، ففي سورة الأحزاب جاء صريحاً أن نبينا مُحَمَّدا خاتم النبيين ، قال تعالى : (ما كان مُحَمَّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)(سورة الأحزاب آية :٤٠) ، والنبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه خاتم الأنبياء وأنه لا نبي بعده فكان إجماعا من المسلمين أن مُحَمَّداً هو آخر الرسل وأن رسالته أخر الرسالات ولا يخالف أحد في ذلك من المسلمين ، ولهذا من ادعى النبوءة أو ادعى الرسالة حكم المسلمون عليه بالكفر إجماعاً .

قوله : (وإمام الأتقياء وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين) هذا كله من باب السجع و المؤلف رحمه الله مع أن عقيدته هذه مختصرة جداً إلا أنه يكثر فيها من التكرار لأجل مراعاة السجع .

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (١)

(وكل دعوى النبوة بعده فغيٌ وهوى)

الشرح : قد أخبر أنه سيكون بعده متنبئون ، فقال : (سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي)(١) ، وقد وجدوا كلهم ، منهم الأسود العنسي ومنهم مسيلمة الكذاب ومنهم سجاح ، ومنهم كثيرون كلهم ادعوا النبوة ولكن ما تم لهم شيء .

وقوله : (كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي) هذا للحصر ، ولهذا لم يقل أحد إنه وجد أكثر من ثلاثين متنبئا ، وما يظهر في الأوقات المتأخرة من دعوى النبوة فإن ذلك يكون نتيجة خلل في العقل ، و أنا شاهدت بالرياض اثنين أو ثلاثة يوم كنا طلبة عند الشيخ مُحَمَّد بن إبراهيم(٢) كلهم مجانين ، وحصل عند الشيخ ابن حميد(٣) مره أو مرتين لكن هؤلاء كلهم عندهم خلل في العقل ، الرسول ﷺ يتكلم عمن يدعي النبوة جاداً ويكون له شوكة وأتباع ، فيقبلها من الرعاع ناس يتبعونه ويكونون معه ، هذا هو الأولى بحمل كلامه .

والنبي لابد له من علامات وآيات تبينه وتميزه من غيره ، فإذا وجدت تلك الآيات عرف أنه نبي وأما بدونها فإنه لا يحكم بنبوته ، أما رسالة مُحَمَّد فلا يمكن أن يأتي أحد بآيات ولا يمكن أن يكون أحد رسولاً بعده أبداً .

ومن هنا تعلم ضلال المعتزلة في نفيهم كرامات الأولياء ، وقد نفوها متذرعين بأنهم لو اثبتوا للأولياء كرامات لالتبس عليهم الولي بالنبي ، وهؤلاء يقال لهم :

أولا : إن العلماء فرقوا بين الكرامة والمعجزة .

ثانيا : يقال لهم هل هناك نبي سيأتي بعد نبينا مُحَمَّد حتى تنكروا ذلك خشية الالتباس بينهما ..!

والمعجزات كثيرة وهي آيات الأنبياء والرسل ، وهي خوارق للعادات وسوف يأتي زيادة توضيح لذلك عند الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله (٤).

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٢) واللفظ له ، والبخاري (٣٦٠٩) ومسلم (١٥٧) .

(٢) هو الشيخ مُحَمَّد بن إبراهيم من أحفاد الشيخ مُحَمَّد بن عبدالوهاب آل الشيخ مفتي الديار النجدية ، ولد في الرياض سنة ١٣١١ هـ، وهو من ابرز مشايخ الشيخ حمود العقلاء ، وكان الشيخ حمود يثني عليه كثيرا ، له رسائل وفتاوى ومكاتبات مجموعة في ثلاث عشرة مجلد ، توفي رحمه الله سنة ١٣٨٩ هـ . انظر روضة الناظرين لمحمد بن عثمان القاضي ٢/٣٣٥ .

(٣) هو الشيخ عبدالله بن مُحَمَّد بن حميد الخالدي رئيس مجلس القضاء الأعلى ، ولد في الرياض ١٣٢٩ هـ ، عين قاضيا في بريدة لفترة طويلة ، و قرأ عليه عدة من علماء القصيم ، وكذا الرياض وغيرها ، له مؤلفات ورسائل ، وقد طبع له مجلد فيه بعض فتاويه ، توفي رحمه الله سنة ١٤٠٢ هـ انظر روضة الناظرين للقاضي ٢/ ٥٥

(٤) أنظر ص ١٨٥.

(وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى والنور والضياء)

الشرح : هذا بيان اعتقاد السلف أن رسالة النبي ﷺ عامة لجميع الناس ، كان الرسول يبعث إلى قومه خاصة أما النبي ﷺ فقد بعث إلى الناس عامة ، قال الله تعالى : (قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً)(سورة الأعراف آية :١٥٨) ، فالناس هنا صيغة عموم لأنه معرّف بأل فيعم جميع الناس ، وهو عليه الصلاة والسلام أخبر بذلك وقال في الحديث المتفق على صحته في الخمسة التي لم يؤتها نبي قبله منها (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) (١) وهذا بإجماع المسلمين ، أما ما يقوله أعداء الإسلام من عيسوية اليهود وغيرهم الذي يقرون برسالة مُحَّد صلى الله عليه وسلم ولكنهم يقولون إنه رسول للعرب فقط فهذا ضلال وكفر ولا يلتفت إليه (٢) ، لكن المسلمون كلهم مجمعون على أنه ﷺ بعث إلى الناس عامة أي إلى جميع الناس .

(وأن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً ، وأنزله على رسوله وحيا ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البريّة ، ومن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه و أوعده بسقر ، حيث قال تعالى (سأصليه سقر) فلما أوعد الله بسقر لمن قال (إن هذا إلا قول البشر) علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر)

الشرح : هذا المقطع يتعلق ببيان مذهب أهل السنة والجماعة في كلام الله ، والإمام الطحاوي واحد منهم ، وهو يتكلم على أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة وهو كذلك ، وهو سائر على طريقتهم رحمه الله إلا في مسائل قليلة ينبه عليها في حينها .

الكلام في لغة العرب من حيث هو ما تكون من كلمتين وأفاد فائدة يحسن سكوت المتكلم عليها ، وكلام الله سبحانه وتعالى هو ما تكلم به وسمع من ملائكته وأنبيائه ، وللناس في كلام الله مذاهب كثيرة ، ذكر شارح الطحاوية منها تسعة مذاهب ، ولكن كلها ترجع إلى ثلاثة مذاهب :

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

(٢) أهل الكتاب يستشهدون على هذا من القرآن ، وقد رد عليهم شيخ الإسلام رحمه الله في الجواب الصحيح (١٣٠/١ وما بعدها) ودحض حجتهم بأمور منها ما ملخصه :

١ – إن في كلام نبينا مُحَّد ما يبين كفرهم وشركهم ، فلماذا يأخذون ما يريدون ويدعون مالا يريدون .؟!

٢ – أنهم يكذّبون مُحَّدا فكيف يستشهدون بكلامه .؟!

٣ – أن هذا يعني إقرارهم بنبوة مُحَّد إلى العرب .

المذهب الأول : قول السلف أهل السنة والجماعة وهو أن القرآن والتوراة والإنجيل كلام الله ، وأنه يتكلم بكلام يسمع منه بحرف وصوت إذا نادى أو كلم من شاء من عباده سواء في ذلك الملائكة أو الرسل أو غيرهم ، كما قال سبحانه وتعالى في عدّة مواضع من كتابه العزيز ، ومنها قوله عز وجل :(فأجره حتى يسمع كلام الله)(سورة التوبة آية :٦) وكذلك قوله :(وكلم الله موسى تكليماً)(سورة النساء آية :١٦٤) وقوله سبحانه: (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)(سورة الأعراف آية :١٤٣) وغيرها من النصوص الدالة على أن الله يتكلم إذا شاء ، والكلام صفة من صفاته سبحانه وتعالى كسائر صفاته ، يثبت له على الكيفية التي تليق بجلاله وعظمته .

فنؤمن بأن الله يتكلم وله كلام وأن كلامه بحرف وصوت ويسمع منه ولكن كيف يكون ذلك أو ما هو كنه ذلك الكلام ؟ هذا نقف عنه ولا نتكلم فيه لأننا مأمورون بالإيمان بمعاني الصفات وحقائقها أما كيفياتها وكنهها فهذا ليس إلى البشر ، والكلام كلام الله ، هو يتكلم إلى جبريل وجبريل يسمعه ثم ينقله إلى رسله ، وقد يتكلم إلى رسله مباشرة كما كلم موسى وكما كلم مُحَّمداً على الصحيح حين أسري به .

وهذا لا خلاف فيه بين السلف ، السلف كلهم متفقون على الإيمان بأن اللفظ والمعنى كلاهما كلام الله ، ليس كلامه المعاني دون الحروف ولا الحروف دون المعاني كما قال شيخ الإسلام رحمه الله .

والدليل على أن الله يتكلم بصوت ما ثبت عنه ﷺ من حديث عبدالله بن أنيس انه قال (يحشر الله الخلائق يوم القيامة عراة حفاة غرْلا ، بهما، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديّان)(١) .

وهذا خلاصة مذهب السلف في الكلام .

المذهب الثاني : فهو للأشاعرة والكلابية والماتريدية ، والأشاعرة الكلابية والماتريدية مشربهم واحد ومنهجهم واحد ، وأدلة الإثبات وأدلة النفي عندهم واحدة ، ولا يختلفون إلا في أمور خفيفة لا تستحق أن يقال إنه خلاف ، لأنه إن وقع بينهم شيء فهو من طرق الخلاف اللفظي (٢) .

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه معلقا بعد حديث (٧٧) ووصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٣٥٥/٥) ورواه البخاري أيضا في خلق أفعال العباد ص ٩٩ ، ورواه في صحيحه بلفظ آخر (٧٤٨٣) ، وفي الأدب المفرد (٩٧٠) ورواه احمد في مسنده (١٦٠٤٢) بسند حسن .

(٢) ينظر الماتريدية للشمس السلفي الأفغاني رحمه الله ١/ ٤٣٠ والتدمرية لشيخ الإسلام ص ١٩١ ت مُحَّد عودة السعوي .

هؤلاء رأيهم في كلام الله أن كلام الله هو المعنى القائم بذاته – معنى الكلام فقط – وأما أن يتكلم بكلام يسمع منه فهذا لا يقر به هؤلاء أبداً ، وإنما يقولون الحروف والأصوات التي تسمع هي كلام البشر .

فمعنى الكلام قائم بذاته ، و معنى الأمر و النهي و الاستفهام و الاستخبار كله قائم بذاته ، فإذا أراد تبليغ شيء من هذه المعاني أقدر جبريل على أن يفهم ما في نفسه سبحانه وتعالى فيعبر عنه ، فعلى هذا التفسير يكون القرآن مخلوقا(١) وإن قالوا إنه كلام الله ، لماذا ؟ لأنهم يقولون إن الله لم يتكلم بكلام سمعه جبريل وعبر عنه أو نقله ، يقولون إن جبريل فهم ما يريده الله فتكلم به ، فيكون معنى الكلام عندهم راجعاً للإرادة .

وهم إن أقروا به مع الصفات السبع التي يقرون بها لكنه على هذا النمط ، يقرون بكلام الله بمعنى أن معنى الكلام هو كلام الله وأما اللفظ فهو لفظ جبريل جاء به إلى مُحَّد ﷺ بعد أن فهم ما يريده الله ، فلفظ الكلام عندهم مخلوق ، فهم يتفقون مع الجهمية والمعتزلة بالنسبة للفظ الكلام وأنه مخلوق(٢) ، لكنهم يختلفون عنهم بدعواهم أن كلام الله معاني قائمة بذاته يُفهمها من شاء فيفهمها عنه ، لا أنه تكلم ، ويقولون الكلام في حقه سبحانه وتعالى محال لأن الكلام يحتاج إلى لسان وشفتين وأسنان وحلق ولهاة وغير ذلك .

ولكن يرد عليهم هذا الكلام الذي ذكروه : بأن هذا من شئون المخلوقين ومن صفاتهم ، الإنسان هو الذي كلامه يفتقر إلى هذه الآلات ، أما الله سبحانه وتعالى كما أن ذاته لا تماثل ذوات المخلوقين فكذلك صفاته ومنها الكلام لا تماثل صفات المخلوقين ، وإلا فلو طردنا هذا الباب على قولهم لبطلت صفات الله كلها .

لأنه يمكن لقائل أن يقول كالجهم مثلاً : الإرادة والعلم والحياة وغيرها من الصفات العقلية لا يوصف الله بها لأننا لا نرى متصفا بهذه الصفات – في المشاهد – إلا وهو مخلوق ، فلو أثبتناها لله لكان مشابهاً للخلق ، فلهذا لا يلزم على صفاته ما يلزم على صفات المخلوقين .

وكما أن الكلام أخبر الله عنه أنه صدر من بعض الأشياء من غير أن يكون لها لسان ولا أسنان ولا حلق كالسموات والأرض (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين)(سورة فصلت آية :١١) . هل للأرض لسان ، وهل للسماء لسان

---

(١) انظر قول ابن قدامة في البرهان في بيان القرآن ص ٥٢

(٢) ذكر بعضهم أن الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في كلام الله خلاف لفظي ، انظر شرح المواقف للجرجاني ٩٣/٨ وشرح العقائد العضدية للدواني ص ٥٨٨

وقد أخبر عنهما أنهما قالتا ؟ فالقول والكلام لا يتوقف على هذه الآلات إلا بالنسبة لما نشاهده من البشر ، والله سبحانه وتعالى أعظم من كل ما يخطر في خلد إنسان مهما كان ، لا يمكن لإنسان أن يتصور عظمته حتى يقول يلزم على كلامه كذا أو يلزم على رؤيته كذا أو يلزم على استوائه ونزوله كذا ، الله سبحانه وتعالى عظيم ولا يقاس بخلقه ، ولا يجوز عليه ما يجوز على خلقه من الأمور التي تكون عيوباً ونقائص .

فالكلابية والأشاعرة يقولون بهذا المذهب ، ولكن يختلفون في التعبير ، فالكلابية يقولون : إن القرآن حكاية عن كلام الله وليس هو كلام الله ، والأشاعرة يقولون إن القرآن عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله ، فكلهم متفقون على أنه ليس كلام الله وإنما هو كلام جبريل ، واختلافاتهم فيما بينهم كلها كهذا الاختلاف ، فلا فرق بين العبارة والحكاية إنما الأشاعرة تبرر قولها فتقول : إن الحكاية معناها المحاكاة والمشابهة ، وإذا قلنا إن القرآن حكاية عن كلام الله كأننا نقول إنه شبيه بكلام الله .

المذهب الثالث : مذهب الجهمية والمعتزلة ، هؤلاء يقولون إن كلام الله مخلوق لفظه ومعناه ، خلقه الله في اللوح المحفوظ ونقله جبريل عنه أو خلقه في أي مكان .

فمكالمته لموسى يقولون إنه خلق الكلام في الشجرة ، وهذا باطل لوجوه :

أولاً : أنه لو خلق في الشجرة لصار كلام الشجرة ، ولأنه خلق فينا كلاماً فهو كلامنا ، وخلق في الحيوانات الأصوات فالأصوات أصواتها .

ثانيا : لو كان الكلام خلقه في الشجرة لكانت الشجرة تدعو إلى عبادتها ، لأن الله سبحانه وتعالى نادى موسى (إني أنا ربك) فهل تقول الشجرة يا موسى إني أنا ربك ؟ فلما كان الكلام هو كلام الله سمعه موسى عليه الصلاة والسلام من تلقاء الشجرة ، فلا يصح أن يكون كلامه سبحانه وتعالى مخلوقاً لا في الشجرة ولا في غيرها ، صحيح أنه كَتب في اللوح المحفوظ سبحانه وتعالى ما شاء لكن تكلم به وكتبه لا أنه خلقه من غير أن يتكلم به ، هو كتبه بعد أن تكلم به سبحانه وتعالى .

ولهذا لما احتج عبد العزيز الكناني بالسبر والتقسيم على بشر المريسي في المناظرة التي جرت بين يدي المأمون عن كلام الله سبحانه قال عبد العزيز : هذا الكلام الذي تقوله يا بشر المريسي قولك إن الله خلقه أخبرني :

هل خلقه في نفسه سبحانه وتعالى ، أو خلقه في غيره ، أو خلقه لا في مكان ، ولا قسم رابع ، فلما كان السؤال مفحماً والجواب لا يجده المبطل عجز بشر عن الجواب .

فرجع المأمون إلى عبد العزيز الكناني وقال : انقطع بشر وعجز عن الجواب لكن أخبرني ماذا تقول لو أجاب بأي واحد منها ؟

قال : يا أمير المؤمنين أنا سألته هل خلق الله الكلام في ذاته الكريمة ؟ فلو قال : نعم لكفر ، لأنه جعل ذات الباري محلاً للحوادث وبالإجماع أن من اعتقد أن الباري محلاً للحوادث فقد كفر ، ولو قال : خلقه في غيره من سائر المخلوقات لطالبته بالفرق بين كلام الله وبين كلامي وكلامك وكلام زيد وعمرو ونهيق الحمير وصياح الكلاب ، كل هذه الأصوات خلقها الله في غيره ، فأي فرق بينها وبين كلام الله ، قال : ولو قال خلقه لا في مكان ، لا يقوله لكنه لو قاله لبُيّن له أن العقلاء أجمعوا بأن المخلوق لا بد وأن يكون في مكان ، ولا يمكن أن يكون في غير مكان ، فكل مخلوق لا يخلوا من مكان ، فانقطع المريسي ودحضت حجته .(١)

وأحد الأقسام الثلاثة التي جاء بها هي التي يقولها المعتزلة والجهمية وبالنسبة لكلام الله ، يقولون خلقه في غيره ، كلامه لموسى خلقه في الشجرة ، وكلامه لمحمد خلقه في اللوح المحفوظ ، فهم جعلوا كلام الله ككلام غيره لا فرق بينه وبين كلام الناس .

هذا حاصل أو خلاصة ما يقال في مذاهب الناس في كلام الله على سبيل الإجمال ، ولكن نعيد الجمل هذه التي قالها المؤلف لأنه رحمه الله يأتي في الحُكم الواحد بعدة عبارات من باب التكرار ، لأنه كما ذكرنا يحمله على التكرار مراعاة فقرات السجع .

(وأن القرآن كلام الله تعالى منه بدأ بلا كيفية (٢) قولاً)

الشرح : قوله : (بلا كيفية) نفي للتكييف ، وقوله : (قولا) لا أنه بدأ منه خلقاً ، خلافاً للأشاعرة ومن معهم الذين يقولون إنه بدأ منه إفهاماً أفهمه جبريل.

(أنزله على رسوله وحياً)

الشرح : أنزله على مُحَمَّد ﷺ وحيا أوحاه إليه ، والوحي قد يكون بواسطة الملك ، يتكلم الله بالوحي فينقله جبريل ثم ينقله إلى مُحَمَّد ﷺ فيوحيه إليه ، وقد يكون بطريقة أخرى ، فالوحي له عدة طرق كما قد دون في علوم القرآن .

---

(١) ذكر الشيخ رحمه الله هذه القصة مختصرة مع شيء من الشرح ، وتجد نصها في كتاب الحيدة لعبدالعزيز الكناني ص ١٢٦ تحقيق د. جميل صليبا .

(٢) الأولى بالطحاوي رحمه الله أن يقول بلا تكييف ، لأن كلام الله تعالى له كيفية الله اعلم بها ، لكن لا نكيفها ولا نسأل عنها بكيف .

(وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً)

الشرح : أي وصدقه المؤمنون أنه جاء بوحي من عند الله ، وأن الله تكلم بذلك ، اعتقدوه حقاً لا مجازاً.(١)

(وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة)

الشرح : وأيقنوا أنه كلام الله حقيقة لا مجازاً كما تقوله الجهمية والأشاعرة .

(ليس بمخلوق ككلام البرية)

الشرح : ليس بمخلوق ككلام البشر كما تقوله المعتزلة والجهمية والأشاعرة أيضاً.

المشكلة الآن أن الأشاعرة يقال إنهم أقرب الناس إلى أهل السنة ، علماً بأنهم إن نظرت إليهم من حيث صفة الكلام وجدت أنهم يوافقون المعتزلة من حيث إن الله لم يتكلم ولم يقل ، وإن نظرت إليهم من حيث القدر وأفعال العباد وجدتهم جبرية لأنهم ينفون أن يكون للعبد فعل ، وإن نظرت إليهم من حيث الصفات وجدتهم جهمية إلا فيما يدّعون إثباته من سبع صفات ، فمن أين لهم القرب ، فهم بعيدون من أهل السنة كل البعد .

هم متفقون مع أهل السنة والجماعة في الحكم على الصحابة وفي موالاتهم والترضي عنهم وعدم تضليل أحد منهم أو تكفيره ، ومواقفهم السابقة زمن صلاح الدين وغيره إنما كانت في أبواب الصحبة ، كما كان عداؤهم للرافضة وللنواصب ، فهم يلتقون مع أهل السنة في هذا المنطلق فقط ، وكذلك في مناظرتهم للمعتزلة كانت في إنكارهم للصفات السبع .

---

(١) الأصل في الكلام الحقيقة ، ولا يصار إلى غير ذلك إلا بدليل يوجب صرف اللفظ من الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (إن في تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز اصطلاحًا حادثًا بعد انقضاء القرون الثلاثة ، لم يتكلم به أحد من الأئمة المشهورين في العلم : كمالك ، والثوري ، والأوزاعي ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو مثل : الخليل ، وسيبويه ، وأبي عمرو بن العلاء ، ونحوهم) إلى أن قال : (وهذا الشافعي هو أول من جرد الكلام في أصول الفقه لم يقسم هذا التقسيم ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز ، وكذلك محمد بن الحسن له في المسائل المبنية على العربية كلام معروف في الجامع الكبير وغيره ولم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز) الخ . ثم نقل أن للإمام احمد في ذلك روايتين ثم قال : (والذين أنكروا أن يكون أحمد وغيره نطقوا بهذا التقسيم قالوا إن معنى قول احمد من مجاز اللغة أي مما يجوز في اللغة) .

انظر كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٨٤ — ٨٥ تحقيق الشيخ الألباني رحمه الله .

مع أن إثبات الأشاعرة للصفات السبع ليس على طريقة أهل السنة والجماعة ، فصفة الكلام مثلا يقولون هي المعنى القائم بذات الله تعالى أما اللفظ فلفظ جبريل وهو مخلوق ، وهم يؤولون في ذلك ولا يجاملون ويصرحون بأنه لا يتكلم ، بل ويعللون بما تعلل به المعتزلة والجهمية بأن القول والصوت يحتاج إلى لسان وشفتين وأسنان ، وهذا صريح في مذهبهم على ما يأتي تبيينه إن شاء الله .

فإن قيل إنهم يسمون بأهل السنة ، قيل الأشاعرة هم من سمى أنفسهم بذلك ولم يسمهم أهل السنة ، وما ذكر عن السفاريني في هذا فإن السفاريني رحمه الله من أهل السنة (١) ، لكن له نزعات في بعض المسائل يلتقي فيها مع الأشاعرة .

(فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه و أوعده بسقر حيث قال تعالى (سأصليه سقر) فلما أوعد الله بسقر لمن قال (إن هذا إلا قول البشر) علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر)

الشرح : يشير إلى الآيات الواردة في سورة يا أيها المدثر (٢) .

(ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر ، فمن أبصر هذا اعتبر وعن مثل قول الكفار انزجر وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر)

الشرح : هذا تكميل للعبارات السابقة .

(والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية)

الشرح : الرؤية حق للمؤمنين يوم القيامة ، والرؤية من الصفات التي حصل فيها الخلاف بين أهل السنة والجماعة وبين غيرهم من المعطلة ، فجمهور المسلمين يثبتون الرؤية ، ما عدا المعتزلة والجهمية وبعض الأشاعرة فإنهم ينكرون الرؤية ويقولون الله سبحانه وتعالى لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة وعللوا ذلك بأن معنى الرؤية أن يقع البصر على شيء مقابل ، وأن المرئي لا بد أن يكون منحازاً في مكان ينعكس عليه البصر ، والله لو كان كذلك لكان منحازا في مكان ، وهذا يدل على

---

(١) السفاريني رحمه الله من أهل السنة فيما وافق فيه أهل السنة ، وإلا شرحه لوامع الأنوار يبين انه يعتقد أن مسلك السلف هو التفويض ، وهو الذي يظهر من شرحه ، مع تناقضات أخرى له فيه رحمه الله . وانظر في ذلك شرح الشيخ ابن قاسم للدرة المضية ص ٢٤ ، و مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات ص ٢٤٢ للشيخ احمد القاضي .

(٢) (إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر) آية ٢٥-٢٦

تنقص في حق الله هكذا يقولون ، فنفوا الرؤية وصرفوا جميع النصوص الواردة فيها عن مدلولها إلى معانٍ تصوروها بعقولهم أو سفسطوا (١) وغالطوا ، وهم يعلمون أن تأويلاتهم باطلة .

الحاصل أن المعتزلة والجهمية وبعض الأشاعرة أنكروا الرؤية بتاتاً ، أما جمهور الأشاعرة فإنهم أثبتوا الرؤية ولكن أثبتوها بطريقة ليست بالطريقة التي أثبتها أهل السنة والجماعة ، فإنهم قالوا إن الله يرى والرؤية من صفاته ولكن يرى لا في مكان ، أرادوا أن يتخلصوا من شبهة المعتزلة والجهمية وهو أن المرئي يجب أن يكون في مكان منحاز ، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : إن الأشاعرة في مسألة الرؤية هم مخنثو المعتزلة ، بمعنى أنهم لا هم معتزلة وجهمية فيطردون الباب وينكرون الرؤية ، ولا هم من أهل السنة والجماعة فيقرونها ، فسماهم مخنثي المعتزلة ، كما أن الخنثى لا هو ذكر ولا أنثى ، أما أهل السنة والجماعة وأكثر المسلمين من غيرهم فإنهم يثبتونها لله سبحانه وتعالى و أدلتهم كثيرة في القرآن وفي الحديث ، كقوله سبحانه وتعالى : (وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة)(سورة القيامة آية :٢٣-٢٢) ناظرة يعني تنظر إلى الله سبحانه وتعالى وكذلك : قوله : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)(سورة يونس آية :٢٦) فسر المحققون من المفسرين أن الزيادة هي النظر إلى الله سبحانه وتعالى (٢)، وكذلك قوله سبحانه وتعالى (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم) إلى أن قال : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)(سورة المطففين آية :١٥-٧) فلما ذكر أن من عقاب الكافرين أن يحجبوا عن رؤية الله دل ذلك على أن غيرهم لا يحجب وأنه يرى الله سبحانه وتعالى ، وكذلك قوله ﷺ : (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته)(٣) ، فالرؤية في حق المؤمنين لله واجبة عند أهل السنة والجماعة ولا شك في ثبوتها .

---

(١) يقول الشيخ حمود في شرح التدمرية : السفسطة كلمة يونانية مركبة من سوف سطا ، أي مموه الحكمة ، ومعناها المغالطة وإظهار الباطل مظهر الحق ، وهي إحدى طرق الاحتجاج عند أهل المنطق .

وقد أشار شيخ الإسلام إلى هذا ثم قال : وإن كان لفظ السفسطة قد صار في عرف المتكلمين عبارة عن جحد الحقائق . انظر التسعينية ١/ ٢٥٣ ت د مُحَمَّد العجلان.

(٢) روى الترمذي (٢٥٥٢) عن النبي عليه الصلاة والسلام في قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : إن لكم عند الله موعدا ، قالوا : ألم يبيض وجوهنا وينجينا من النار ويدخلنا الجنة ؟ قالوا : بلى ، قال : فيكشف الحجاب ، قال : فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم عن النظر إليه) . وانظر صحيح البخاري بعد حديث (٤٦٧٩) ومسلم (١٨١) .

(٣) رواه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣) .

أما نفاة الرؤية فيزعمون –كما سبق – أن العقل يدل على أن كل مرئي لابد أن يكون متشكلاً بشكل ومنحازاً في مكان حتى تقع عليه أشعة البصر ، وهذا لا يحق وجوده في حق الله سبحانه وتعالى ، وأضاف نفاة الرؤية إلى الدليل العقلي هذا قوله تعالى في خطابه لموسى : (لن تراني) ، قالوا : وهذا يدل على أنه لا يرى ، والسلف أجابوا عن هذا بأن معنى : (لن تراني) أي : لن تقدر على رؤيتي في هذه الدنيا ، الله سبحانه وتعالى رؤيته ليست سهلة يسيرة يقوى عليها بصر الإنسان العادي ، فلا يمكن أن يرى إلا إذا أعطي البصر قوة خارقة زائدة عن عادة البصر في الدنيا ، فقال موسى لما قال : (رب أرني أنظر إليك) قال : (لن تراني) يعني لست في حالة تمكنك من رؤيتي لأن بصرك قاصر ، فليس معنى لن تراني أي لا أرى ، الله سبحانه وتعالى لو كانت رؤيته مستحيلة لقال لموسى إنني لا أرى ، لكنه قال لن تراني أي لن تراني في هذه الدنيا.

و من الأدلة التي قلبها أهل السنة على نفاة الرؤية أن (لن) في قوله تعالى (لن تراني) لا تعني مطلق التأبيد ، بل تعني نفي الرؤية لوقت معين ، والدليل على هذا أن الله تعالى ذكر عن الكفار أنهم (لن) يتمنوا الموت ، كما في قوله عز وجل : (ولن يتمنوه أبدا)(سورة البقرة آية :٩٥) أي الموت ، وفي الآية الأخرى بين أنهم تمنوه ، كما في قوله تعالى :(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ)(سورة الزخرف آية :٧٧) ، فاستعمالهم (لن) في الآية الأولى يعني أنهم لن يتمنوا الموت لزمن معين ، وأما الآية الثانية فتدل على أنهم سيطلبون الموت ، وأن لن في آية موسى تدل على امتناع الرؤية لوقت معين .

وكذلك قوله تعالى عن قوم موسى : (قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ)(سورة طه آية:٩١) ورجوع موسى عليه السلام يقطع التأبيد .

وكذلك قوله تعالى في سورة يوسف(آية :٨٠) : (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي) يعني إذا أذن له أبوه برح .

ورؤية الله سبحانه وتعالى في الدنيا محل خلاف بين السلف ، أهل السنة والجماعة مجمعون على أن غير الرسول عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يرى الله في الدنيا لعجز بصره عن ذلك بدليل قوله ﷺ (حجابه النور لو كشفه لأحد لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)(١) يعني أن أبصار الناس في الدنيا لا تقوى على مقابلة الله ورؤيته ، لكن اختلفوا في مُحَّد صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه في الدنيا أو لم يره ، الجمهور على أنه لم ير ربه ، وبعض السلف ومنهم الصحابة يقولون إنه رأى ربه ،

---

(١) رواه مسلم (١٧٩) وابن ماجه (١٩٥ – ١٩٦)

و منشأ الخلاف في قوله (لما سئل : هل رأيت ربك قال : (نور أنَّى أراه) وفي لفظ : (نور أنّي أراه) أو قال في لفظ آخر : (رأيت نوراً) ، فقالوا قوله ﷺ (نور أني أراه) يدل على أنه رآه في الدنيا (١).

وما ذكر عن شيخ الإسلام رحمه الله في جواز رؤية الله سبحانه وتعالى في المنام فليست من الرؤيا التي فيها الخلاف ، لأنها رؤية منام وليست حقيقة(٢) ، وقوله ﷺ : (تعلّموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت)(٣) المقصود به الموت الحقيقي وليس النوم .

أما رؤيته في الآخرة فكما سبق – السلف وأئمة الهدى والدين كلهم مجمعون على أن الله سبحانه وتعالى يراه المؤمنون وأن أفضل النعيم الذي يعطيه عباده يوم القيامة هو النظر إلى وجهه الكريم (٤) .

وبالنسبة لخلاف السلف في هذه المسألة أو في غيرها يستدل به بعض الناس فيقول أنتم تنكرون على من خالفكم في العقيدة وتبدعونه ، وهذا خلاف السلف أنتم تنقلون عنهم في هذه المسألة ، نعم نحن نقول إن السلف اختلفوا فيها بناء على اختلاف لفظ عن النبي ﷺ ، فكل منهم ينزع بلفظ ، ولم يختلفوا كاختلافكم وصرفكم النصوص عن ظواهرها ، فالذين قالوا إن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى ربه وهم القليل استدلوا بقوله :

---

(١) ابن القيم رحمه الله جمع بين الأقوال في هذه المسألة فقال : (وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج ، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك ، وشيخنا يقول ليس ذلك بخلاف في الحقيقة ، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال إنه رآه عز وجل ولم يقل بعيني رأسه ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنهما ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه قوله في الحديث الآخر حجابه النور فهذا النور هو والله أعلم النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه رأيت نورا)

انظر اجتماع الجيوش الإسلامية ١٢/١ وزاد المعاد ٣ / ٣٧ ومجموع الفتاوى ٥٠٩/٦ .

(٢) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى (٣ / ٣٩٠) أن المؤمن قد يرى ربه في المنام في صور متنوعة على قدر إيمانه ويقينه ، فإن كان إيمانه صحيحا لم يره إلا في صورة حسنة ، ثم قال : ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة .. انظر بيان تلبيس الجهمية ت القاسم ١ / ٧٣ – ٧٤ .

(٣) رواه مسلم (٢٦٣١) والترمذي (٢٢٣٥) وابن ماجه (٤٠٧٧) .

(٤) روى مسلم في صحيحه (١٨١) عن صهيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : إن لكم عند الله موعدا ، قالوا : ألم يبيض وجوهنا وينجينا من النار ويدخلنا الجنة ؟ قالوا : بلى ، قال : فيكشف الحجاب ، قال : فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم عن النظر إليه) ورواه الترمذي (٢٥٥٢) .

(نور أني أراه) ، أما الكثير وهم الذين قالوا : لا يرى ، استدلوا بقوله ﷺ: (نور أنّى أراه) ، واستدلوا بقول عائشة رضي الله عنها لما سألها مسروق بن الأجدع : هل رأى مُحَمَّد ﷺ ربه ؟ قالت : (قف شعري مما قلت .! من حدثك أن مُحَمَّدا ﷺ رأى ربه فقد كذب) الحديث (١) ، وقوله : (نور أنى أراه) هذا رأي استدل به قوم ، وقوم استدلوا بلفظ : (نور أني أراه) فالسلف اختلافهم على نصوص شرعية صحيحة ،لم يختلفوا كمخالفة المعتزلة والجهمية والأشاعرة الذين اعتمدوا على مقدمات عقلية كاذبة ، والذين يضربون بالنص عرض الحائط ويأتون له بمعنى من تلقاء أنفسهم ، وفرق بين هذا وهذا .

قوله : (لأهل الجنة) احترازا من الكافرين كما في قوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ، وأما ما رواه البخاري (أن الله سبحانه وتعالى يأتي يوم القيامة في صورة غير صورته فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان يسجد لله رياءا وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا)(٢) فهذا الحديث ليس فيه أن المنافقين يرون ربهم .

وقيل إنهم يرونه ولكن ليس كرؤية المؤمنين ، بل رؤية غضب .

قوله : (بغير إحاطة) الإحاطة معناها الإدراك ، أن يكون الرائي يحيط بالمرئي من جميع جهاته ، يراه رؤية محيطة ، ولهذا أجاب السلف عن شبهة نفاة الرؤية حينما استدلوا بقوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) أجابهم السلف وقالوا : إن الرؤية غير الإدراك ، فالرؤية هي مجرد رؤية المرئي ، والإدراك إحاطة البصر بالمرئي إحاطة كاملة ، فالله سبحانه وتعالى يرى لكن لا يحاط به رؤيةً ، فقوله : (بغير إحاطة) يعني أن أهل الجنة إذا رأوا الله لا يحيطون به رؤية وإنما يرونه فقط .

أنت الآن ترى السماء ، فهل تحيط بجميع السماء الآن ، والأرض أيضاً تراها هل تحيط بها رؤية ؟ هذا الفرق بين الرؤية والإحاطة .

وقوله : (ولا كيفية)(١) لا نكيفه ،كيف نراه ؟ هل نراه كذا وعلى كذا وعلى هيئة كذا ، بل نراه فقط كما أخبرنا سبحانه وتعالى ، وأخبرنا رسوله ﷺ ، وأما كيف نراه فهذا يقال فيه كما قال مالك رحمه الله لما سئل : كيف استوى ؟ قال : (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ،

---

(١)رواه البخاري (٤٨٥٥) ومسلم (١٧٧) .

(٢) روه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) .

(١) رؤية الله تعالى لها كيفية لكننا لا نعلمها ، أما الرؤية بلا كيفية –كما تقول الاشاعرة انه يرى من غير جهة – فغير معقول .

واخرجوا عني هذا الرجل المبتدع أو لا أراه إلا مبتدعاً)(١) فمن سأل : كيف نراه ؟ نقول الرؤية معلومة والكيف مجهول والإيمان بها واجب والسؤال عنها بدعة فالله سبحانه وتعالى أعظم من أن يدركه أحد ويحيط به أو يحيط به علم .

(كما نطق به كتاب ربنا : وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة)

الشرح : المعطلة نفاة الرؤية يؤولون قوله تعالى : (ناظرة) ، ويقولون أي منتظرة للثواب ، فيفسرونه بتفسير لا يجوز لغة(٢) ولا شرعا(٣) .

(وتفسيره على ما أراده الله سبحانه وتعالى وعلمه)

الشرح : تفسيره هنا إن كان يريد تفسير المعني فهذا خطأ ولا يوافقه السلف على هذا ، لأن المعنى يفسره العلماء ويعلمونه ، وإن كان يريد بالتفسير كما يريده غيره في بعض الأحيان ويعني بذلك الكيفية التي سبق الكلام عليها وهي تفسير كيفيته وكنهه على ما يعلمه الله تعالى ويراه فهذا صحيح ، أما إطلاق لفظ التفسير فهذا يحتمل الحق ويحتمل الباطل .

---

(١) أثر مالك أخرجه اللالكائي (٦٦٤) والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٤٠٨) والبغوي في شرح السنة ١ / ١٧ ، والذهبي في العلو وصحح إسناده ٢/ ٩٥٢ ، وجود إسناده ابن حجر في الفتح ١٣ / ٤٠٧ .

(٢) أهل السنة ردوا على تحريف أهل الأهواء اللغوي لقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) من عدة أوجه منها :

١ – أن لفظ النظر المقرون بحرف الجر (إلى) يفيد في الوضع الرؤية الحقيقية بالعين دون احتمال شيء آخر كالانتظار ونحوه ، كما قرره علماء العربية وتعقبوا من صرفه إلى الانتظار بالتخطئة (انظر الاختلاف في اللفظ والرد على المشبهة ص ٣٠) ، قال أبو جعفر النحاس : أما قول من قال : معناه منتظرة فخطأ ، سمعت علي بن سليمان (الأخفش الصغير) يقول لا يقال نظرت إليه بمعنى انتظرته ، إنما يقال نظرته ، وهو قول إبراهيم بن مُحَمَّد بن عرفة (نفطويه) وغيره . وقال الأزهري : من قال : إن معنى قوله (إلى ربها ناظرة) بمعنى منتظرة فقد أخطا ، لأن العرب لا تقول نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته ، إنما تقول نظرت فلانا أي انتظرته ، ومنه قول الحطيئة :

وقد نظرتكم أبناءَ صادرةٍ

للورد طال بها حوزي وتنْساسي

٢ – : أن النظر إذا ذكر مع الوجه فيعني الرؤية الحقيقية ، قال أبو الحسن الأشعري : ولا يجوز أن يكون عنى نظر الانتظار ، لأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه ، وهو قول الباقلاني .

انظر إعراب القران لابن النحاس فقد ذكر في هذا تسع صفحات ، وقد نقلت هذه الأوجه بتصرف من كتاب : الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القران ٢ / ٩٥٠ تأليف د. مُحَمَّد بن عبدالله السيف .

(٣) سيأتي إن شاء الله تبيين الشيخ اضطرابهم في التأويل عند الكلام على الصفات السبع .

(وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد)

الشرح : قوله : (على ما أراد) هذا فيه شيء من الغموض ، يعني هل المعنى لا يعرفه إلا الله أو الرسول (الذي جاء به ، أو أنه يعلمه الناس و يفسرونه ؟ فقوله هذا فيه شيء من الإجمال لأنه باتفاق السلف أن معاني النصوص معلومة لنا ، نفسّرها ونبينها ونتكلم عليها ونوضحها ونترجمها بلغات أخرى ، أما الذين يقولون إن المعنى لا يعلمه إلا الله فهؤلاء هم المفوضة وليس مذهب المفوضة في شيء من مذهب السلف ، وعلى كل **المفوضة قسمان** :

الأول : من قال إن ظاهر آيات الصفات مراد لكن لا يعلمه إلا الله .

الثاني : من قال إن ظاهر آيات الصفات غير مراد ، وليس لها معنى أبدا لا ظاهرا ولا باطنا ، لكنها سيقت للتعبد .

فقوله : (ومعناه على ما أراده) يحتمل أنه يريد الكيفية وهذا حق ، ويحتمل أنه يريد معنى اللفظ ومعنى الكلام العربي وهذا غير صحيح لا يوافق عليه.

(لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا)

الشرح : لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ولكن نفسره ونبينه ونتكلم فيه على ما نعرفه من لغتنا ، إذا ثبت النص لنا عن الله سبحانه وتعالى أو عن نبيه ﷺ فإننا لا نتوهم ولا ندخل فيه بالتأويل ، وإنما نفسره حسب ما نعرفه من لغتنا فالرسول ﷺ قال : (إنكم سترون ربكم)(١) الرؤية معروفة في لغتنا ، معنى رأى ويرى و رأيت والرؤية هذا نعرفه في لغتنا ، لكننا لا ندخل و نخوض في كيفية هذه الرؤية ، كذلك قال سبحانه : (الرحمن على العرش استوى)(سورة طه آية:٥) الاستواء نعرفه في لغتنا ونفسِّره ونبينه ونترجمه باللغات الأخرى ولكن كيف استوى هذا هو الذي ليس إلينا .

(فإنه ما سلم في دينه إلاّ من سلّم لله عز وجل ولرسوله)

الشرح : سلّم لله و لرسوله يعني آمن بما جاء عن الله ورسوله وصدقه واعتقده ، ولكن إذا كان فيه شيء لم يدركه عقله أو تاه فيه عقله فإنه يسلم لله ورسوله ولا يعارضه أو ينكره لأن عقله لم يدركه أو لم يحط به ، لأن العقول محدودة ، العقول ذرة صغيرة من ذرات الكون التي خلقها الله فلا يمكن

---

(١) رواه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣) .

أن نحكم بها على حِكَم الله وعلى مراد الله ، فما صح وثبت لنا عن الله سبحانه وتعالى أو عن رسوله ﷺ صدقناه وآمنا به وما علمنا من معناه بيّناه ، وما عجزت عقولنا عن إدراكه وكلنا علمه إلى عالمه سبحانه وتعالى .

(وردّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه)

الشرح : المشتبه والمتشابه من القرآن ومن الحديث يرد إلى الله سبحانه وتعالى وإلى رسوله ﷺ ، والمتشابه فيه بحث طويل للعلماء : هل نصوص الصفات من المتشابه أو أن نصوص الصفات من المحكم الذي يفسَّر ويبين ، فأهل السنة والجماعة والمثبتة للصفات كلهم متفقون على أن نصوص الصفات كلها من المحكم الذي يفسَّر ويبين ويشرح ويترجم .

أما كيفيات الصفات فبعضهم يطلق عليها أنها من المتشابه بمعنى أنها من الشيء الذي لا يعلمه إلا الله فلا يتكلمون فيها ولا يخوضون فيها ، وإن أطلق عليها بعض العلماء كما أطلقه بعض السابقين وقال إنّها من المتشابه فهذا مقبول ، لكن أن يجعل معنى النص من المتشابه هذا هو الباطل ، لأن النصوص معروفة ، ونعرفها في لغتنا ، فإذا ثبت لنا أن الرسول ﷺ تكلم بها أو كانت في القرآن فإن معناها معروف لنا نفسرها به من لغتنا ، لأن كل حقيقة شرعية لها أصل في اللغة مأخوذة من الحقيقة اللغوية إلا أن الشارع قيدها وخصصها بقيود ، فمثلاً الصيام ، حقيقة الصيام في اللغة : الإمساك عن الأكل و الشرب ، و الإمساك عن المشي و الإمساك عن الكتابة و الإمساك عن الكلام ، و الإمساك عن كل شيء يسمى صياما ، الشارع أخذ هذه الحقيقة ووضعها أساساً للحقيقة الشرعية وزاد عليها قيودا ثم أوجبها على المسلمين ، وبدل أن يسميه الإمساك فقط قال : الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس ، إذاً كل حقيقة شرعية أصلها الحقيقة اللغوية زادها الشارع قيودا وتخصيصا.

ومقصود المؤلف بالمتشابه أن أي معنى من المعاني التي ثبتت في الشرع حتى لو كان في الأخبار فيما يتعلق بالآخرة أو أخبار الأمم السابقة أو في الصفات فلا نرده ونكذبه لأننا ما فهمنا معناه ، بل نؤمن به ونعتقد صدق الخبر لكننا نقول الله أعلم به ، مثل قوله تعالى : (ألم) ونحوها من الحروف المقطعة جمهور المفسرين على أنها من المتشابه الذي نؤمن به ونقول الله أعلم بمراده في ذلك ، وإن كان بعضهم التمس لها معاني ، لكن هذا مذهب كثير من المفسرين .

(ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام ، فمن رام علْم ما حُظِرَ عنه علمه ولم يقْنع بالتسليم فهمه ، حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان ، فيتذبذب بين الكفر والإيمان والتصديق والتكذيب والإقرار والإنكار ، موسوسا تائهاً شاكاً زائغا ، لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذباً)

الشرح : التسليم لأوامر الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ هذه قاعدة من قواعد الشريعة ، أن المؤمن يتلقى أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ يؤمن بها ويصدقها وينقاد لها ، ولا يلزم أن يعلم ما قصد منها من حكمة أو مصلحة ، إن ظهر له شيء من ذلك قال به وعمل به ، فالإيمان بنصوص الشريعة لا يتوقف على معرفة الحكمة ، لأن الله سبحانه وتعالى تارة تكون الحكمة ظاهرة في تشريعه وتارة تكون خفية ، والبشر عقولهم قاصرة وإدراكهم ناقص ، ولا يجوز للإنسان إن ظهر له حكمة أخذ بالنص وإلا رفضه أو أوّله إلى غير المعنى الظاهر منه ، لأن حكم الله في تشريعاته نعلم منها القليل والكثير مطوي عنا لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، فالإسلام قائم على قدم التسليم – من سلم لله ولرسوله ، يعني لأوامرهما سلم في دينه .

قوله : (فمن رام) يعني بحث أو حاول أن يصل على علم ما لم يكلف بالبحث عنه ، كغوامض الحِكَم فإنه يبقى دائماً في شك وفي حيرة ، إذا كان يحكم عَقْله فما عَقَله عقْله آمن به وسلم به ، وما لم يعقلْه عقْله أنكره أو رده أو أوّله فهذا دائماً يبقى متذبذباً شاكاً ، لا هو مؤمن مع أهل الإيمان ولا هو كافر مع أهل الجحود كما قال الماتن : (لا مؤمنا مصدقا ولا جاحدا مكذبا) .

وليس معنى هذا أننا نقول إن تعليمات الشريعة ليست معللة ، هي معللة ، والله سبحانه وتعالى يأمر بحكمه والرسول ﷺ يأمر ويشرع لحكمه ولكن قد تظهر هذه الحكمة وقد تخفى .

قوله : (من رام علم ما حظر عنه) يعني معرفة الكيفيات وكنه الحِكَم التي يريدها سبحانه وتعالى من تشريعاته ، يعني من رام ذلك فإنما رومه لذلك المطلوب يجعله شاكاً ، ومن شك فإنه غير موحد ، إذا ورده عن الشرع أمر أو نهي التمس له حِكمة إن عرفها ووصل إليها عمل به وإلا رده ، فيبقى متذبذباً ويبقى في غير دائرة التوحيد لأن التوحيد هو التسليم لله .

فإذا ثبت لك سلّم له وعليك الإقرار به والإيمان به والعمل به إن كان عملياً ، وليس عليك البحث الطويل والنظر لتصل إلى الحكمة ، المقصود لب التشريع التصديق والإيمان والعمل ، أما أن يجعل همه هو البحث عن الحكم والتعاليل ويكون مناط عمله بالنصوص العملية ومناطه في اعتقاده في النصوص الاعتقادية هو أن يصل إلى : ماذا يقصده الله بذلك الأمر ، فمن كان في هذه المنزلة فقد خاب وخسر ، لكن أولا يسلم إذا قال الله كذا نفعله إن كان من الأمور العملية ، أو نعتقده

إن كان من الأمور الاعتقادية ، فإذا ظهر لنا شيء مما قصده الله بذلك التشريع فيها ، وإلا وكلنا أمره إلى الله عز وجل .

(ولا يصلح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم)

الشرح : نعم لا يكون مؤمناً بالرؤية من فسّرَ الرؤية بالفهم أو العلم ، لأن هناك من نفاة الرؤية من يقولون إن النصوص التي وردت كقوله ﷺ (سترون ربكم)(١) ونحو ذلك يقولون معناه يعلمونه ويفهمونه ، يقول هذا لا يعد إيماناً بالرؤية وإنما يعد تأويلاً والتأويل لا يقبل فيما يتعلق بمسألة الأصول ، هو لما تكلم على الرؤية وذكر أدلتها قال ومن ادعى — من نفاة الرؤية — أن الإيمان بالرؤية معناه الإيمان بأن رؤية أهل الجنة لله هي علمهم له وفهمهم له فهما حقيقياً يقول هذا تأويل باطل.

(إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين)

الشرح : التأويل هو ترك التأويل ، يعني أن المطلوب من المؤمن أن يترك التأويل حتى يكون ذلك هو التأويل الصحيح ، أي لزوم التسليم وترك التأويل ، فمن أول الرؤية بالفهم أو بالوهم أو بغيره فقد ضل ، لأن المطلوب في ذلك التسليم لا التأويل .

(ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه)

الشرح : النفي والتشبيه الذي لا يحاذره ويهرب عنه لا بد وأن يكون بعيدا عن التنزيه ، لأن التنزيه المطلوب شرعاً هو نفي التشبيه ، وليس المطلوب مثلاً استعمال الأساليب التي يستعملها النفاة من السّلوب المفصلة ليس بكذا ولا بكذا ، فتوقي التشبيه هو إثبات ما أثبته الله ورسوله لله على حد ما أراده الله و أراده رسوله إثباتاً بلا تشبيه ، نزهه عن النقائص والعيوب تنزيهاً بلا تعطيل ، هذا هو المطلوب .

أما طريقة نفاة الصفات التي سلكوها لتنزيه الباري نفيا للتشبيه فهذه طريقة من طرق التعطيل ، فإذا قالوا إن الله ليس بجوهر ولا عرض ولا بجسم ، ولا فوق العالم ولا تحت العالم ، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم ، ولا حال في العالم ولا مباين للعالم فهذا تعطيل لوجود الله سبحانه

---

(١) رواه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣) .

وتعالى لأنه يفضي إلى العدم ، ولأن المعدوم هو من يوصف بهذه الصفات ، أما الموجود فلا بد أن يكون له صفات تميزه وتخصص وجوده .

مع أن شيخ الإسلام رحمه الله يقول : إن ما اصطلح عليه علماء الكلام من نفي التشبيه هو الذي سبب لهم الخطأ ، فإنهم جعلوا إثبات الصفات تشبيها وربطوا به التنزيه ، فقالوا إثبات الصفات تشبيه ولا يحصل التنزيه للعبد إلا إذا نفى الصفات ، فجعلوا إثبات الصفات تشبيهاً وجعلوا نفيها نفياً للتشبيه .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول ما ورد في القرآن ولا في السنة لفظ (نفي التشبيه) ، وإنما الذي ورد هو نفي الضد ونفي الند ونفي الكفوء و نفي المثل ، أما نفي التشبيه بهذا اللفظ فلم يأت في القرآن (١) .

هو يريد أن يرد عليهم دعواهم أن نفي الصفات المقصود منه نفي التشبيه ، وهم يقولون يجب نفي التشبيه عن الله ثم ينفون الصفات ويقولون هذا هو نفي التشبيه عن الله ، يقولون لا يتم التوحيد إلا بنفي الصفات فمن أثبت لله صفات فهو غير موحد ، والتوحيد نفي الصفات كما هو أصل من أصول المعتزلة .

(فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية منعوت بنعوت الفردانية ليس في معناه أحد من البرية)

الشرح : الله سبحانه وتعالى موصوف بصفات الوحدانية ، أي موصوف بالصفات التي لا يوصف بها إلا هو ، ومنعوت بنعوت الفردانية ، فالصفات والنعوت بمعنى واحد ، والوحدانية والفردانية بمعنى واحد ، ولكن الماتن نوّع في العبارة لأجل السجع لأنه كما ذكرنا أكثر من مرة يحرص على أن تكون ألفاظه مسجوعة ، فلو قال : لأنه موصوف بصفات الوحدانية ، يكفي عن قوله منعوت بنعوت الفردانية ، لماذا ؟ لأن الصفات والنعوت والفردانية سواء ، والسلف عند وصفهم لله ببعض الكلام يقولون : واحد أحد فرد صمد ويعنون بالفرد أنه (واحد) ، لكن أن يسموا من أسماء الله (الفرد) أو (الفردانية) فهذا ما ورد ، أما من باب الإخبار عنه وليس من باب الصفة فلا بأس به ، لأن الإخبار شيء والصفة شيء آخر ، فالإخبار يأتي ويعبر به عن ما ورد كقوله سبحانه وتعالى : (إنهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً)(سورة الطارق آية :١٦-١٥) فأخبرنا أنه يكيد لهم

---

(١) ثم إنه ما من شيئين في الوجود إلا وبينهما مشابهة ، ولو كان في أصل الوجود ، يقول ابن تيمية رحمه الله في بيان تلبيس الجهمية ٥٢٥/٦ :

كذلك ثبوت ذات لا تشبه الموجودات بوجه من الوجوه ممتنع في العقل . الخ

فهل نسميه الكائد أو نجعلها صفة له ؟ لا . نقول نؤمن بخبره ، ونصدق أنه يكيد بمن كاد له لكن لا نأخذ له منه صفة ، كذلك قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله)(سورة آل عمران آية :٥٤) فهل نسميه ماكراً أو نصفه بالمكر تعالى الله ؟ لا ، وإنما نصدق خبره ونقول إنه يمكر بمن يمكر به ، ولا يجوز أن يوصف بالماكر .

(تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات)

الشرح : مثل هذا التفسير لا يرضاه السلف ، لأن هذه الأمور تحتمل حقاً وباطلاً ، فتحتمل حقا بمعنى أن الله سبحانه وتعالى أعظم من كل شيء وأنه أعظم من أن يحويه مكان أو يحيط به زمان فهو عظيم أكبر من كل ما يقع في نفس الإنسان ، ويحتمل النفي المفصل الذي يستعمله المعطلة من قولهم لا كذا ولا كذا ، إذاً فترك هذه الألفاظ أولى فلو قال : يتعالى عن المثل والند والشبيه لكان أفضل وأولى .

مثل لفظ الجسم والجهة والتحيز ، هذه ألفاظ تكلم عليها ابن تيمية رحمه الله كلاماً جيداً وقال إنها لا تطلق في حق الله سبحانه وتعالى لا نفيا ولا إثباتاً ، إلا بعد الاستفسار والاستفصال ، فإذا قال : تعالى عن الأركان ، ماذا يعني بالأركان ؟ تعالى عن الحدود ماذا يعني بالحدود ، تعالى عن الجهة ماذا يعني بالجهة ، تعالى عن التحيز ماذا يعني بالتحيز ؟ فإن بين مراده واشتمل على باطل رد ، وأن اشتمل على حق قيل له المعنى الذي قصدته صحيح لكن اللفظ مبتدع ولا ينبغي أن تستعمله.

فمن قال إن الله سبحانه وتعالى في جهة أو قال إن الله سبحانه تنزه عن الجهة ، يقال له كلامك هذا يحتمل حقاً وباطلاً لأن كلامك مجمل ، و يقال لمثبت الجهة : إن أردت بالجهة أن الله سبحانه وتعالى في جهة العلو فالمعنى الذي قصدته صحيح ولكن اللفظ الذي عبرت به مبتدع ، السلف لم يتكلموا في الجهة لأنها لم ترد في الكتاب ولا في السنة .

أما إن قال : أريد بالجهة المكان المحدد المتحيز فإنه يقال له المعنى الذي قصدته باطل واللفظ الذي جئت به باطل ، كذلك الجسم عند السلف لا يطلق في حقه سبحانه وتعالى لا نفياً ولا إثباتاً ، ومن أثبت لله جسماً أو نفى عن الله الجسم فإنه يستفسر منه لا يسلم له مطلقا ولا ينكر عليه مطلقاً ، فإن كان ممن يثبتون لله الجسم قيل له : لفظك هذا مجمل يحتمل حقاً وباطلاً ففسِّر لنا الجسم الذي أثبتَّه لله ، هل تعني أن لله جسماً بمعنى أن له جسماً متركباً يماثل أجسام المخلوقين إذا

أردت هذا فاللفظ باطل والتعبير باطل والمعنى الذي قصدته باطل ، وإن أردت بالجسم أن لله ذاتاً قائمة بنفسها بائنة من غيرها متصفة بالصفات فالمعنى الذي قصدته صحيح ولكن التعبير الذي عبرت به وهو إثبات الجسم كان مخالفا لمذهب السلف لأن السلف لم يعبروا به نفيا ولا إثباتا .

وكذلك من ينفي عن الله الجسم يقال كلامك هذا مجمل يحتمل حقاً وباطلاً فماذا تعني بالجسم الذي نفيته عن الله وقلت إن الله يتنزه عن الجسم ، فسر لنا هذا الجسم فإن قال : أعني بالجسم الأجسام المركبة كأجسام المخلوقين قلنا المعنى الذي قصدته صحيح فالله يتعالى عن ذلك ، لكن اللفظ والتعبير الذي عبرت به مبتدع ، فما كان السلف يقولونه ، وإن قال أعني بتنزيه الله عن الجسم تنزيهه عن الذات ، تعالى عن أن يكون له ذات قائمة بنفسها قيل له المعنى الذي قصدته باطل واللفظ و التعبير الذي عبرت به أيضاً باطل وهكذا في كل لفظ مجمل .

(والمعراج حق ، وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء ، ثم إلى حيث شاء الله من العلا ، وأكرمه الله بما شاء ، و أوحى الله إليه ما أوحى (ما كذب الفؤاد ما رأى) فصلى الله عليه وعلى آله وسلم في الآخرة والأولى)

الشرح : المعراج مفعال من العروج ، وهو الآلة التي عرج عليها النبي ﷺ إلى السماء ، وقد وردت أحاديث كثيرة في كيفية عروجه عليه الصلاة والسلام ، وقبل ذلك الإسراء ، وقد اتفق المسلمون على الإيمان بالإسراء والمعراج .

أسري به من مكة إلى بيت المقدس على البراق(١) بصحبة جبريل عليه السلام .

وبعد أن وصل إلى بيت المقدس صلى بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ثم عرج به إلى السماء واستفتح به جبريل وفتح له من سماء إلى سماء ، حتى وصل إلى سدرة المنتهى فأوحى الله إليه ما أوحى ، فمن ذلك فرض عليه الصلوات الخمس في تلك الليلة ، وكان أصل فرضها خمسين ، وقد جاء في الصحيحين (٢) أن النبي ﷺ قال في حديث الإسراء : (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة ، فرجعت بذلك ، حتى مررت على موسى، فقال : ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت: فرض خمسين صلاة ، قال: فارجع إلى ربك

---

(١) قال الشيخ رحمه الله مستطردا : البراق دابة فوق الحمار ودون البغل ، يقع حافره عند منتهى طرفه ، يعني إذا كان ينظر إلى مكان بعيد مثلاً فإن كل خطوة من خطواته تكون من مكانه إلى المكان الذي ينظر إليه ، وإذا كانت أبعد كانت الخطوة أبعد ، والحافر هو في الدابة كالخف في البعير .

(٢) (البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٢)

فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعني فوضع شطرها ، فرجعت إلى موسى ، قلت : وضع شطرها ، فقال : راجع ربك ، فإن أمتك لا تطيق ، فراجعت فوضع شطرها ، فرجعت إليه ، فقال ارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعته ، فقال : هي خمس ، وهي خمسون ، لا يبدل القول لدي ، فرجعت إلى موسى ، فقال: راجع ربك ، فقلت : استحييت من ربي ، ثم انطلق بي ، حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى ، وغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أدخلت الجنة ، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك) ، ثم نزل إلى الأرض وصلى بمكة الفجر صلوات الله وسلامه عليه ، هذا هو الإسراء والمعراج .

وقد حدثت فوضى في صفوف المشركين ، وانتهزوها فرصة لتكذيب النبي ﷺ : فقالوا : إن بيننا وبين بيت المقدس شهرا ، وبين السماء والأرض ما هو أبعد من ذلك ، ثم يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس وإلى السماء ثم رجع إلى بيت المقدس ثم إلى مكة خلال ليلة ، قالوا هذا أمر لا يحتاج إلى دليل يبطله ، و لكن أخبرهم عليه الصلاة والسلام بأمارات تدل على صدقه ، فأخبرهم بأنه مرّ بِعيرٍ لهم وأن معهم كذا وكذا ، وأن معهم جملا ندّ منهم – هرب – صفته كذا ، فلما جاءت العير ازداد المؤمنون إيمانا ، والكافرون ازدادوا كفراً وعناداً .

وهذه الحادثة التي حصلت للنبي ﷺ أكرمه الله بها عدة كرامات ، منها أنه عرج به إليه سبحانه وتعالى ، وكلّمه مشافهة وفرض عليه الصلوات مباشرة ، وهذا يدل على فضل الصلوات وعظم شأنها ، حيث كانت الشرائع تأتي للنبي ﷺ عن طريق الوحي وهذه كلّمه الله بها مشافهة ، فدل على أهمية الصلاة وعظم شأنها .

وقد اختلف الناس في الإسراء والمعراج هل كان يقظة أو مناماً وهل كان الإسراء بروح النبي صلى الله عليه وسلم وجسده أو بروحه فقط على خلاف وأصحها وأقواها أن الإسراء كان بروحه وبدنه جميعاً وأنه كان يقظة لا مناماً .

فالذين قالوا يقظة قالوا النائم يرى أنه وصل إلى بيت المقدس ووصل إلى وراء ذلك ووصل إلى السماء وغيره ولا ينكر عليه ، فلما أنكرت قريش ذلك وقالوا إنه جاء بأمر لا يقبل ولا يعقل وأنا كنا نشك في صدقة والآن قطعنا بكذبه وأنه جاء بأمر لا تقبله العقول ، فلو كان ادعى أنه رأى ذلك مناما لما أنكرت قريش ذلك ، لأنهم لا ينكرون المنامات ولا يعارضونها ، فلما أنكروه وعارضوه عرف أن الإسراء كان يقظة ، وأنه بروحه وجسده كما قال سبحانه وتعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)(سورة الإسراء آية :١) والعبد يطلق في اللغة على البدن والروح جميع .

وهناك رأي لبعض العلماء أن الإسراء كان بروحه وأن جسده لم يفقد كما يروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : (ما فقد جسد رسول ﷺ ولكن أسري بروحه)(١) ، ويروى هذا القول عن معاوية رضي الله عنه(٢) وبعض الصحابة.

فعلى كلٍ الأقوال في مسألة الإسراء ثلاثة :

القول الأول : وهو أحقها وأرجحها وأثبتها أن الإسراء كان يقظة لا مناما ، وأنه بروحه وجسده جميعاً .

والقول الثاني : أن الإسراء كان بروحه دون جسده .

والقول الثالث : أن الإسراء كان مناماً .

والذين قالوا أنه كان مناماً يستدلون برواية أو بلفظة وردت في رواية شريك ، لما ساق المعراج وانتهى قال : قال رسول الله ﷺ ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام ، قالوا : وقوله ثم استيقظت يدل على أنه كان مناماً .

فأجاب المخالفون بأن هذه اللفظة زيادة من شريك وأنه لم يقل ﷺ : ثم استيقظت (٣).

أما قول عائشة رضي الله عنها فإن رسول الله ﷺ لم يتزوجها إلا بعد الإسراء بوقت طويل ، وهي كانت تتحدث عما كان يُتحدث به وتسمعه (٤) .

وكان اختلاف أهل السنة في ذلك حسب ما ورد في النصوص (٥).

والإسراء والمعراج من خصائص نبينا مُحَمَّد ﷺ فإن الله اختصه بأمور وفضائل منها الإسراء والمعراج ومنها الحوض ومنها الشفاعة ، وخصائصه ﷺ كثيرة وهذا منها .

هذا حاصل ما يقال في مسألة الإسراء والمعراج على سبيل الاختصار

---

(١) اثر عائشة رضي الله عنها ذكره الطبري في تفسيره عند قوله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده) وفيه انقطاع .

(٢) اثر معاوية رضي الله عنه رواه ابن إسحاق في سيرته من طريق يعقوب بن عتبة بن المغيرة عن معاوية ، ويعقوب هذا لم يلق معاوية ، وانظر زاد المعاد ٣ / ٤٠ .

(٣) رواه البخاري (٧٥١٧) وفيه أن المعراج قبل أن يوحى إلى رسول الله ﷺ ، مع أنه ذكر في هذا المعراج فرض الصلوات الخمس ، وقد قال ابن القيم في زاد المعاد ٤٢/٣ : (وقد غلّط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء ، ومسلم أورد المسند منه ثم قال : وقدم وأخر وزاد ونقص . ولم يسرد الحديث فأجاد رحمه الله) اهـ وقد نقل ابن حجر رحمه الله كلام الخطابي وابن حزم والاشبيلي وغيرهم على رواية شريك هذه فلتراجع .

(٤) سبق الكلام قبل قليل على ضعف ما نقل عن عائشة في ذلك .

(٥) انظر كلاما للشيخ حول اختلاف أهل السنة في باب العقائد ، والفرق بينه وبين خلافهم مع المبتدعة عند الكلام عن الرؤية ص ٣٦ .

(والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته حق)

الشرح : الحوض أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته يعني أغاث الله الأمة عن طريق نبيها بهذا الحوض الذي أعطاه النبي ﷺ وهو لأمته وجاء فيه أحاديث كثيرة ، وكذلك القران ، أشار إليه في قوله سبحانه : (إنا أعطيناك الكوثر)(سورة الكوثر آية:١) لأن الحوض يمد من الكوثر ، وفي حديث أنس رضي الله عنه قال كان النبي ﷺ مع أصحابه فأغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما ، فقلنا له : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : أنزلت علي آنفا سورة فقرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وأنحر) ثم قال : (أتدرون ماالكوثر ؟) فقلنا : الله ورسوله اعلم ، قال : (نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة)(١) .

يؤخذ من هذا الحديث أن الحوض هو الكوثر ، ولكن العلماء وجهوا ذلك فقالوا إن الكوثر نهر في الجنة ، لأنه قال : (نهر أعطانيه ربي) (٤)وقالوا إن هذا النهر يصب في الحوض(٥) قالوا : ليس الحوض هو الكوثر وإنما يصب في الحوض ميزابان من الكوثر(٦) وقد جاء وصف سعته كما قال (: (قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن) (٧)، وبيّن في بعض الألفاظ : (أن طوله مسيرة شهر وأن عرضه كذلك وأن آنيته عدد نجوم السماء) (٨)، وجاء من خصائصه في الآثار : (أن من شرب منهم شربة لم يظمأ بعدها أبداً) (٩) ، وجاء : (أن ماءه أبيض من اللبن وأحلى من العسل)(١٠) .

وقد اعترض بعض المبتدعة على هذه الأوصاف فقالوا : إذا كان أبرد من الثلج (١١) فكيف يقبل الناس على شربه وأي لذة تكون فيه ، والثلج نفسه لا يشرب وهذا أبرد من الثلج ؟ ولكن أجيب عن هذا بأن الله سبحانه وتعالى يعطي أهل هذا الحوض أو الواردين على هذا الحوض

---

(١) رواه البخاري (٤٩٦٤) ومسلم (٤٠٠) وغيرهما .

(٤) رواه البخاري (٤٩٦٤) والترمذي (٢٥٤٢) واللفظ له .

(٥) روى احمد في مسنده (٣٧٨٧) بسند فيه مقال عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ويفتح نهر الكوثر إلى الحوض) .

(٦) جاء في مسلم (٢٣٠٠) عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (يشخب فيه ميزابان من الجنة)

(٧) رواه البخاري (٦٥٨٠) ومسلم (٢٣٠٣)

(٨) نفس المصدر .

(٩) رواه مسلم (٢٢٩٩)

(١٠) رواه البخاري (٦٥٧٥) وما بعده ، ومسلم (٢٢٨٩) وما بعده

(١١) هذه اللفظة رواها الإمام احمد في مسنده برقم (٦١٦٢) ت التركي .

يعطيهم قدرة وقوة على برده ويكون ذلك زيادة في لذته والتذاذهم به .
وكما تقدم – وردت بعض الآثار بأن لكل نبي حوضاً (١)، ولكن الذي عليه المحققون أن الحوض من خصائصه (٢) ﷺ ، وأن من مسببات وروده المحافظة على سنته ﷺ وأن من أسباب منع الشاربين منه الارتداد أو التغيير في الدين ، قال ﷺ: (أنا فرطكم على الحوض)(٣) وقال : (ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونني ، أو فإذا عرفتهم اختُلِجوا من دوني ، فأقول إنهم أمتي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : بعداً بعداً أو قال : سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي)(٤) ﷺ. فاتباع السنة والتمسك بها واقتفاء آثار النبي ﷺ هذا من أسباب ورود الحوض ، والانحراف عن طريق أهل السنة والجماعة واستبداله بطرق من طرق أهل الهوى والضلال والنحل هذا من أسباب المنع من ورود حوضه عليه الصلاة والسلام .

(والشفاعة التي ادخرها لهم حق ، كما روي في الأخبار)

الشرح : الشفاعة مصدر من شفع يشفع شفعا و شفاعة ، وهي مشتقة من الشفع ويتحقق هذا المعنى في الشفاعة من حيث إن طلب الحاجة كان فرداً لما كان بدون شافع ، فلما انضم إليه الشافع في تحصيل الحاجة التي يريدها الطالب صار شفعاً له فيكون طالب الحاجة بعد أن كان فرداً يكون شفعاً ، يعني أن الإنسان الذي يريد الحصول عليه من الأمور ما دام يتشوف إليه ويتطلبه وحده فهو فرد فإذا انضم إليه في تحصيل ذلك الغرض شخص آخر يشفع له عند من يملك ذلك صار شفعاً بعد أن كان فردا ، هذا أصل اشتقاق الشفاعة وتسميتها من هذا الباب .

والشفاعة نوعان :

١ – شفاعة ممنوعة .

٢ – وشفاعة جائزة .

والشفاعة الممنوعة نوعان :

١ – شفاعة بدعية أو شركية .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٤٣) واختلف في تصحيحه وتضعيفه .

(٢) نقل ابن حجر رحمه الله في الفتح ٤٦٧/١١ كلام القاضي عياض أن الحوض من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذا القرطبي تبعا له .

(٣) رواه البخاري (٦٥٨٩) ومسلم (٢٢٨٩)

(٤) رواه البخاري (٦٥٨٣) ومسلم (٢٢٩٠) واحمد في مسنده (١١٢٢٠)

٢- وشفاعة ليست كذلك ، فإذا صارت الشفاعة في أمر من أمور الدنيا عند من يملك ذلك الأمر :

١ – فإنها تارة تكون جائزة .

٢ – وتارة تكون ممنوعة .

فإن كانت شفاعة في تحصيل مباح أو في دفع أمر من الأمور المباحة كانت جائزة بل مندوباً إليه كما قال ﷺ : (اشفعوا تؤجروا ويقض الله على لسان نبيه ما شاء)(١) .

وإن كانت الشفاعة في تحقيق باطل أو في إسقاط حد من الحدود أو إعفاء من وجب عليه حد فإنها لا تصح ومحرمة كما دل على ذلك قصة المخزومية التي سرقت وأهم قريشا أمرُها فطلبوا من أسامة بن زيد أن يشفع لها عند رسول الله ﷺ فغضب رسول الله ﷺ وقال : (أتشفع في حد من حدود الله) ثم قال : (والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت مُحَمَّد سرقت لقطعت يدها)(٢) .

فالشفاعة في الحدود محرمة لا تجوز ، كما في الحديث : (إذا بلغت به السلطان فلعن الله الشافع و المشفع)(٣) .

أما الشفاعة الشركية فهي التي تطلب من عند غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، وهذه تكون شركية إذا فقدت شروطها ، أما إذا كانت الشروط متوفرة فلا بأس أن تطلب الشفاعة عند من هو أهل لها وذلك أن يكون الله سبحانه وتعالى قد :

١ – أذن للشافع .

٢ – ورضي عن المشفوع له .

فإذا كانت الشفاعة بإذن من الله وكان المشفوع له قد رضي الله عمله – أي من أهل التوحيد – فإن الشفاعة هنا جائزة وهي التي تنفع وتجزئ ، لكن بهذه الشروط كما قال سبحانه وتعالى : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)(سورة الأنبياء آية (٢٨) ، وقال : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)(سورة البقرة آية (٢٥٥) .

فأما الشفاعة التي تطلب من غير الله أو في أمر لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى كأن تطلب شفاعة من ميت ليشفع لك عند الله أو تطلب شفاعة من جماد أو إنسان أو وثن أو غير ذلك – تطلب منها أن تتوسط لك وتشفع لك عند الله فهذه الشفاعة الشركية وهذا الشرك هو الذي

---

(١) رواه البخاري (١٤٣٢) وأبو داود (٥١٣٢) والنسائي (٢٥٥٧) .

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٥) ورواه مسلم (١٦٨٨) وغيرهما .

(٣) رواه مالك في الموطأ ٣/ ٤٩ عن الزبير ﷺ .

كانت عليه حالة المشركين قبل مبعث النبي ﷺ فإنهم كانوا يعبدون تلك الأصنام ويتوسطون بها إلى الله سبحانه وتعالى ويطلبون منها الشفاعة ، وإلا فهم لا يعتقدون أن أصنامهم ومنحوتاتهم تخلق وترزق وتحي وتميت يعني أن هذا خاص بالله سبحانه وتعالى وإنما يطلبون منها الشفاعة ويطلبون منها الوسيلة لأجل أن تشفع لهم عند الله سبحانه وتعالى فمن طلبها أي الشفاعة من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مماثل لهؤلاء المشركين والقرآن فيه كثير من الآيات التي تدل على أن المشركين ما عبدوا أصنامهم والتجئوا بها وتبرّكوا بها وسألوها الوسيلة إلا لأن تتوسط لهم عند الله ، وإلا فهم لا يعتقدون أنها تحي وتميت وتخلق وترزق : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)(سورة الزمر آية :٣) ، (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)(سورة سبأ آية :٢٣-٢٢) ، فالشفاعة المشروعة هي التي تطلب من الله بإذن منه وتطلب لمن ﷺ : (وكم من ملك في السموات ولا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى)(سورة النجم آية :٢٦) .

والشفاعة تكون من الأنبياء وتكون من الأولياء وتكون من الصالحين ، ولكن بهذين الشرطين ، فالرسول عليه الصلاة والسلام أعطاه الله الشفاعة بل أعطاه شفاعات كثيرة ، يشفع صلى الله عليه وسلم لأهل الموقف أن يقضي بينهم ، ويشفع ﷺ بعد ذلك في فتح باب الجنة لأهل الجنة وكذا شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب وقد سئل ﷺ هل أغنت شفاعتك عن عمك شيئاً قال : (نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح)(١) .

والشفاعة أنواع أيضا ، من أنواعها : الشفاعة في أهل الكبائر لأجل أن يخرجوا من النار فإن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يشفعون لأهل الكبائر كما قال عليه الصلاة والسلام : (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)(٢) يشفعون لهم في أن يتفضل الله عليهم ويخرجهم من النار قبل أن يستوفوا ما استحقوه من التقريع والعذاب في النار ، وكما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا قال : (فيقول الله تعالى : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط) الحديث(٣) .

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٩) .

(٢) رواه أبو داود (٤٧٣٩) والترمذي (٢٤٣٥) وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وفي الباب عن جابر .

(٣) قطعة من حديث طويل رواه مسلم (١٨٣) واحمد في المسند (١١٨٩٨) .

وأهل الكبائر الشفاعة فيهم حق عند أهل السنة والجماعة فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن أهل الكبائر يشفع فيهم الأنبياء والرسل فيخرجهم الله من النار بشفاعة هؤلاء .

وأوّلت الخوارج والمعتزلة الشفاعة وقالوا : من مات مصرا على الكبيرة ودخل النار فإنه لا يخرج منها أبداً واستدلوا بقوله تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين)(سورة المدثر آية :٤٨) ، وهذا الاستدلال باطل لأن المعنيين في الآية هم الكفار ، والكفار لا ينفع فيهم شفاعة ولا غيرها ، أما الموحدون الذين ماتوا وهم مصرون على الكبائر فهم أهلٌ لفضل الله وعفوه ، وأهل لشفاعة الشافعين ، هذا ملخص ما يقال في الشفاعة .

(والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق)

الشرح : يشير إلى قوله سبحانه وتعالى : (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون)(سورة الاعراف آية:١٧٢) والميثاق معناه في اللغة العهد والعقد والله سبحانه وتعالى أخذ على عباده عقداً وعهداً أن لا يشركوا به شيئاً ، ولكن هذا الميثاق وهذا الإشهاد هل هو إشهاد حقيقي أي كلمهم الله أو غير ذلك .؟ لأن العلماء صاروا في هذه المسألة على قولين .

القول الأول : من يرى أن الإشهاد حقيقي ، وأن الله سبحانه وتعالى استخرج ذرية آدم ووقفهم بين يديه وأشهدهم على أنفسهم قائلاً ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ، فأقروا بهذه الشهادة وآمنوا بها وصارت ميثاقا أخذه الله تعالى عليهم ، و أصحاب هذا القول أخذوه من ظاهر قوله سبحانه وتعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) ، وقد وردت أحاديث تعضد هذا القول ، منها ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال : (أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان – أي عرفة – فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا ، قال (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)(١).

وفيه أحاديث عن أبي هريرة (٢) و أنس بن مالك(٣) رضي الله عنهما وغيرهما .

---

(١) رواه احمد في المسند (٢٤٥٥) ت التركي ، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٢) والنسائي في الكبرى (١١١٩١) ومال ابن كثير إلى وقفه على ابن عباس كما فعل ابن أبي حاتم .

(٢) رواه الترمذي (٣٠٧٨) وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٥) والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٢٤ ، وقال الترمذي حسن صحيح ، وصححه ابن حبان (٦١٣٤) والحاكم ووافقه الذهبي .

(٣) حديث أنس رضي الله عنه يأتي بعد قليل .

القول الثاني (١): أن هذا الإشهاد الذي أخذه الله على آدم وذريته ليس على هذا الوجه الذي قاله هؤلاء ، بل الإشهاد معناه ما أقامه الله من حجج وآيات و بينات تشهد بوحدانيته سبحانه وتعالى وربوبيته وإلهيته .

وأصحاب هذا القول يقولون لم يحصل من الله سبحانه وتعالى استخراج لذرية آدم ولم يحصل منه كلام واستشهاد ولم يخرج منهم إيجاب و إقرار بلسان المقال ، وإنما الاستشهاد هو نصب الأدلة والبراهين والآيات الكونية ، فيكون الاستشهاد والإقرار بلسان الحال لا بلسان المقال ، فكأن إقامته سبحانه وتعالى للآيات الكونية والشواهد الخلقية على وحدانيته —كأن هذا استشهاد منهم له وإقرار منهم له بأنه ربهم ومليكهم سبحانه .

وعلى القول الأول أكثر أهل الحديث وأكثر أهل التفسير .

وعلى القول الثاني أهل الكلام قاطبة .

وكذلك بعض أهل التفسير صاروا إلى القول الأخير ، و اعترضوا على الاستدلال بالآية من عدة وجوه :

فقالوا إن الله سبحانه وتعالى قال : (وإذ أخذ ربك من بني آدم) ولو كان الأمر كما أشارت إليه الأخبار لقال وإذا أخذ ربك من آدم لكنه قال من بني آدم فكونه جعل الأخذ من بني آدم ومن ظهورهم لم يقل وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهره بل قال من بني آدم من ظهورهم فدل ذلك على أن المأخوذ عليهم الميثاق هم بنو آدم في الحياة الدنيا يعني بعد ولادتهم وبعد وجودهم في الدنيا أخذ عليهم الميثاق بهذه الآيات التي نصبها لهم .

ومما اعترض به على الإشهاد بظاهر الآية أن كل إنسان يولد وهو لا يذكر هذا العهد ولا يذكر هذا الميثاق فأي فائدة تكون في عهد وميثاق يولد الإنسان وهو لا يذكره ولا تقوم به حجة ، والله سبحانه وتعالى أخبر أنه أخذ الميثاق لأجل أن تقوم المحجة على بني آدم ، وإذا كانوا يولدون ويخرجون إلى الدنيا ويكبرون ويبلغون وهم لا يذكرون هذا الميثاق دل ذلك على أن المراد به شيء آخر غير ما أشارت إليه الأحاديث من استخراج ذرية آدم من ظهره كأمثال الذر .

وهذه الاعتراضات ظاهرة : (وإذ أخذ ربك من بني آدم) ما قال وإذ أخذ ربك من آدم ولم يقل وإذ أخذ ربك من ظهره أيضاً ، بل قال من ظهورهم .

بهذا يقول كثير من علماء التفسير وهو أن المراد بالإشهاد ما أودعه الله ونصبه من الدلائل والبراهين الكونية الناطقة بوحدانيته سبحانه وتعالى ، وهذا البحث ذكره شارح الطحاوية في شرحه

---

(١) أنظر الدر المنثور ٣/ ١٤١- ١٤٥ وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٦١ – ٤٦٤ والروح لابن القيم ص ٢١١ – ٢١٦ .

وأطال كثيراً وهو نقله من كلام ابن القيم رحمه الله ، وابن كثير في بعض كتبه أيضاً تكلم فيه ، وأنت إذا تأملت نص الآية ترجح لك القول الثاني ، وهو القول الذي يذهب إليه ابن القيم رحمه الله .

أما ما جاء عن انس رضي الله عنه كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال : (إن الله تعالى يقول لأهون أهل النار عذابا : لو أن لك مافي الأرض من شيء أكنت تفتدي به ؟ قال نعم ، قال : فقد سألتك ماهو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك)(١) فإنه لم يذكر فيه الإشهاد ، بل معناه أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره فقط .

(قد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار)

الشرح : أي أنه سبحانه وتعالى علم ذلك في الأزل فلم يحدث له علم بذلك إنما علمه سبحانه وتعالى علماً مسبقاً ، وهكذا كل شيء يحدث فإن الله سبحانه وتعالى كان عالماً به قبل حدوثه وفي الأزل أيضاً ، وكلامه هذا متمش مع مذهب السلف رحمهم الله ، وهو أن الله سبحانه قبل أن يقدر الأشياء علمها أولاً ، ثم قدّرها ثم كتبها على وفق ما علم وقدر ، وقول المصنف هذا فيه رد على غلاة المعتزلة ومن وافقهم على مذهبهم الذين يقولون : إن الله لا يعلم آثار العباد حتى يخلقوها و يوجدوها ، فهم ينفون العلم وينفون التقدير وينفون خلق الله لأفعال العباد ، وهذا كله على خلاف ما عليه سلف الأمة رضوان الله عليهم .

وهذه المسألة – القضاء والقدر – من المسائل الكبار التي ضل فيها فئام من الناس انقسموا فيها إلى ثلاثة أقسام ، ومن المعلوم أن المراد بالقضاء والقدر والمشيئة معنى متقارب ، فتقول قضى الله كذا ، وشاء كذا ، وقدر كذا ، وأراد كذا بمعنى واحد إذا كانت الإرادة المراد بها الإرادة الكونية .

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة وقسم القضاء والقدر إلى مراتب (٢) ، فجعل :

المرتبة الأولى : العلم ، وهي علم الله القديم والذي هو موصوف به أزلاً وأبداً ، علمه بالكائنات ، وعلمه بما سيكون وما لا يكون وبما لم يكن لو كان كيف يكون (٣).

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٤) ومسلم (٢٨٠٥) .

(٢) وانظر أيضا في شفاء العليل لابن القيم ذكره لهذه المراتب ص ٧١ ت خالد عبداللطيف السبع.

(٣) قال ابن تيمية رحمه الله (درء التعارض ٣٦٩/٩) : اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله عالم بما سيكون قبل أن يكون . وقال ابن قتيبة (الاختلاف في اللفظ ص ٢٥) : لم يقل احد من الناس إن شيئا يحدث في الأرض لا يعلمه الله .

المرتبة الثانية : لما علم سبحانه وتعالى أحوال العباد وأحوال العالمين كتبها في اللوح المحفوظ (١).

المرتبة الثالثة : وهي درجة المشيئة ، يعني شاء سبحانه وتعالى أن توجد الأمور التي علم أنها ستكون ، شاء أن توجد في الأوقات المحددة لها (٢) .

المرتبة الرابعة : وجود المقدرات في أوقاتها (٣).

ثم إن الناس في هذه المسألة افترقوا ثلاث فرق :

الفريق الأول : فرقة آمنت بالقضاء والقدر ، وآمنت أن كل شيء يحدث فهو بالقضاء والقدر ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن الله يسر العباد لما قدّر عليهم وقضاه لهم ،وجعل لهم مشيئة وفعلاً ، فالعبد فاعل بمشيئته لكن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله سبحانه وتعالى ، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة .

الفريق الثاني : نفوا القضاء والقدر وقالوا إن الله لم يقدر أفعال العباد ، بل لا يعلمها إلا إذا فعلوها وأوجدوها ، وهذا مذهب القدرية من معتزلة وغيرها .

والقدرية إذا أطلق يراد به الذين نفوا القدر وأنكروه ونفوا أن يكون الله خالقاً لأفعال العباد ، والقدر يشمل المعتزلة والرافضة وطوائف أخرى ، وأول ما نشأت هذه البدعة أنشأها رجل يهودي من يهود البصرة يقال له سوسن اليهودي ، وهو أول من تكلم بنفي القدر سراً ، فأخذه عنه بعض الناس ونشروه كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي وأمثالهما ، ثم تطور أمر هذه البدعة وهذه الضلالة وتصدر لها واصل بن عطاء ، وهو الذي وضع القواعد لهذا المذهب ونظمه وجعله مقالة ومذهباً يصار إليه ، إلى جانب ما أحدثه من نفي الصفات ومن القول بالمنزلة بين المنزلتين ومن القول بتخليد أهل المعاصي في النار .

---

(١) في طبقات الحنابلة ٢٧/١ قال حنبل قلت له – يعني الإمام احمد – الشقاء والسعادة مكتوبان على العبد ؟ قال : نعم ، سابق في علم الله وهما في اللوح المحفوظ . وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله : (رسالة إلى أهل الثغر ص ٢٤٧) واجمعوا على انه قد قدر جميع أفعال الخلق وأثبت في اللوح المحفوظ جميع ماهو كائن منهم إلى يوم يبعثون .

(٢) قال ابن قتيبة رحمه الله (تأويل مختلف الحديث ص ١٤) : أصحاب الحديث كلهم مجموعون على أن ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن . وقال ابن تيمية (بيان تلبيس الجهمية ٤٢٠/١) خلافا لما اجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (مجموع الفتاوى ٤٠٦/٨) أفعال العباد مخلوقة باتفاق سلف الأمة وأئمتها . وقال ابن عبدالبر رحمه الله (فتح البر ٢٨٣/٢) في معرض شرحه لحديث تحاج آدم وموسى : وفيه الأصل الجسيم الذي اجمع عليه أهل الحق وهو أن الله عز وجل قد فرغ من أعمال العباد فكل يجري فيما قدر له وسبق في علم الله تبارك اسمه .

ثم تطورت هذه الضلالات وانتشرت وتشعبت ، فالقدرية في أول الأمر كانوا يقولون إن الله لا يقدر المعاصي والكفر والفسوق لكنه قدر الخير وخلقه ، فيقولون الشر من العبد والعبد الخالق له والله لم يقدره ، ولما أخبر ابن عباس رضي الله عنهما بذلك قال : (هذا أول شرك في الإسلام والذي نفسي بيده ليؤولن بهم رأيهم إلى أن يخرجوا الله من أن يكون قدر الخير كما أخرجوه من أن يكون قدر الشر)(١) ، وفعلاً وقع ذلك قريباً وصدق ما توقعه ابن عباس ﷺ ، فما هي إلا سنوات حتى اتفقت القدرية على أن الله سبحانه وتعالى لم يقدر شيئاً من أفعال العباد لا الخير ولا الشر .

هذه أصول الفرق وكل ينزَع لدليل ، فالقدرية النفاة لهم شبه يستدلون بها ، يقولون : لو قلنا بأن الله قدر المعاصي على العباد وخلقها لكان ظالماً لهم إذا عذبهم كيف يقدر عليهم المعصية ويخلقها ثم يعاقبهم عليها ، ولكن الأئمة رضوان الله عليهم ناظروهم وناقشوهم وأبطلوا مذهبهم بالحجج العقلية ، فالإمام الشافعي رحمه الله يقول : ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا .

ووجه ذلك أن تسأل القدري إذا قال إن الله لم يخلق أفعال العباد – تسأله :

هل كان عالماً بها أو لا ؟

فإن قال : لا .لم يكن عالماً بها لزمه وصف الله بالجهل ، ومن وصف الله بالجهل فقد كفر إجماعاً .

وإن قال : بلى علمه .

قيل له : لما علمه هل كان قادراً على صرفهم عنها أو لا ؟ .

فإن قال : نعم .كان قادراً على صرفهم عنها لكنه لم يصرفهم .

قيل :كيف يكون قادرا على صرفهم عن المعصية ولم يصرفهم ، إذاً يكون ظالما ، فيلزمهم في ذلك نظير ما فروا منه .

فإن قال : لم يكن قادرا كفر إجماعا ، لأن من وصف الله بالعجز فهو كافر .

وقد جرت مناظرة بين عبد الجبار الهمذاني المعتزلي وبين أبي إسحاق الإسفرائيني الأشعري حيث دخل عبد الجبار على الصاحب بن عباد وكان عنده الإسفرائيني :

فقال عبدالجبار على الفور : سبحان من تنزه عن الفحشاء .

فقال الإسفرائيني فورا :كلمة حق أريد بها باطل ، سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء .

فقال عبدالجبار – وفهم انه قد عرف مراده - : أيريد ربنا أن يعصى ؟

---

(١) رواه احمد في المسند (٣٠٥٤) وأورده ابن حجر في المطالب العالية (٢٩٣٦) ونسبه إلى إسحاق بن راهويه .

فقال أبو إسحاق : أيعصى ربنا قهرا ؟
فقال عبد الجبار : أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى ، أحسن إلي أم أساء ؟
فقال الإسفرائيني : إن كان منعك ماهو لك فقد أساء ، وإن كان منعك ماهو له فيختص برحمته من يشاء .
فانقطع القدري عبدالجبار وسكت ولم يجد جواباً (١) .
فحينما قال عبدالجبار سبحان من تنزه عن الفحشاء عرف الاسفرائيني أنه يريد بذلك تنزيه الله عن أن يكون قدر المعاصي وخلقها ، فقال : سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء ، ومراد الاسفرائيني أنه إذا كنت تقول : إن الله لا يريد المعاصي ثم وقعت فمعناه أنه وقع في ملكه ما لا يشاء ، فلما أدرك عبدالجبار أن الاسفرائيني ظهر عليه قال : أتراه يمنعني ..يعني قد عرفنا أن التوفيق ملك لله لكن ألا يكون ظالما لي أن منعني إياه ؟ فقال له الاسفرائيني : كلا ، انظر إن كان التوفيق ملكك ثم منعك إياه فقد ظلمك ، وإن كان ملكه فالمالك للشيء يتصرف فيه كيف يشاء .
فصاح الحاضرون كلهم والله ما لهذا من جواب .
وقد سبق أن ذكرت أن علماء الكلام – القدرية وغيرهم – لا يرون في النصوص السمعية حجة على مسائل العقيدة لكن إذا كان النص معهم فإنهم يستدلون به من باب إلزام الخصم بما يراه ، فمما يستدلون به قوله تعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين)(سورة المؤمنون آية:١٤) فقالوا هذا يدل على أن هناك خالقين غير الله ، وخالقين صفة ذم ، ولكن السلف ردوا عليهم هذا التأويل وهذا الفهم وقالوا(٢) : إن الخالقين في الآية ليس معناها الموجدين بل المراد بها معنى آخر ، لأن **خلق في اللغة تطلق ويراد بها أمور ، منها :**
١ – يقال : خلق بمعنى أوجد كما في قوله سبحانه و تعالى : (خلق الله السماوات والأرض) .
٢ – ويقال:خلق الخياط الثوب بمعنى قدره وفصله ، وخلق الخرّاز النعل بمعنى قاسها وقدرها وصورها على القياس الذي يريد ، وفعله هذا يسمى خلقا ، كل هذا يقال في اللغة العربية (٣) .

---

(١) انظر دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي في آخر أضواء البيان ٣٣١/١٠ ، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١ / ٣٣٩ .
(٢) انظر أضواء البيان للشنقيطي ٥/ ٧٨١ ، وشفاء العليل لابن القيم ص ١١٩ ت خالد السبع
(٣) وقد تطلق ويراد بها الكذب ، كما في قوله تعالى : (وتخلقون إفكاً) ، لكن إذا قصد بها الإبداع فهو خاص بالله سبحانه . انظر منهاج السنة ٢/ ٢٥٠ ، ومفردات الراغب الأصفهاني مادة خلق .

فيكون قوله : (تبارك الله أحسن الخالقين) يعني أحسن المصورين والمقدرين ، وليس المعنى الموجدين أو أحسن المخترعين ، لأنه لا موجد ولا مخترع إلا الله ، وهذا معروف في لغة العرب أن الخلق يطلق ويراد به غير الإيجاد مثل قول الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت * وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى(١)**

يقول إن الممدوح لا ينازعه أحد ، فهو إذا قدر أمراً أوجده ولا يخشى من أحد ، أما غيره فإنه يقدّر ويصوّر ولكن ليست لديه القدرة في التنفيذ ، وقوله : بعض القوم يخلق أي يقدر و يقيس .

هذا ما يتعلق بمذهب القدرية ، والبحث في مذهبهم والرد عليهم يطول لكن هذه نبذة تعطيك فكرة عنهم .

الفريق الثالث: الجهمية الذين أثبتوا القدر كما أثبته أهل السنة والجماعة يعني آمنوا بأن الله سبحانه وتعالى قضى وقدر كل شيء على عباده وأنه لا شيء يوجد إلا بمشيئة الله وإرادته لكنهم غلوا في هذا التقرير وفي هذا الإثبات حتى جعلوا العبد مجبوراً على أفعاله ، وقالوا إن العبد لا فعل له ، وأفعال العباد هي أفعال الله حقيقة ، فأخرجوا العبد من أن يكون له مشيئة وإرادة يفعل بها ويتصرف على ضوئها .

والقرآن كله مملوء مما يخالف هذا الكلام ، كقوله سبحانه تعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) قوله : (ألهمها) فيه التوفيق والإعانة ، (فجورها) فيه الدلالة على أن الفجور من العبد ، لأنه أضافه إليه فقال (فجورها وتقواها) ، فلو لم يكن للعبد فعل إذا فجر وفعل إذا اتقى لما صح إضافة الفجور والتقوى إليه ، والأدلة كثيرة جدا .

ومما يستدلون به أن الرسول ﷺ في إحدى المواقف أخذ كفا من الحصى ورمى بها المشركين ، فانزل الله تعالى قوله : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)(سورة الأنفال آية:١٧) ، يقولون : إن الله سبحانه وتعالى نفى عن نبيه الفعل مع أنه صادر عنه فقال : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قالوا : فهذا دليل على أن العبد ليس له فعل ، وأن الأفعال التي تصدر عنه هي أفعال الله .

ورد أهل السنة والجماعة عليهم هذا الاستدلال فقالوا : إن الرمي في اللغة يطلق ويراد به أحد أمرين :

١ — تارة يطلق ويراد به الحذف .

٢ — وتارة يطلق ويراد به إصابة الغرض .

---

(١) ينظر مفردات الراغب الأصفهاني مادة خلق ، وأضواء البيان ٢٦٧/٦ .

إذا حذفت السهم من القوس أو أطلقت الرصاصة من البندقية تقول رميت ، سواء أصبت أم لم تصبه ، وتقول رميت الغرض إذا أصبته ، فالذي نفي عن النبي ﷺ هو الإصابة (فما رميت) أي ما أصبت ، (إذ رميت) إذ حذفت ، (ولكن الله رمى) ولكن الله أصاب ، فالفعل الذي نفي عن النبي ﷺ هو الإصابة ، والإصابة لا تكون إلا بإذن الله وبإرادة الله ، والرامي يرمي ويحتاط ويسدد الرمية للغرض ولكن قد يصيب وقد لا يصيب ، فإذا أراد الله الإصابة حبس السهم في الرمية ، وإن لم يرد ذلك طاش السهم أو زل يميناً أو شمالاً .

(جملة واحدة ، فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه)

الشرح : يعني علم عددهم جملة واحدة ، بمعنى أنه سبحانه وتعالى لم يكن علْمه متدرجاً حتى حدث له علم ببعض أهل الجنة وبعض أهل النار ، بل كان الكل معلوماً لديه لأن علمه شامل سبحانه وتعالى ، كما قال عز وجل : (لا يعزب عنه مثقال ذرة)(سورة سبأ آية:٣) فهو علم ذلك قبل أن يكون .

(وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه ، وكل ميسر لما خلق له)

الشرح : هو قضى وقدر وكل ميسر لما خلق له ، وهذا العبارة التي قالها رحمه الله تتفق مع الحديث الذي ثبت عنه ﷺ أنه لما ذكر القضاء والقدر قال له سراقة بن مالك : يا رسول الله : بين لنا ديننا ، كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل ؟ قال : (لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير) ، قال : ففيم العمل ؟ فقال : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)(١) .

وجاء في مسلم أيضا عن علي رضي الله عنه قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : (ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة) قال : فقال رجل : يا رسول الله : أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : (من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة) ، ثم قال : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٢) ومسلم (٢٦٤٧) .

السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة) ، ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

فعلى الإنسان في هذا الباب أن يؤمن بالقضاء والقدر وعليه أن يعمل بما أمر به ولا يوجِد بينهما تناقضا حتى لا يكون من الطائفة الإبليسية التي تدعم إبليس في إلقاء الشبه والمعارضات حين قالت : كيف يقدر علينا الأفعال ثم يعاقبنا عليها ؟ أيقدر علينا الكفر ويأمرنا باجتناب الكفر ؟ هذا تناقض ، وهؤلاء يسمون الإبليسية لأن شبهتهم تماثل شبهة إبليس لعنه الله حيث قال : (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) فكيف يسجد من خلقه من النار القوية لمن خلقه من الطين الضعيفة ، هؤلاء قالوا نعم : نصدق بأن الله قدر وقضى ، ونصدق بأن الله أمرنا أن نطيعه ونهانا أن نعصيه ، ولكن هذا تناقض من الخالق ، كيف يقدر شيئا ويأمر بخلافه ؟

فالرسول ﷺ لما ذكر لهم القضاء والقدر وأنه سبقت مشيئة الله وأنه ما من حركة وسكون يقع من البشر إلا الله خالقه ومقدره ، كأنهم استشكلوا هذا فقالوا يا رسول الله هل الثواب والعقاب متعلق بالمشيئة والقدَر أم أنه متعلق بما نستأنفه من الأفعال ؟ فقال عليه الصلاة والسلام بل بما قضي وقدر ، وعليكم أن تعملوا وكل ميسر لما خلق له ، وقال : فأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ، يعني أنه لا يحتج الإنسان بالقضاء والقدر على ترك الأوامر ، أو ينظر إلى جانب الأوامر ويهمل القضاء والقدر ، عليه أن يصدق بما أخبر به ويعمل بما أمر به .

(والأعمال بالخواتيم والسعيد من سَعُد بقضاء الله والشقي من شقي بقضاء الله)

الشرح : يعني أن الله سبحانه وتعالى جعل مناط السعادة والشقاوة ما يختم للإنسان به ، فإن ختم له بخير فإنه يكون من أهل السعادة ، وإن ختم له بخلاف ذلك – والعياذ بالله – فإنه يكون من أهل الشقاوة ، ولا عبرة لما يكون عليه الإنسان قبل أن يختم له ، فلا يقطع له بالجنة إذا رئي متعبدا ومطيعا لله ومتبعا لأوامره ، ولا يقطع له بالنار إذا رئي مسرفا على نفسه و مرتكبا للمعاصي والسيئات ، كما قال ﷺ : (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح) ثم قال ﷺ : (والذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه

الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)(١) ، فالعبرة بالخواتيم ، الخاتمة هي مناط الشقاوة أو السعادة ، فقد يكون الإنسان مسرفا في حياته ، أو قد يكون كافرا وفي آخر حياته منّ الله عليه بالتوفيق و الهداية فهداه للإيمان و دخل في الإسلام واستقام وصار من عباد الله المؤمنين فيختم له بخير وقد يكون بخلاف ذلك ، نسأل الله العافية .

و السعيد من قدر الله له السعادة والشقي من قدر الله عليه الشقاوة .

(وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل)

الشرح : قال ابن عباس رضي الله عنهما : (القدر سر الله في خلقه فلا تكشفوه)(٢) فلا ينبغي التعمق بالقدر والتنطع والبحث عن الأمور التي تخفى على الإنسان كالعلل والأحكام والأسرار ، ولا ينبغي(٣) أن يحاول الغوص فيها واكتشافها واجتنائها وهي مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. والقضاء والقدر مترادفان ، فتطلق قضى على قدَّر فتكون هي والقدر سواء ، إلا أن القضاء قد يطلق على أمور غير القدر كالحكم والأمر ، كقوله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)(سورة الإسراء آية:٢٣) ، لكن إذا أطلق القضاء فقيل قضى الله كذا فيكون القضاء والقدر بمعنى واحد .

(لم يطلع على ذلك ملك مقرب و لا نبي مرسل)

الشرح : أي لم يطْلع سبحانه وتعالى على سر القضاء والقدر أحداً لا من الأنبياء ولا من الرسل ولا من الملائكة ولا من غيرهم .

(والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان)

الشرح : يعني أن التعمق في ذلك يوصل الإنسان إلى هذا الدركات التي ذكرها كالطغيان والحرمان والخذلان .

و التعمق الذي هو بحث عن جوانب في القضاء والقدر لا يمكن للعبد أن يطلع عليها ، أما معرفة القضاء والقدر كما ورد في النصوص — في القرآن والسنة فهذا بحثه العلماء وناقشوه وتكلموا فيه وناظروا منكريه ، إنما يقصد بالتعمق إيجاد المعارضات والبحث عن كشفها وحلها بما لا يمكن

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣) .

(٢) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٣٢٠ ت التركي ط ٢

(٣) مراد الشيخ رحمه الله هنا المنع ، وهو من باب قول الله تعالى (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا)

كشفه عن طريق الكتاب والسنة ، هذا هو الذي يكرهه العلماء ويحذرون منه،والرسول ﷺ خرج ذات يوم والناس يتكلمون في القدر فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب ، فقال لهم : (ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟ بهذا هلك من كان قبلكم)(١) ، فالتعمق الذي نتيجته إيجاد التعارض وإيجاد المشكلات ، والبحث عما يظهر عنه أنه تناقض هذا هو الذي لا يجوز .

(فالحذر كل الحذر بذلك نظراً وفكراً و وسوسة)

الشرح : يعني لا ينبغي أن ينظر فيه الإنسان نظرة تعمق ولا ينبغي أن يفكر فيه فكر تعمق ولا ينبغي أن يزيد في ذلك التفكر حتى يصل إلى الوسوسة .

فالنظر : هو أول استعراض هذه الوساوس .

والفكر : هو التفكير فيها والبحث عن وجوهها وعن ما يراد بها .

أما الوسوسة : فهي درجة تكون بعد التفكير .

أولاً ينظر الإنسان ثم يفكر ثم قد يخرج من الفكر إلى الوسوسة ، ولهذا يقول شارح الطحاوية : إن أول واجب على الإنسان هو معرفة الله لا النظر ولا التفكر ولا الشك ، فالنظر عند الأشاعرة هو أول واجب على المكلف ، يعني يبحث عن الأدلة على ربوبية الله ، والمؤلف يمنع ذلك ويقول طريقة السلف أن أول شيء هو عبادة الله وتوحيده ، لا النظر ولا الفكر ولا الشك الذي هو الوسوسة .

(فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه)

الشرح : طوى عنهم علمه ونهاهم عن أن يحاولوا كشفه .

(كما قال تعالى في كتابه : لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون)

الشرح : هو قضى وقدر ولا ينبغي لأحد أن يعترض على ذلك فيسأله : لماذا قدر كذا ، لأنه (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) وهذه قاعدة من قواعد السلف جعلها ابن تيمية رحمه الله قاعدة عامة من القواعد السبع المذكورة في التدمرية وهو أنه يجب على العبد الإيمان بما صح عن الله ورسوله اعتقادا وعملا ، وأنه لا يلزم أن يبحث عن العلة أو الحكمة أو السر في هذا التشريع أو في هذا الأمر بالاعتقاد بل عليه أن يؤمن ويسلم ، ولا يقول إن وجدت الحكمة أو السر في هذا

---

(١) رواه احمد في مسنده (٦٦٦٨) وابن ماجه (٨٥) بسند صحيح ومسلم بنحوه (٢٦٦٦)

الاعتقاد اعتقدته أو في هذا التشريع عملته ، بل يجب عليه أن يؤمن ويصدق ويسلم ، ولا يكون إيمانه أو تسليمه متوقفاً على معرفة سر التشريع أو سر الأمر بالاعتقاد ، لأن الله سبحانه وتعالى : (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون)(سورة الأنبياء آية:٢٣) .

(فمن سأل :لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب)

الشرح : يشير إلى قوله تعالى : (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) ، الله سبحانه وتعالى يقول : (لا يسئل عما يفعل) فمن سأل عما فعل الله أو لم فعل فقد عارض و رد قوله : (لا يسئل عما يفعل) .

(فمن رد حكم الكتاب كان من الكافرين)

الشرح : فمن رد حكم الكتاب كان من الكافرين ، في كل شيء وليس في هذه المسألة فقط ، في أي مسألة من مسائل الكتاب ، من رده ورفضه وأنكره ورغب عنه فإنه يكون من الكافرين بدليل قوله سبحانه وتعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)(سورة المائدة آية:٤٤) ، و بدليل قوله سبحانه وتعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما)(سورة النساء آية:٦٥) فهذه الآية نفت الإيمان عمن رد حكم الكتاب ، والآية التي قبلها حكمت بكفر من رد حكم الكتاب وحكم بغيره .

(فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى وهي درجة الراسخين في العلم)

الشرح : قوله : (فهذا) الإشارة يحتمل أنه يقصد بها ما ذكره من حكم القضاء والقدر ، ويحتمل أنه يقصد ما ذكره مما تقدم كله من قوله : (نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله أن الله واحد لا شريك له) إلى آخره ، أو أنه يريد بذلك هذه الجمل التي تتعلق بالقضاء والقدر والإيمان به والتسليم له وعدم رد حكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

(لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود)

الشرح : العلم المفقود : هو علم الغيب والإطلاع على أسرار التشريع وأسرار الأخبار التي ترد عن الله ورسوله ، لا يمكن لأحد أن يطلع على الغيب

ولا يمكن لأحد أن يعلم شيئاً من الغيب : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً) .
العلم الموجود : علم الشريعة ، وإنكاره كفر ، وكذلك ادعاء العلم المفقود – علم الغيب – وإدعاء علم أسرار الله في أقضيته وأقداره كفر .
فالاعتدال هو الإقرار بعلم الشرائع والإقرار بالعجز عن علم الغيوب والإطلاع على أسرار الله سبحانه وتعالى .

(ونؤمن باللوح والقلم)

الشرح : من معتقد أهل السنة والجماعة الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى كتب في اللوح المحفوظ بالقلم ما هو كائن إلى يوم القيامة ، واللوح يعنون به اللوح المحفوظ ، والقلم هو الذي كتب الله به ما يكون في اللوح المحفوظ ، وهو الذي أقسم الله به ، على الراجح في قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون)(سورة القلم آية:١).
وهنا عند ذكر القلم يبحث العلماء في مسألة : أيهما خلق أولاً : القلم أم العرش ، قوم قالوا : إن العرش هو أول المخلوقات ، وقوم قالوا : إن القلم هو أول المخلوقات ، سبب الخلاف في ذلك هو الآثار التي وردت في هذا الموضوع ، منها قوله ﷺ : (إن أول ما خلق الله القلم فقال : له اكتب)(١) .
جاء هذا الخبر بعدة ألفاظ منها : (أولُ ما خلق الله القلم)(٢) ومنها : (إن أولَ ما خلق الله القلم) ومنها : (أولَ ما خلق الله القلم قال له : اكتب) ، فكل لفظ من هذه الألفاظ يؤدي إلى معنى .
قوم قالوا : إن العرش مخلوق قبل بدليل قوله ﷺ : (كان الله ولم يكن شيء معه وكان عرشه على الماء)(٣) ، والواو هنا للحال ، إذاً فالعرش كان موجوداً قبل كتابة الأشياء التي كتبها الله بالقلم ، فالذين ذهبوا إلى أن العرش كان قبل استدلوا بهذا الخبر (كان الله ولا شيء معه ..) لا قلم ولا لوح ولا غيره .
وأما الذين استدلوا بحديث عبادة فإنهم تمسكوا بقوله : (إن أولَ ما خلق الله القلم) وكذلك قوله : (أولُ ما خلق الله القلم) فقالوا هذا نص في أن أول شيء خلقه الله القلم .

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥) وأحمد في مسنده (٢٢٧٠٥) بسند صحيح
(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٢٧٠٧) وابن أبي عاصم في السنة (١٠٣) بإسناد فيه مقال .
(٣) رواه البخاري (٤٧١٨) واحمد في مسنده (١٩٨٧٦) .

ولكن أجاب الذين رجحوا أن العرش هو الذي قبل أجابوا عن حديث عبادة وغيره بأن أول ما خلق الله القلم من هذا العالم المشهود ، قالوا الدليل على هذا أن سبب هذا الحديث أن قوما سألوا النبي ﷺ وقالوا يا رسول الله جئنا نسألك عن أول هذا الأمر ، فقال ﷺ : (إن أول ما خلق الله القلم قال له : اكتب) وفي رواية : (فقال له اكتب) ، فقالوا إن في قوله : (أول ما خلق الله القلم) أو : (إن أولَ ما خلق الله القلم) أو : (أولُ ما خلق الله القلم) يعني من هذا العالم المشاهد ، لأن هذا العالم المشاهد هو الذي سئل عنه ﷺ ، وهو الذي كان سبب جواب الرسول ﷺ ، لا أنه أول المخلوقات مطلقاً .

وعلى كل هو خلاف ، وابن القيم أشار إلى هذا الخلاف في النونية فقال :

والناس مختلفون في القلم الذي * كُتب القضاء به من الديان**(١)

هل كان قبل العرش أو هو بعده* قولان عند أبي العلا الهمذاني**

وذكر أن من العلماء من اختار الأول ومنهم من اختار الثاني(٢) ، وهو اختار أن العرش خلق قبل فقال :

والحق أن العرش قبلُ لأنه * قبل الكتابة كان ذا أركان**

يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام : (كان الله ولا شيء قبله وكان عرشه على الماء)(٣)

أما قول الألباني :

(الاختلاف المذكور يدل بمفهومه على أن العلماء اتفقوا على أن هناك أول مخلوق والقائلون بحوادث لا أول لها مخالفون لهذا الاتفاق ، لأنهم يصرحون بأن ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق وهكذا إلى ما لا أول له ، كما صرح بذلك ابن تيمية في بعض كتبه ، فإن قالوا : العرش أول مخلوق – كما هو ظاهر كلام الشارح – نقضوا قولهم بحوادث لا أول لها ، وإن لم يقولوا بذلك خالفوا الاتفاق فتأمل هذا فإنه مهم ..الخ)(٤)

---

(١) ينظر نونية ابن القيم ت عبدالله بن مُحَمّد العمير ص ٩٦ ، ورقم البيت الأول ٩٨٩ .

(٢) انظر منهاج السنة لابن تيمية ١ / ٣٦١

(٣) رواه البخاري (٧٤١٨) (٣١٩١) وابن خزيمة في التوحيد ص ٣٧٦ .

(٤) انظر تعليق الألباني رحمه الله على شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ١٧٨ ط المكتب الإسلامي .

فالألباني ما فهم كلام ابن تيمية رحمه الله ، ابن تيمية لا يدعي أن قبل القلم ليس هناك مخلوق ، هو أجاب عن حديث (أول ما خلق الله القلم) أن المراد به هذا العالم المشهود ، ولا يلزم أن هذا العالم المشهود هو أول المخلوقات ، هناك مخلوقات غير هذا العالم ، هناك عوالم ، فالله سبحانه وتعالى لا أول لوجوده ولا أول لأزليته ، فلا نحد موجوداته ومخلوقاته على هذا العالم الحاضر بل ما دام أنه لا بدء لأوليته فكذلك لا بدء لأفعاله سبحانه وتعالى ، لكن الحوادث ما منها شيء يكون قديماً ليس قبله شيء ، بل كل حادث فقبله حادث وهذا الحادث قبله حادث وهكذا إلى ما لا نهاية .

والذين أنكروا على شيخ الإسلام ابن تيمية ما فهموا المبدأ الذي سار عليه ، لأنهم ساووه بالفلاسفة ، قالوا : الفلاسفة يقولون العالم قديم وكلام ابن تيمية يتفق مع كلام الفلاسفة ، وهم لو فهموا من كلام ابن تيمية غرضه أو قصده ما قالوا هذا ، فهناك فرق بين كلام ابن تيمية وكلام الفلاسفة ، فالفلاسفة يقولون ما من جزء من جزئيات العالم الموجود إلا هو متولد من قديم ، فالقدم عندهم عام جميع الموجودات ، وليس هناك شيء محدث من العدم ، بل كل محدث فهو متولد من قديم وذلك القديم متولد من القديم إلى مالا نهاية ، أما شيخ الإسلام رحمه الله فيقول : المحدثات كلها حدثت من العدم ، لكن ليس هو أول مخلوق بل قبله مخلوق وذلك المخلوق مخلوق من العدم وقبله مخلوق إلى مالا نهاية ، فيكون جنس الحوادث قديما ولكن أفرادها محدثة من العدم.

هذا خلاصة رأي ابن تيمية والألباني لم يفهم كلام ابن تيمية وإلا لما ألزمه بهذا اللازم .

أما مقولة : تتابع الآنات أو تتابع الأوقات : فالعقلاء كلهم مجمعون على أن التسلسل في المؤثرين غير جائز ، إنما التسلسل في المحدثات هذا هو الذي يجوز .

فعندنا مؤثر وأثر ومحدِث ومحدَث وفاعل ومفعول ، هذا المحدث والمفعول والأثر أهل السنة والجماعة كلهم متفقون على أنه متسلسل وأنه لا يمنع العقلُ من أن يكون المحدَث مسبوقاً بمحدث والأثر مسبوقا بأثر ، والمفعول مسبوقاً بمفعول إلى مالا نهاية ، والعقل لا يمنع هذا ، إنما الذي يمانعون منه وينكرونه هو أن يكون المؤثر أو الفاعل أو المحدِث متسلسلا ، لأنه يلزم عليه الدور ولا يجوز .

يعني بعبارة أقصر التسلسل في المحدثات والمفعولات والآثار جائز والتسلسل في المؤثر أو الفاعِل أو المحدِث هذا لا يجوز .

(وجميع ما فيه قد رُقم)

الشرح : كل ما كتبه الله ورقمه فيه من مقادير الأشياء نؤمن بها ، أي نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى كتب القضاء والقدر في اللوح المحفوظ وأنه كلما حدث في الدنيا من خير وشر فهو مكتوب ومفروغ منه في اللوح المحفوظ .

(فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى ليجعلوه كائنا لم يقدروا عليه ، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة)

الشرح : أي لو اجتمع أهل الأرض على أن يغيروا شيئاً كتب الله أنه سيكون وأرادوا أن يجعلوه غير كائن فإنهم لا يستطيعون ذلك ، فكذلك لو كتب الله في اللوح المحفوظ أموراً أنها غير كائنة فلو اجتمع أهل السموات وأهل الأرض أن يجعلوها كائنة ما استطاعوا ذلك كما قال ﷺ رفعت الأقلام وجفت الصحف(١) ،فما من شيء إلا وقد فرغ من كتابته ، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله : ما من حركة ولا سكون في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه ومقدره وكاتبه سبحانه وتعالى ، كتبت المقادير وكتبت الكائنات وجف القلم ورفعت الصحف وانتهى كل شيء ، وكل شيء يحدث فهو حسب التقدير السابق .

(وما أخطأ العبدَ لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمُه في كل كائن من خلقه ، فقدّر ذلك تقديراً محكماً مبرماً)

الشرح : ومن بحث القضاء والقدر الإيمان بأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فما قدر الله على العبد أنه يصيبه فسيحدث لا محالة ، وما قدر الله على العبد أن يسلمه ويجنبه الأمور التي يكرهها فإنه لا يمكن أن تقع ، لأن كل شيء يحدث و يوجد حسب ما شاءه الله وعلم أنه سيكون ، وحسب ما كتبه سبحانه وتعالى .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) واحمد في مسنده (٢٦٦٩) بسند صحيح .

(ليس فيه ناقض ولا معقب ولا مزيل ولا مغير ولا محول ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه ، وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته كما قال تعالى : وخلق كل شيء فقدره تقديرا ، وقال تعالى : وكان أمر الله قدرا مقدورا)

الشرح : كل ما سبق مما يتعلق بالقضاء والقدر من عقد الإيمان ، يعني من الاعتقاد الذي يجب الإيمان به الإيمان بأن الله علم كل شيء ، الإيمان بأن الله قدر كل شيء وكتب كل شيء ، الإيمان بأن أحداً لا يستطيع أن يغير ما كتبه الله ، الإيمان بأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كل هذه من عقد الإيمان ، كلها يجب على العبد أن يعتقدها ليتم إيمانه ، وكلها من الإيمان بالقضاء والقدر ، لأن الإيمان من أصوله : الإيمان بالقضاء والقدر كما قال (عند بيان أصول الإيمان :(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)(١) .

(فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً)

الشرح : المعتزلة ومن سار على طريقهم من نفاة القدر : يُعدون خصوماً ، كأنهم يخاصمون الله ، يقولون : كيف يقدر علينا المعاصي ثم يعاقبنا عليها ؟ فهم بمنزلة الخصم لأنهم يعترضون على القضاء والقدر وينكرونه ، يقولون : لو كان الله قضى وقدر أعمالاً ثم عاقب عليها يكون ظالماً وجائراً ، فنفوا القدر من باب معارضة ما قضاه الله وقدره ، فويل لمن صار لله في القدر خصيماً

قوله : (واحضر للنظر فيه قلباً سقيما) يقول ويل لمن خاصم الله في قضائه وقدره وحكمته ، وويل لمن جعل قلبه بالنظر في القضاء والقدر مريضا سقيما ، لأن الشبه التي يوردونها على القضاء والقدر هي شبه صادرة عن مرض قلوبهم ، والقلوب تمرض كما تمرض الأبدان ، و عامة مرض القلب من الشبه ، وقد يكون للشهوات أيضاً مدخل في مرض القلب ، لكن أساس أمراض القلب من الشبه .

(لقد التمس بوهمه بفحص الغيب سراً كتيما)

الشرح : كتيم بمعنى مكتوم ، فعيل بمعنى مفعول .

الله سبحانه وتعالى كتم عن العباد سر تقديره ومشيئته وأفعاله وحِكَمِه ،لم يطْلع عليها نبيا مرسلاً ولا ملكا مقربا ، كما قال ابن عباس ﷺ : (القدر سر الله فلا تكشفوه)(٢) ، فما دام أن الله

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٨) وأبو داود (٤٦٩٥) وابن ماجه (٦٣) والترمذي (٢٦١٠) وغيرهم .

(٢) انظر ص ٦١ .

تبارك وتعالى طوى عنا علمه ومنعنا من رومه كما سبق فلا ينبغي لنا أن نبحث أو نحاول أن نحصل على أمور لا يمكننا الحصول عليها ، وهي معرفة أسرار القضاء والقدر .
قوله : (فحص الغيب) المقصود به البحث في الأمور المغيبات ليصل إلى السر الذي كتمه الله ، وهذا أمر لا يمكن الوصول إليه ولا ينبغي الاشتغال به (١) .

(وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيما)

الشرح : بعد الفحص والتعب الشديد والنظر في مسائل القضاء والقدر وسر الغيب سيرجع خسران ما عنده إلا خفي حنين ويكون ما قاله كذبا باطلا يأثم فيه ، لأن هذا لأمر الذي رامه وحاول بحثه – مستحيل على البشر الوصول إليه فإنه لا بد إن يبوء بالخسران ويرجع بعد بحثه وتعبه بالندم .

(والعرش والكرسي حق وهو مستغن عن العرش وما دونه محيط بكل شيء وفوقه)

الشرح : العرش مشتق من التعرّش وهو العلو والارتفاع ، وهو أعلى المخلوقات وهو سقف الجنة ، والله سبحانه وتعالى مستوٍ عليه ، والإيمان به من معتقد أهل السنة والجماعة لكثرة وروده في القرآن والحديث ،وله حملة من الملائكة يحملونه ، قال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية)(سورة الحاقة آية:١٧) والله سبحانه وتعالى فوق العرش .
قوله :(محيط بكل شيء وفوقه) ، في بعض النسخ (يحيط بكل شيء فوقه) ، والنسخة الصحيحة : (وفوقه) ، لأن معناها أن الله يحيط بكل شيء وفوق كل شيء ، أما النسخة الأخرى فمعناها أن الله محيط بكل شيء فوقه أي فوق العرش ، ولو أعربت على أنها حال كونه فوقه لصح المعنى ، لكن العلماء رحمهم الله يقولون إن النسخة التي فيها الواو هي الصحيحة .
وهذا تخصيص لإحاطته سبحانه وتعالى ، فهو محيط بكل شيء فوق العرش ودون العرش وتحت العرش ، وليس فوق العرش إلا الله سبحانه وتعالى لأن الأفلاك كلها بعضها فوق بعض وأعلاها كلها العرش ، وأما الكرسي فهو –كما قال بعض السلف – أمام العرش كالمقدمة له أو كالمرقاة له ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :(الكرسي موضع القدمين لله سبحانه وتعالى) (٢)، وعلى كل فالعرش جاء فيه آيات كثيرة وأحاديث .

---

(١) انظر التعليق رقم ٣ ص ٦١

(٢) أخرجه الطبراني (١٢٤٠٤) والطبري (٥٧٩٢) والدارقطني في أحاديث النزول ص ٤٩ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

والكرسي كذلك : (وسع كرسيه السماوات والأرض) فالكرسي الذي هو بمنزلة المرقاة للعرش وسع السماوات والأرض ، إذاً فما بالك بالعرش ، وما بالك بمن هو فوق العرش سبحانه وتعالى من حيث العِظم ، فإذا كان الكرسي بمنزلة المرقاة للعرش وهو وسع السماوات والأرض فالعرش لا يقدر قدره إلا الله سبحانه وتعالى ، والسماوات أفلاك ، السماء الدنيا تحيط بالأرض وتحيط بها السماء الثانية وتحيط بالسماء الثانية الثالثة والرابعة بالثالثة وهكذا ، والعرش يحيط بها كلها ، وقد ذكر بعض العلماء أن العرش محيط بالعالم كله كإحاطة قشر البيضة بالبيضة .

والله سبحانه وتعالى فوق ذلك كله ، وهو الذي يحمل العرش ويحمل السموات والأرض بقدرته سبحانه وتعالى وهو غني عن ذلك كله غني عن العرش وغني عن الكرسي وغني عن الأرض وغني عن السماء وغني عن المخلوقات كلها ، فكل شي فقير إلى الله ، والله سبحانه وتعالى غني عن كل شيء .

(وقد أعجز عن الإحاطة خلقه)

الشرح : الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء من خلقه ، وقد أعجز خلقه عن أن يحيطوا به علماً ، وأعجزهم عن أن يحيطوا به رؤية ، وأعجزهم من أن يحيطوا به قدرة ، فهم لا يدركونه ، يرونه ولكن لا يحيطون به رؤية ويعلمونه ولكن لا يحيطون به علما وهو سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء .

(ونقول إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وكلم الله موسى تكليما إيماناً وتصديقاً وتسليما)

الشرح : هاتان الصفتان من صفات الله تعالى ، إحداهما من الصفات الفعلية الاختيارية وهي الخلة ، والخلة هي خالص المحبة ، والثانية صفة الكلام وهي من الصفات التي يؤمن بها السلف .

فأما الخلة فإن الله سبحانه وتعالى اتخذ إبراهيم خليلاً أو حبيباً محبًّاً خالص المحبة ، والنبي ﷺ خليل الله كما قال عليه الصلاة والسلام : (لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن)(١) يعني نفسه ﷺ ، فالخلة ثابتة لمحمد ﷺ كما هي ثابتة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام .

---

(١) رواه مسلم (٢٣٨٣) والترمذي (٣٦٥٦) وابن ماجه (٩٣) والبغوي (٣٨٦٧) وغيرهم .

و الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ينكرون المحبة التي الخلة خالصها ، ويقولون إن معنى المحبة أثر ينشأ في نفس المحِب بسبب ما يكون من المحبوب ، والله سبحانه وتعالى منزه عن أن يؤثر فيه شيء ، ولكن السلف رضوان الله عليهم يقولون إن الله وصف نفسه بالمحبة ووصفه رسوله بالمحبة فنثبتها له كما أثبتنا له سائر الصفات كما قال تعالى : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه)(سورة المائدة آية:٥٤) ، فالله سبحانه وتعالى يُحِب ويُحَب ، فالمحبة صفة تقوم بذاته سبحانه وتعالى تليق بجلاله وعظمته ، ما دام أنه أثبتها لنفسه فلا يلتفت لقول متكلم أو معطل ضال – أنه يلزم من ذلك أن يؤثر فيه شيء من مخلوقاته ، فإنه يحب أولياؤه وليس أولياؤه هم الذين جعلوه يحبهم ، بل يحبهم وحبه لأوليائه صفة قائمة بذاته ، كما أن رحمته وعلمه وكما أن حياته وسمعه وبصره صفات قائمة بذاته فكذلك رحمته ، فالمحبة والخلة بمعنى واحد إلا أن الخلة خالص المحبة ، كما قال البحتري(١) :

قد تخللتَ مسلك الروحِ مني ***وبذا سمي الخليل خليلاً

والخُلة بخلاف الخَلة ، فالخَلة الحاجة والفقر ، أما الخُلة فهي خالص المحبة .

قد يرد سؤال هنا يقول : قول أبي هريرة ﷺ : (أوصاني خليلي ﷺ بثلاث أن لا أنام قبل أو أوتر)(٢) إلى آخره ، فكيف يقول أبو هريرة ﷺ أوصاني خليلي والرسول ﷺ يقول : (لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً) ؟

الجواب أن يقال : إن الخلة في حديث أبي هريرة كانت من قِبل أبي هريرة ، فهو الذي اتخذ النبي ﷺ خليلاً بمعنى أنه أحبه حباً وصل إلى درجة الخلة ، أما النبي ﷺ فإنه خليل الله ولم يتخذ خليلاً غيره .

أما الكلام فصفة من الصفات التي تقوم به سبحانه وتعالى ، يتكلم إذا شاء ويترك الكلام إذا شاء ، فهي صفة فعلية من حيث كونه يتكلم مختاراً ، وصفة ذاتية من حيث كونها قائمة بذات الباري سبحانه وتعالى ، وهذا معنى قول السلف إن الكلام صفة ذات من جهة وصفة فعل من جهة أخرى .

والناس لهم في كلام الله مذاهب ذكر الشارح منها قريباً من تسعة مذاهب ولكن الصحيح منها مذهب أهل السنة والجماعة أهل الحق الذين قالوا : إن الله يتكلم كلاما حقيقيا بصوت وحرف

---

(١) ينظر مفردات الراغب الأصفهاني مادة خل ت صفوان عدنان .

(٢) رواه البخاري (١٩٨١) ومسلم (٧٢١) وغيرهما .

يُسمع منه ، إذا تكلم بكلام سمعه أهل السماوات وفهموا منه كلامه ، وأكثر ما يكلم جبريل عليه الصلاة والسلام ، لأن جبريل هو الذي ينزل بالوحي وهو الذي يخاطبه الله ويكلمه ويأمر نبيه على لسانه أو ينهاه على لسانه ، كما قال ﷺ: (فينادي بصوت يسمعه من قرب كما يسمعه من بعد)(١) ، وكما قال ﷺ: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)(٢) ، وهذا هو المذهب الحق ، لكن اندفقت مذاهب باطلة ، أولها :

مذهب الجهمية والمعتزلة هؤلاء يقولون : إن كلام الله مخلوق والله لا يتكلم ولا يكلم ولا ينادي ولا يناجي ، ويقولون إن الكلام يحتاج إلى أسنان ولسان وشفتين وحلق والله سبحانه منزه عن ذلك ، **وهذا الكلام الضال يرد عليه من وجهين** :

الأول : أن الكلام يحتاج إلى هذه الأدوات بالنسبة للمخلوق أما الخالق سبحانه وتعالى فهو قادر على كل شيء ، وقادر على أن يتكلم ويسمِع من شاء ، ولا يكون مضطرا بأن يكون له هذه الآلات .

الثاني : أن بعض المخلوقات تكلمت وقالت وهي ليست لها أسنان ولا لسان ولا شفتان ولا خيشوم ولا حلق كالسموات التي : (قالتا أتينا طائعين)(٣) ، وكالجذع الذي حن للنبي صلى الله عليه وسلم – لما صنع له منبر يخطب عليه ، لأنه كان يخطب على جذع نخلة فلما صنع له منبر وهجر الجذع حن ، والحنين صوت و نوع من الكلام (٤) .

وأما الأشاعرة و الكلابية و الماتريدية فإنهم يثبتون لله الكلام ، ولكن ليس على طريقة أهل السنة والجماعة بحيث يقولون إن الله يتكلم بكلام يسمع منه ، بل يقولون إن الله يتكلم ومن صفاته الكلام ولكن يعنون بالكلام المعنى القائم بذات الله سبحانه وتعالى .

والأشاعرة وإن أثبتوا الكلام إلا أن الفرق بين إثباتهم واثبات أهل السنة واضح ، فأهل السنة والجماعة يقولون إن الله يتكلم بصوت وحرف ، ويقولون إنه يتكلم و يسمع منه الصوت ، أما الأشاعرة ومن معهم فهم وإن قالوا إن الكلام صفة من صفات الله تعالى وقالوا نثبت الكلام الله سبحانه وتعالى لكن هم يقولون لا يسمع منه يعني لا يتكلم بصوت ولا حرف ، وإنما الكلام

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه معلقا بعد حديث (٧٧) ووصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٥/٣٥٥) ورواه البخاري أيضا في خلق أفعال العباد ص ٩٩ ورواه في صحيحه بلفظ آخر (٧٤٨٣) وفي الأدب المفرد (٩٧٠)

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦) وغيرهما .

(٣) رواه النسائي (١٣٩٦) واحمد في مسنده (١٤١٤٢) و عبدالرزاق في المصنف (٥٢٥٤) بإسناد صحيح .

(٤) وكذلك جهنم كما في قوله تعالى : (يوم نقول لجهنم هـ٤ل امتلأت وتقول هل من مزيد) .

الذي يثبتونه لله سبحانه وتعالى يعنون به المعنى القائم بنفسه ، يعني معاني ، مثلاً معنى الأمر معنى النهي معنى الاستفهام معنى الإخبار ، يخبر جبريل عليه السلام على أن يفهم ما في نفس الله فيعبر عن ذلك المعنى بصوته هو ، فعلى هذا تكون الحروف الأصوات عندهم مخلوقه .
إذاً هم ينكرونه ويعدون كلام الله المعنى القائم بالنفس ، ولكن المعنى القائم بالنفس لا يسمى كلاما ، وإنما استدلوا بما يروى عن الأخطل النصراني أنه قال (١) :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلاً**

ويقولون هذا دليل على أن الكلام قائم في النفس ، وأما الكلام الذي يكون باللسان فهو دليل عليه .

والعلماء ذكروا أنه لا دلالة في البيت بوجه من الوجوه ، وقالوا :

أولاً : أن الشاعر نصراني والنصارى ضلوا في مسألة الكلام حيث جعلوا عيسى عليه الصلاة والسلام هو نفس كلمة الله .

ثانياً: أن البيت مروي بلفظ غير هذا وهو(٢) :

إن البيان لفي الفؤاد وإنما ...

فليس فيه الكلام ، بل ذكر البيان .

ثالثا : أن البعض يشكك في نسبته ، ويقول إن البيت مصنوع لم يثبت في ديوان الأخطل .

رابعا : أن البيت لو ثبت للأخطل ، فإن الأخطل من الشعراء المولدين الذين لا يحتج بشعرهم في شواهد اللغة العربية .

والسلف رضوان الله عليهم يرون أن القول بخلق كلام الله كفر ، فلهذا خالد بن عبد الله القسري قتل الجعد بن درهم وقال لأنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً (٣) ، فدل على عظم هذه البدعة وكبر هذه الفرية التي هي زعمهم أن كلام الله مخلوق .

---

(١) ينظر شرح ابن أبي العز ص ١٩٩ ت التركي ط ٢ .

(٢) ينظر شرح ابن أبي العز ص ١٩٩ ت التركي ط ٢ .

(٣) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (٣) وفي تاريخه الكبير (٦٤/١/١) ورواه عثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية ص ٢١ ، وقد استفاض ذكر هذه القصة التاريخية في كتب أهل العلم وتلقوها بالقبول .

(**ونؤمن بالملائكة والنبيين**)

الشرح : قوله : (ونؤمن بالملائكة) الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة .

والملائكة جمع ملك والملك أصله مألك من ألكت فلانا في كذا أي أرسلته فيه ، والرسالة تسمى ألوكة ، كما قال الشاعر :

ألكني إليها بخير الرسول * أُعلمهم بنواحي الخبر(١)**

وكما جاء في لامية الأعشى إطلاق الألوكة على الرسالة ، وقد قال :

أبلغ يزيد بني شيبان مألكة * أبا ثبيت أما تنفك تأتكل(٢)**

وملائكة مألكة وهو مأخوذ من الألوكة التي هي الرسالة لأن الملك مرسل من الله سبحانه وتعالى ، سواء أرسلوا إلى عباده لتبليغهم بالوحي كجبريل ، أو يرسلهم في قضاء تدبير أمور الكون .

ومن أصول أهل السنة والجماعة الإيمان بأن لله ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنه سبحانه وتعالى سخرهم للقيام بالأعمال فمنهم من ينزل بالوحي ومنهم من ينزل لقبض الأرواح ومنهم من يكتب أعمال العباد ، ومنهم من هو موكل بالقطر ومنهم من هو موكل بالنبات ومنهم من هم مفرّغون للعبادة يصلون ويسبحون ، ويقومون بعبادته سبحانه وتعالى كما في قوله : (يسبحون الليل والنهار لا يفترون)(سورة الأنبياء آية:٢٠) .

ولم يضل في الملائكة إلا طوائف قليله كالفلاسفة الذي قالوا إن الملائكة عبارة عن قوة عقلية يدبرون الكون وليسوا مخلوقين ولا ذوات .

وهذا يقرب منه قول مُحَمَّد عبده الذي يسمى الإمام في الأزهر سابقاً ، فإن خلاصة قوله في الملائكة يؤول إلى هذا المعنى ، كما في كلامه عن القوى التي تشغل الحيوان والنبات ، و مُحَمَّد عبده معروف أنه يفسر القرآن على حسب عقله ورأيه ، وأنه لا يتقيد بتفسير السلف والصحابة رضوان الله عليهم ، إذا قرأت كلامه في تفسير مُحَمَّد رشيد رضا الذي جمعه عنه وجدت أن كلامه يحوم حول هذا المعنى .

---

(٢) ينظر لسان العرب مادة ألك .

(٣) ينظر لسان العرب مادة ألك .

وأما المسلمون فإنهم متفقون كلهم على أن الملائكة عباد مكرمون ، خلقهم الله لطاعته ، وأكرمهم بما اسند إليهم من الأمور ، وكلفهم في أمور العالم يديرونه كله بأمره و علمه وقدرته سبحانه وتعالى والعلماء يبحثون في هذه المسألة غالباً في فضلهم ، فهناك من العلماء من فضلهم على صالح البشر ومن العلماء من فضل صالح البشر عليهم كالرسل ، والقول المعتمد في مذهب أهل السنة والجماعة هو أن الرسل أفضل من الملائكة(١) ووجهوا ذلك بأمور :

منها أن البشر يجاهدون في سبيل كبح نزوات نفوسهم ، لأن الله ركب فيهم الشهوة — شهوة الأكل والشرب والجماع والانتقام والبطش ، ونهاهم عن تعاطي بعض هذه الشهوات ، ومع هذا أطاعوا الله سبحانه وتعالى واستطاعوا أن يكبحوا جماح نفوسهم فمنعوها ، وهذا فضل كبير ، وأما الملائكة فإن الله لم يخلق فيهم شهوات حتى يكابدوها ، حتى يتبين هل يستطيعون كما يستطيع البشر الصبر ومقاومة الشهوة أو لا يستطيعون ، فكان البشر أفضل منهم من هذه الناحية ، ومن الأمور التي يستدل بها الذين يفضلون الملائكة على صالحي البشر قوله سبحانه وتعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون)(سورة النساء آية:١٧٢) فكون المسيح لا يستنكف أن يكون عبدا لله فكأنه أمر عادي لكنه قال : (ولا الملائكة) الذين هم أقوى منه وأقدر فإنهم أيضا لا يستنكفون عن عبادة الله سبحانه وتعالى .

وشارح الطحاوية رحمه الله ذكر عشرات الأوجه للذين يفضلون الملائكة على البشر ، وعشرات الأوجه للذين يفضلون البشر على الملائكة .

لكن من العلماء من يرى أن هذه المسألة لا فائدة ترجى من بحثها ، فلا يتعلق بها أحكام ولا يتعلق بها تكليف وهي تشغل الوقت فينبغي أن لا يشتغل بها .

وأما من يقول في تعريف الملائكة إنهم أجساد نورانية (٢) ، فهذا مأخوذ من عمومات النصوص ، يعني مفهوم ، كما فهم ابن القيم رحمه الله أن الروح عبارة عن جسم نوراني خفيف شفاف إلى آخره ، ومن أنهم يكونون موجودين في المجلس ولا يرون ، لكن ما فيه شيء ينص على هذا التعريف .

قوله : (والنبيين) أي ونؤمن بالنبيين ، والنبي مشتق إما من نبأ ، لأن الله ينبئه ، وإما من النَّبوة وهي المكان المرتفع من الأرض .

---

(١) ينظر حاشية الدرة المضية للشيخ ابن قاسم رحمه الله ص ١٣١ .

(٢) انظر بدائع الفوائد ٤/ ١٥٥٩ ت علي العمران .

لأنه إن كان من النبأ فالهمزة فيه أصلية : النبي : الياء فيه أصلها همزة ، ولذا يقرأ ورش عن نافع في جميع القرآن النبيين بـ (النبيئين) والنبي بـ (النبيء) على أساس أن الياء عند غيره منقلبة عن الهمزة .

وأما على التعريف الثاني أو الاشتقاق الثاني فتكون الياء هنا في (النبي) منقلبة عن واو (النبيوُ) لأنهم يقولون اشتقت من النبوة ، اجتمعت الياء والواو في كلمة ، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأصبح (النبيُّ) و (النبيين) .

والمتبادر والأرجح حسب ما قرأت أنه مشتق من النبأ الذي هو الإعلام ، لأن الله سبحانه وتعالى يعلمه وينبئه بالوحي وهو ينبئ الناس بذلك .

والنبي تارة يكون رسولا وتارة يكون نبيّاً فقط ، والنبوة والرسالة والرسول والنبي يتفقان تارة ويختلفان أخرى ، فالنسبة بين النبي والرسول هي العموم والخصوص المطلق ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، والنبي أعم مطلقاً والرسول أخص مطلقاً ، فالرسول لا يمكن أن يكون رسولا إلا وهو نبي ، لكن النبي قد يكون نبياً رسولاً وقد يكون نبياً وليس برسول ، من هذه الوجهة قلنا إن النسبة بينهما العموم والخصوص المطلق(١) .

والنبوة والرسالة لها براهين ودلائل ومعجزات وآيات ، ولهذا فرق العلماء بين ما هو خارق للعادة وبين معجزة الرسول ، وفرقوا بين الكرامة وبين معجزة الرسول ، فعرفوا كل واحدة من هذه بتعريف لا تدخل فيه الأخرى .

فالرسول لا بد له من آيات ، والمعجزة هي آية يظهرها الله ، يقيمها الله على يديه ليظهر بها صدق دعوته ، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بأن تكون المعجزة التي يأتي بها الرسول هي من الأمور التي تكون معظمة عند قومه ولها مكانتها في المجتمع ، لهذا لما كان قوم موسى الغالب عليهم والعالي مكانة عندهم السحر ، كان السحرة في ذلك الوقت لهم السلطان ولهم القوة ويستجيب لهم الشعب والحكام والعلماء وغيرهم ، فلما كانت هذه الظاهرة هي المتفوقة في عصر موسى عليه السلام كانت آيته من جنس تلك الظاهرة ، ولهذا لما تناظر هو وسحرة فرعون وجمعوا ما لديهم من قوة في السحر وسحروا أعين الناس أعطاه الله آية من جنس سحرهم لأنهم جعلوا الحبال والعصي ثعابين تضطرب حتى خاف الناس منها ، فالله سبحانه وتعالى أمره أن يلقي عصاه فصار حية عظيمة فاقت تلك العصي والحبال التي ألقاها السحرة بعشرات الأضعاف وابتلعتها وكانت هذه أعظم معجزاته ، وإلاّ فله معجزات أخرى ، آتاه الله تسع آيات ، لكن من أعظمها

---

(١) ينظر ص ٢٤ ، ٢٥

أو أعظمها جعل العصا حية التهمت آلات السحر التي جاء بها سحرة فرعون ، الأمر الذي جعل السحرة آمنوا ، لأنهم عرفوا أن أقصى ما يصل إليه السحرة قد جاءوا به فلما جاء ما هو فوقهم وغلبهم آمنوا بأن ذلك من عند الله وكفروا بفرعون وسحره .

وكذلك لما كان في عصر عيسى عليه الصلاة والسلام الطب شائعاً والطبيب له المكانة العليا في المجتمع جعل الله آياته من هذا الباب ، فجعله يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله .

وكذلك معجزة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ، فقد كان السائد في عصره وفي قومه الفصاحة والبلاغة والبيان ، فأعطاه الله هذا القرآن وهو أعظم معجزة أعطيها ﷺ فكانت هذه المعجزة التي هي أكبر معجزاته من جنس ما يتفاخر به القوم ويعظمونه كالبلاغة والفصاحة والبيان ، وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة لكن هذه هي أعظمها ، وهي التي تحدى الله بها قريشاً ، قال ائتوا بشيء قليل من مثل هذه المعجزة قال ائتوا بعشر سور مثله ، ثم قال ائتوا بسورة ، وكلها عجزوا ما جاؤوا لا بعشر سور ولا بسورة ، وانبهروا من القرآن واندحروا وعجزوا عن مقاومته ومعارضته .

فالله سبحانه وتعالى أجرى العادة بأن معجزات الأنبياء تكون مثل ما هو مشتهر في مجتمع قوم النبي الذي بعث فيهم .

والرسول (١) : ذكر آتاه الله خارقة وقرنها بالتحدي ، لأن التحدي شرط ، أما الخارقة فقد تأتي إما كرامة لبعض أولياء الله وإما خارق شيطاني ، لكن قرْنها بالتحدي هذا هو الذي يجعلها معجزة ، يأتي بأمر خارق للعادة ويتحدى الناس أن يعارضوه .

لذا يقول العلماء في تعريف المعجزة : هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي ، يجريه الله على يد عبد من عباده ، ويكون مدعياً للنبوة .

وهم إن اختلفوا في التعريف لكن هذه الفصول هي التي يجمعون عليها .

بخلاف الكرامة فإنها أمر خارق للعادة يجريه الله على يد أحد من عباده الصالحين ولكن لا يكون مقرونا بالتحدي .

وأما الخارق الشيطاني فهو أمر خارق للعادة يجريه الله على يد عبد لا يعرف بالصلاح ولا بالاستقامة ولا باتباع السنة ، بل يعرف بخلاف ذلك .

فهذه هي الخوارق و المخاريق الشيطانية ، وهذا هو الفرق بين الخارق الشيطاني والكرامة والمعجزة .

وما بعث الله من نبي إلا وأعطاه آية على مثلها يؤمن البشر ، يعني أعطاه آية تبهر العقول وتخرق العادة ويتحداهم بأن يأتوا بمثلها ، ولكنهم يعجزون .

---

(١) الشيخ هنا لم يرد هنا تعريف الرسول ، لكنه أراد التفريق بين الرسول والولي ليصل إلى تعريف المعجزة كما سيأتي .

والإيمان بالنبيين أحد أصول الإيمان ، فإن المسلمين أجمعوا على أن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بشر أوحى الله إليهم واصطفاهم الله واجتباهم واختصهم بوحيه ، أما من يسمون بفلاسفة الإسلام ، وكذلك الملحدون ممن يدعون الإسلام كالقرامطة والباطنية ومن يسمون بأهل التخييل ، فإن هؤلاء لا يقرون بنبوة الأنبياء ، وإنما يقولون هم رجال ذوو عبقرية(١) كبيرة ولديهم الشخصية المؤثرة ولديهم الإرادة والإدراك والتخييل الكامل وهم بهذه الصفات يخيلون على الناس أنهم رسل وإلا فهم ناس من الناس امتازوا عليهم بهذه الصفات .

فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أعطاهم الله قوة الإيمان وقوة الصبر وقوة التوكل على الله ، يظهر ذلك من قصة هود عليه الصلاة والسلام ، فهود عليه الصلاة والسلام رجل واحد بعث إلى قومه ودعاهم وكذبوه ونسبوه إلى الجنون وإلى السفه : (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلاّ اعتراك بعض ألهتنا بسوء) يعني أصابتك الآلهة بجنون وخبل ، ماذا قال ؟ هل خشي منهم وخاف ؟ (قال إني أشهد الله)

رجل واحد يتحدى امة : (واشهدوا أني برئ مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون)(سورة هود آية:٥٥-٥٣) لا تمهلون ، كل ما عندكم من كيد ، أنا برئ منكم وبرئ من شرككم وبرئ من عبادتكم ولا أعبد إلا الله ولكن أتحداكم بأن تجمعوا كل ما لديكم من سوء وبطش وعذاب وإيذاء وأن لا تمهلون ، كل ما لديكم ائتوا به ثم لا تنظرون ، علل قوة صبره وعدم اكتراثه بهم وبكثرتهم وبقوتهم علل ذلك بماذا ؟ (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم)(سورة هود آية:٥٦) وكل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم موقفهم هذا الموقف مع قومهم .

والرسول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام بعث إلى قومه رجلاً واحداً ليس له نصير ولا وزير ولا ظهير ولا معين ولاقى منهم أصناف العذاب وأنواع النكال والتسفيه والضرب والتجهيل والحبس والنفي ومع هذا صبر ولم يتأثر بشيء من ذلك حتى أظهره الله عليهم ونصره عليهم وأصبح الأمر له ودحروا و انخذلوا ، وهكذا طريقة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم .

---

(١) ولهذا درج بعض المعاصرين بوصف النبي عليه الصلاة والسلام بالعبقرية ، وسموا بعض مؤلفاتهم بذلك ، مع أن الرسالة أعلى ما يمدح به الرسل ، أما العبقرية والذكاء وغيرهما فإنها من ضمن الرسالة .

(والكتب المنزلة على المرسلين ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين)

الشرح : الكتب هي الوحي الذي ينزله الله على أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، كالتوراة والإنجيل والقرآن والزبور وصحف إبراهيم وموسى وغيرها ، لأن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسله كتباً منها ما بينه الله لنا ومنها ما خفي علينا .

فمذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة الإيمان بجميع ما أنزل الله على رسله إجمالاً ما عدا الذي أنزل على مُحَمَّد ﷺ فإنه يجب الإيمان به تفصيلاً.

فنؤمن بأن الله أنزل على موسى التوراة وأنزل على عيسى الإنجيل وعلى داود الزبور وعلى إبراهيم و موسى الصحف ، لكن هناك فرق بين الإيمان بالكتب المنزلة السابقة وبين الإيمان بالكتاب الذي أنزله الله على نبيه ﷺ ، فإن ما عدا القرآن نؤمن به ولا يلزمنا العمل به إلا إذا أيده كتاب الله أو شرع نبينا مُحَمَّد ﷺ ، فنؤمن بأن الله أنزل على موسى كلاماً هو التوراة ونؤمن بأن الله أنزل على عيسى كلاماً هو الإنجيل ونؤمن بأن الله أنزل على إبراهيم وموسى كلاماً هو الصحف ، وليس إيماننا بالإنجيل كإيمان النصارى فإن النصارى يؤمنون بالإنجيل ويدعون إليه ولكن لا يقولون إنه كلام الله ولا يعتقدون أن الله الذي تكلم به بل هو كلام الرسل والرسل عندهم يوحنا ومرقص ومتى وبولس هؤلاء هم الذين ينشئون الكلام ، فلا يدعون أن هذا الكلام نزل على عيسى وإنما يدعون أنهم علموا عن عيسى هذه الآداب والأخلاق والأمور التي يزعمون أنها في الإنجيل ، وأن عيسى علم تلامذته هذه النصائح وهذه المواعظ .

فالرسل عند النصارى رجال أو على الأصح تلاميذ لعيسى عليه الصلاة والسلام ، أما نحن فإيماننا بالرسل ليس كإيمان هؤلاء بل نؤمن بأن الله تعالى نزّل على رسله كلاماً إما تكليماً كما كلم موسى أو عن طريق رسل الملائكة كجبريل ، و إيماننا بالكتب السابقة إيمان مجمل ، فنؤمن بأن الله أنزل كتبا نقطع بأنها محرفة لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا في كتابه العزيز بأنهم (يحرفون الكلم) والأمثلة على هذا كثيرة في الكتاب والسنة .

أما إيماننا بالكتاب العزيز فهو أعم من ذلك ، نؤمن به كتاباً من عند الله ونؤمن به شرعاً نتبعه ونتقيد به ، فنحن مكلفون بأن نؤمن بأن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى نزله على نبيه صلى الله عليه وسلم ومكلفون بأن نؤمن ونعتقد بأنه يجب علينا العمل بما جاء في القرآن ، أما الكتب السابقة فلا يلزمنا ذلك – يلزمنا أن نصدق بها وأنها نزلت على رسل الله إجمالا ، وأن لله كتبا يخفي علينا علمها كما أن له رسلاً كذلك ، منهم رسل قصهم الله على نبيه ومنهم رسل لم يخبر بهم

نبيه عليه الصلاة والسلام كما قال (رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك)(سورة النساء آية: ١٦٤).
وكذلك نؤمن بأن من كتاب الله ما يجب العمل به وأن آيات نزلت على النبي ﷺ نسخ العمل بها ، كما قال سبحانه وتعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)(سورة البقرة آية:١٠٦).

والنسخ حق يجب الإيمان به ، أما اليهود فإنهم ينكرون النسخ ويقولون النسخ لا يمكن ، إذا حكم الله بحكم فلا يجوز أن ينسخه لأنه لو قلنا بأن الله ينزل آية أو ينزل حكماً ثم ينسخه للزم من ذلك أن يكون بدا رأى آخر ، كان يرى أن الحكم كذا ثم نسخه ، بمعنى أن عواقب الأمور قد خفيت عليه ، فعلم أنه أخطأ فشرع حكما آخر كما يقولون ، وهذا باطل من عدة وجوه :
من أوضحها أن الله سبحانه وتعالى ينزّل الشريعة والأحكام حسب الظروف وحسب المقتضيات ، فقد يوحي إلى نبيه بحكم في وقت وتنتهي مصلحة ذلك الحكم فينسخه بحكم آخر ، كما أنه سبحانه وتعالى أوجب على الصحابة في الغزوات في أول الأمر مصابرة الواحد منهم للعشرة من الكفار يبرز إليهم كما قال سبحانه وتعالى (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين)(سورة الأنفال آية:٦٥) ثم بعد ذلك لما ضعفت شوكت الكفار وكثر الصحابة وزالت العلة المقتضية نسخ هذا الحكم بأخف منه كما قال عز وجل : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين)(سورة الأنفال آية:٦٦) الواحد يغلب اثنين ، فالله سبحانه وتعالى يشرع الحكم لمصلحة فإذا زالت المصلحة المقتضية نسخه بحكم آخر .
وبعضهم يقول إن النسخ يعتبر تخصيصا للحكم ، لكن التخصيص غير النسخ ، فالله سبحانه وتعالى نسخ استقبال بيت المقدس باستقبال الكعبة ، فهل يقال هذا تخصيص للحكم الأول ، ومن اطلع على تعريف النسخ تبين له أن النسخ معناه النقل والإزالة .
والذي يجب علينا العمل به من كتاب الله هو المحكم ، أما المنسوخ فباتفاق المسلمين أنه لا يجب علينا العمل به وأن حكمه غير باق .

(ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين)

الشرح : هذا فيما يتعلق بمسألة الأسماء والأحكام .

قوله : (أهل القبلة) من دان بدين النبي ﷺ وصلى إلى القبلة ، ثم من دخل في الإسلام فهو من أهل القبلة ، كما جاء في الأثر : (من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا) (١).

ومسألة من هو المسلم الكلام فيها طويل ، الآن المسلمون في العالم يقولون إن تعدادهم مليار ، إذاً المسلمون ألف مليون مسلم ، لكن المسلم ليس هو من يدعي الإسلام فقط ، وليس هو من في حفيظته أو جوازه مسلم ، بل المسلم هو من أدى أركان الإسلام وأركان الإسلام هي الشهادتان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام ، هذه الأركان الخمسة هي علامة المسلم ، من أتى بها فهو المسلم كما في حديث جبريل الطويل لما سأل رسول الله ﷺ قال أخبرني عن الإسلام ، ما معنى الإسلام ، أخبرني عن الأمر الذي إذا فعله الإنسان صار مسلماً ، فقال عليه الصلاة والسلام : (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَّداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت)(٢) هذا هو المسلم ، إذا لم يفعل مع هذه شيئاً ينقض إسلامه ، ولا نقول من أتى بهذه كلها فهو مسلم دائماً ، فقد يكون يشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَّداً رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت ولكنه كافراً ، بمعنى أنه قد يفعل شيئا من المكفرات ، وإذا فعل شيئا من المكفرات كفر ، ولو كان يأتي بأركان الإسلام ، لأن هذه الأركان ثبوتها للإنسان له ضوابط وله شروط ، والنبي ﷺ علق عصمة دم المرء المسلم بأركان الإسلام (٣) ، كما قال عليه الصلاة والسلام في إحدى روايات الحديث قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)(٤) ولم يقل : أمرت أن أقاتل الناس حتى يكتبوا في حفائظهم أو هوياتهم (مسلم) .

---

(١) رواه البخاري (٣٩١) والنسائي (٤٩٩٧) .

قال ابن سحمان رحمه الله معلقا على هذا الحديث : هذا فرضه ومحله في أهل الأهواء من هذه الأمة ومن لا تخرجه بدعته من الإسلام . الدرر السنية ١٠ / ٤٣١

(٢) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) .

(٣) سيأتي ص ١١٧ الكلام على حل دم المسلم إذا أوجب الشرع ذلك ، كما في حديث : (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ..) الحديث .

(٤) رواه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢) .

وإن كان سواد المسلمين كثيراً إلا أنهم قليل ، لأن هناك من يصلي ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت ولكنه يحكم بالقانون – يحكّم الطاغوت – يجعل الدستور الذي يسير عليه في حكمه هو القوانين وهذا كافر .

فمن حكم القوانين الوضعية وظن أنها تقوم مقام حكم الله ورسوله فهو كافر حتى لو صلى وصام وشهد أن لا إله إلا الله ، وهذا البلاء والعياذ بالله عام في حكام المسلمين ، كل حكام المسلمين يحكمون بالقانون ، لكن منهم من يطبق القانون في كل شيء ما عدا مسائل تعد على الأصابع مثل الأحوال الشخصية كالنكاح وغيره ، بل حتى الطلاق يطبقونه على القانون ، ومنهم من يحكم الشريعة الإسلامية في بعض مجالات الحياة ويحكم القانون في الكثير ، تجد الحاكم مسلماً يصلي ويصوم ولكنه يضع للعمال محكمة قانونية يتحاكمون إليها ويضع لفضّ النزاع والمخاصمات التجارية محكمة يتقاضون إليها ، ويمنع قضايا من أن تحال إلى المحاكم الشرعية ، فيمنع أن تحيل قضية من قضايا البنوك أو من قضايا المصارف أو من قضايا العمال أو غير ذلك – يصدر قوانين بمنعها من إحالتها إلى المحاكم الشرعية ، لكنه يدع الأمر إذا اعتدى إنسان على إنسان بضرب أو بمال أو بنحو ذلك ، وما يمانع أن يحال إلى المحاكم الشرعية .

الحاصل أن من حكام المسلمين من يحكمون القوانين مطلقاً ومنهم من يحكم القوانين في معظم أموره ويحكم المحاكم الشرعية في بعض المسائل التي تقع بين الناس ، والمكفرات كثيرة .

وقوله : (مسلمين مؤمنين) هذا على أصل المؤلف رحمه الله ، فإنه من مرجئة الفقهاء لا فرق عندهم بين الإسلام والإيمان ، لأن الإيمان التصديق فلا يجعلون العمل داخلاً في مسمى الإيمان ، ولهذا المسلم مؤمن كامل الإيمان ولو كان مقصراً عاصياً ، ولا يختلف الناس عندهم في الإيمان ، إنما الاختلاف في التقى والفضل ،كما سيأتي قول الماتن (وأهله في أصله سواء)(١) أي في الإيمان ، فأصل الإيمان عند الناس سواء كلهم واحد .

والراجح في مذهب أبي حنيفة في مسمى الإيمان أنه التصديق فقط ، وهو شيء واحد وجزء لا يتجزأ ، لكن لما كان التصديق لا يعرف إلا بالنطق باللسان قالوا : النطق باللسان ركن وليس جزء من الإيمان (٢) ، لأنه لا يُعرف هل هو مصدق بالله أو ليس بمصدق ، أما العمل عندهم فإنه أطلق على الإيمان مجازا .

---

(١) انظر ص ١٠٥ .

(٢) يأتي مزيد بيان إن شاء الله ص ١٠٥ .

وهم بهذا لا يُخرَجون عن أهل السنة ، لأنهم يرون وجوب العمل ، فيرون وجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ويرون أنها يعاقب عليها تاركها في الدنيا والآخرة لكنهم لا يسمونه إيمانا فلا يسمى تاركها كافرا بل مؤمنا .

أما تارك الصلاة عند الإمام حنيفة رحمه الله لو تركها عمداً بدون عذر فإنه لا يقتل بل يحبس حتى يتوب ويصلي أو يموت ، هذه عقوبته ، أما الأئمة الثلاثة فغير خافٍ أنهم يوجبون قتل تارك الصلاة سواء أكان قتله حداً كما يراه الإمام مالك والشافعي أو ردة وكفراً كما هو مذهب أحمد رحمه الله وكثير من السلف .

الحاصل أن جمهور أهل السنة والجماعة لا يسمون المسلم مؤمناً دائماً بل قد يكون مسلماً كامل الإيمان وقد يكون مسلماً ناقص الإيمان .

والإسلام له تعريف في اللغة وله تعريف في الشرع .

فتعريفه في اللغة : الذل والخضوع .

وتعريفه شرعا : فهو مع الذل والخضوع – امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، كما قال عليه الصلاة والسلام : (ما منكم إلا وله قرين من الجن وقرين من الملائكة) ، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : (وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم)(١).

لأجل الفرق بين المعنى اللغوي للإسلام والمعنى الشرعي للإسلام اختلف شرّاح الحديث في معنى (أسلم) ، فمنهم من قال : أي استسلم لي وخضع وذل ، ومنهم من فسره بالإسلام الشرعي أي فدخل في الإسلام ، قالوا : ويؤيد هذا قوله : (فلا يأمرني إلا بخير) وأظن فيه رواية بالضم (فأسلمُ) ذكرها – أظن – عياض في شرح صحيح مسلم ، وإلا فمعظم الروايات (فأسلمَ) أي فاستسلم وذل وخضع ، ولكن : (فأسلمُ) هذه تبين أنه يسلم من قرينه لا أن قرينه دخل في الإسلام .

ويبين لك الفرق بين الإسلام والإيمان قوله سبحانه وتعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)(سورة الحجرات آية:١٤) فبين أن الإسلام اللغوي غير الإيمان :(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا)أنتم لم تؤمنوا بعد ولكن قولوا : استسلمنا وخضعنا وذللنا وأنقدْنا فقط. ويأتي الكلام على الإيمان في موضوعه إن شاء الله في بيان حقيقة الإيمان والفرق بين اللغوي والشرعي واختلاف العلماء في حقيقته ومذاهبهم .

(١) رواه مسلم (٢٨١٤) وأحمد في مسنده (٣٦٤٨) وغيرهما .

قوله : (ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين) ، الاعتراف غير التصديق ، الاعتراف يعنى انه يعرف ذلك ويعترف و يقر به ، فإن الإنسان قد يعرف الشيء وينكره يجحده ، والتصديق : إذا كان مصدقاً بالشيء فهو عارف به .

وقوله : (وله بكل ما قال وأخبر مصدقين) هم معترفون بصدق النبي ﷺ معترفون بأن ما قاله حق ، ويصدقونه في أخباره وأحكامه ، وقد يكون معنى معترفين و مصدقين متقارب .

ولو قال : عارفين لكانت هي التي يفسر الجهم بن صفوان وأتباعه الإيمان بها ، يقول : الإيمان هو المعرفة فقط ، إذا عرف الإنسان ربه فهو مؤمن كامل الإيمان حتى لو كفر بالله وحتى لو أنكر الشرع وأنكر كل شيء ، ما دام عارفا فهو مؤمن إيماناً تاما .

(ولا نخوض في الله)

الشرح : الخوض معناه الشك والريب والاختلاف والمخاصمة والمنازعة ، وهذا يعني أننا لا نتمحل في الجدال والمراء مع الآخرين فيما يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى ، بل نؤمن به وننزهه عن كل مالا يليق به ، ونثبت له ما يستحقه من الكمال ، ولا نقول إنه ليس بكذا ولا كذا ولا فوق العالم ولا تحت العالم ولا كذا كذا ، يعني لا نخوض في الله في كلام يلزم عليه ضلال أو ابتداع أو فساد ، فنقتصر في الكلام في الله وأسمائه وأفعاله وذاته على ما ورد في القرآن والحديث ولا نخوض كما خاض فيه الأعداء من جهمية ومعتزلة وغيرهم ، الذين دخلوا في متاهات هلكوا وضلوا فيها ، كاستعمالهم السّلوب المفصلة والفلسفة التي ليس لها نهاية ، بل نهايتها الضلال ونهايتها العدم ، لا نكون كهؤلاء بل نسلم لله ولرسوله من غير إن نجادل أو نماري أو نخوض في ذلك .

ومعنى كلام المؤلف أنه يبرأ من الجهمية والمعتزلة و الأشاعرة وغيرهم .

(ولا نماري في دين الله ولا نجادل في القرآن)

الشرح : المراء معناه الجدال الذي يقصد منه الانتصار للنفس أو الانتصار للمذهب الضال أو الباطل أو المبتدع ، كل هذا لا نماري فيه ولا نجادل ، والمراء لا يكون إلا باطلا .

والجدال قد يكون بحق كما قال تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم)(سورة العنكبوت آية:٤٦) ، وقد يكون باطلا إن كان من باب المراء والتعمق والتنطع والتقعر والانتصار للمذهب .

أما الجدل ففيه تفصيل ، وخلاصة التفصيل إن كان الجدل المراد به التمحل والتعصب للرأي والمراء والظهور على الخصم سواء أكان حقاً أو باطلاً فهذا ممنوع شرعاً ولا يجوز ، وإن كان المراد به هو المناقشة بقضية من القضايا والتّحاج فيها ، كل واحد من المتعارضين في الرأي يحتج على رأيه حسب ما يرى أنه حق إذا كان غرض المتجادلين كليهما إظهار الحق وإحقاقه إذا لم يصحب الجدال سب أو شتم أو تكبر على الآخر فهذا جائز كما قال تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم)(سورة العنكبوت آية:٤٦) كأنه يقول : جادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن ولا تجادلوهم بالطرق الأخرى ، فكذلك أخوك المسلم من باب أولى أن يكون جدالك معه هو طلب لإظهار الحق وإحقاقه ، وبعض المتجادلين يحاول إظهار رأيه ومسلكه ومنهجه وظهوره على خصمه سواء أكان حقاً أو باطلاً وهذا لا يجوز ، لأن هذا تعدٍ على الغير والتعدي ممنوع لا يجوز ، يعني كونك تحاول أن تظهر على أخيك بحجتك إن كنت في خصومة أو بدليلك وتأييد قولك إن كنت مجادلاً وأنت تعلم إن ذلك ليس بحق أو تعلم أنك غير محق فهذا لا يجوز كما قال ﷺ فيما يتعلق بالخصومات : (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها)(١) ، يقول عليه الصلاة والسلام قد يكون أحدكما أيها المتخاصمان أفصح من الآخر وأقدر على الكلام والإقناع ، فلا يغره ذلك ويظن أن فعله ذلك يحلل له ما أحكم به له فإنما أقطع له قطعة من نار فليأخذها أو ليدعها ، وكما قال عليه الصلاة والسلام : (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)(٢) ، يعني اللّسِن القادر على الظهور على خصمه ولو باطلاً .

قوله : (ولا نجادل في القرآن) يحتمل أنه يريد لا نجادل في القرآن أي هل هو مخلوق أو غير مخلوق ، وهل هو اللفظ والمعنى أو المعنى دون اللفظ أو ما أشبه ذلك .

ويحتمل أنه بمعنى ألاّ نعارضه ونلتمس الأمور التي تكون متعارضة معه في الظاهر كما يفعله أعداء الإسلام من علمانيين وغيرهم .

ويحتمل أنه يريد ألا نجادل في القرآن أي لا نماري فيه ونلتمس الأمور التي نجعلها كمعارضة للقرآن ، والملاحدة معروف أنهم يعارضون القران ويلتمسون ذلك من كل حدب وصوب ، كما نقل عن

(١) رواه البخاري (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣)

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٧) ومسلم (٢٦٦٨)

أبي العلاء المعري الذي عارض قطع اليد بقوله :

يد بخمس مئين عسجد وديت * ما بالها قطعت في ربع دينار**

تناقض ما لنا إلا السكوت له * وأن نعوذ بمولانا من النار(١)**

وهذا من الجدال الذي نهى عنه أو نفاه المؤلف .

(ونشهد أنه كلام رب العالمين)

الشرح : هذه العبارة كل المسلمين يقولونها ، الجهمية، المعتزلة، الأشاعرة، أهل السنة والجماعة، كلهم يقولون نشهد أن القرآن كلام الله ، لكن هل معنى كلام الله أي تكلم به سبحانه وتعالى بحرف وصوت وسمع منه ، أو أنه كلام الله بمعنى أنه مخلوق من مخلوقات الله كما تقول الجهمية والمعتزلة .

الجهمية والمعتزلة يقولون القرآن كلام الله لكن يعنون بذلك أنه كلامٌ خلقه الله ، كما تقول : عباد الله وكما تقول أرض الله وكما تقول بيت الله وكما تقول ناقة الله يعني أنه مخلوق خلقه الله ، أي إضافة مخلوق إلى خالقة ، وهم يعبرون بهذه العبارة ، لكن يفسرونها بما لا يليق وبما لا يتفق مع ما يراه أهل الحق وأهل السنة والجماعة .

والأشاعرة والكلابية والماتريدية يقولون القرآن كلام الله ، ويعبرون بعبارة المؤلف أنه كلام الله لكنهم يعنون بذلك أن معنى القرآن هو كلام الله ، أما الحروف والأصوات فإنها مخلوقة ، لكن هل كلام الله عندهم اللفظ والمعنى والحروف والأصوات ، أو كلام الله بعض ذلك ؟ يقولون كلام الله بعض ذلك ، المعنى القائم بذاته سبحانه وتعالى هو الكلام ، أما ما سمعه النبي ﷺ من جبريل فهو كلام جبريل ، اللفظ لفظ جبريل والأصوات أصوات جبريل والحروف التي صدرت عن جبريل ، ويقولون إن الله لا يتكلم بكلام يسمع ، وهذا باطل لأنه يعارض كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

---

(١) قال الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان (٣ / ٤٣١) عن شعر المعري :

وللعلماء عنه أجوبه كثيرة نظماً ونثراً . منها قوله القاضي عبد الوهاب مجيباً له في بحره ورويه :

عز الأمانة : أغلاها ، وأرخصها *** ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

وقال بعضهم : لما خانت هانت . ومن الواضح : أن تلك اليد الخسيسة الخائنة لما تحملت رذيلة السرقة وإطلاق اسم السرقة عليها في شيء حقير كثمن المجن والأترجة ، كان من المناسب المعقول أن تؤخذ في ذلك الشيء القليل ، الذي تحملت فيه هذه الرذيلة الكبرى .

وأما أهل الحق فإنهم يقولون القرآن كلام الله كما قال المؤلف رحمه الله ، ويعنون بذلك اللفظ والمعنى والحرف والصوت ، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله : (هو كلام الله حروفه ومعانيه ليس الكلام الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف)(١)، فليس الكلام الحروف دون المعاني كما يدعيه قوم ، أو حروف وأصوات خلقت في الأزل ، ولا المعاني دون الحروف كما تقوله الأشاعرة ومن وافقهم ، بل الكلام كله معناه ولفظه وأصواته وحروفه كلها كلام الله .

والقرآن أبدى وأعاد في هذا المعنى كما قال عز وجل : (فأجره حتى يسمع كلام الله)(سورة التوبة آية:٦) ، وكذلك قوله : (فلما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)(سورة الأعراف اية:١٤٣)وقوله : (وكلم الله موسى تكليما)(سورة النساء آية:١٦٤) ، وكذلك في سورة الفتح آيات تدل على هذا وهي صريحة في الدلالة كما قال عز وجل : (يريدون أن يبدلوا كلام الله)(سورة الفتح آية:١٥) والنبي ﷺ ذكر ذلك صريحاً في مواضع كثيرة كما في حديث عبدالله بن أنيس أنه قال (يحشر الله الخلائق يوم القيامة عراة حفاة غرْلا بهما، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديّان)(٢) ، فذكر النداء والصوت ولم يقل إنه يفهم جبريل ما في نفسه فيتكلم جبريل ، وكذلك قوله ﷺ : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله)(٣) .

فالقرآن والسنة كلاهما مملوءان من النصوص الصريحة الصحيحة التي لا تحتمل إلا أن القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود وأنه منزل غير مخلوق ، وهذا مذهب سلف الأمة ما عدا ما ذكر من الفرق الضالة التي انحرفت عن هذا المنهج كالجهمية والمعتزلة ، وهؤلاء الرد عليهم وإفحامهم واضح .

كما فعل ذلك عبد العزيز الكناني رحمه الله عندما قال للمريسي :

أنت تقول إن الله خلق كلامه . قال نعم .

قال : اجبني عن أمور ثلاثة لا رابع لها :

إذا سلمنا لك جدلاً أنه خلق كلامه ، هل خلقه في ذاته الكريمة ، أو خلقه في مكان غير ذاته الكريمة ، أو خلقه لا في مكان ، ولا هناك قسم رابع ؟

---

(١) انظر العقيدة الواسطية في باب كلام الله تعالى .

(٢) ذكره البخاري في صحيحه معلقا بعد حديث (٧٧) ووصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٣٥٥/٥) ورواه البخاري أيضا في خلق أفعال العباد ص ٩٩ ، ورواه في صحيحه بلفظ آخر (٧٤٨٣) ، وفي الأدب المفرد (٩٧٠) ورواه احمد في مسنده (١٦٠٤٢) بسند حسن .

(٣) رواه البخاري (٤٨٠٠) وابن ماجه (١٩٤) .

وهذه كما تعلمون طريقة من طرق الجدل والمناظرة تسمى بالسبر والتقسيم ، والقسمة هنا عقلية صحيحة ، فلما أفحمه وألقمه الحجر قال المريسي :

أقول : خلقه كما يخلق الأشياء .

قال : لا بد أن تجيبني بواحد من هذه الأمور الثلاثة وإلا فأنت انقطعت .

فقال : أنا أقول خلقه كما يخلق الأشياء .

فقال المأمون يا عبد العزيز : انقطع المريسي ، لكن اشرح لنا كلامك هذا .

فقال يا أمير المؤمنين : لو قال خلقه في ذاته الكريمة لكفر لأن المسلمين مجمعون بأن الله سبحانه وتعالى لا يكون محل الحوادث ، وأن من قال ذلك فهو كافر ، ولو قال خلقه في مكان آخر لطالبناه بالفرق بين كلام الله وكلام الإنسان ونبيح الكلاب ونهيق الحمير ونحو ذلك لأن كلها أصوات خلقها الله في ذوات أخرى أو في أمكنة أخرى ، فأي فرق بين كلام الله وبينها ، وأي ميزة لكلام الله عليها ، ولو قال : إن الله خلقه لا في مكان ولا أظنه يقوله لأن العقلاء مجمعون على أن كل مخلوق لا بد أن يكون له مكان وليس هناك مخلوق لا يكون في مكان ، فانقطع المريسي بهذه الطريقة (١) .

الحاصل أن بيان حقيقة كلام الله سبحانه وتعالى للناس فيه عدة أقوال :

القول الأول : مذهب أهل السنة والجماعة والسلف الصالح من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى الذين اتبعوهم ، هؤلاء يقولون إن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود ، والقرآن هو كلام الله معنى ولفظاً وحروفاً وأصواتاً ، ومن أدلتهم ما سبق .

القول الثاني : قول الأشاعرة والكلابية و الماتريدية ، يقولون إن كلام الله المراد به والمنسوب إليه هو عبارة عن المعنى القائم بنفسه ، يقولون إذا أراد الله استفهاماً أفهم جبريل أنه يريد ذلك فتكلم به ، وإذا أراد الله أمراً أفهم جبريل أنه يريد ذلك فتكلم به ، وإذا أراد الله نهياً أفهم جبريل أنه يريد ذلك فتكلم به ، ويستحيل على الله أن يتكلم بكلام يسمع ، يقولون لأن الكلام يحتاج إلى أسنان ويحتاج إلى شفتين ويحتاج إلى حلق ويحتاج إلى كذا ويحتاج إلى كذا وهذه خاصة بالمخلوقين .

ولكن هذه الشبهة التي يلبسون بها على الناس أجاب علماء السلف عنها بقولهم :

إن الكلام الذي يحتاج إلى هذه الأمور هو كلام المخلوق أما كلام الخالق سبحانه وتعالى فإن كلامه لا يحتاج إلى هذه الأمور ، فهو يتكلم بأي طريقة أرادها .

---

(١) ذكر الشيخ رحمه الله هذه القصة مختصرة مع شيء من الشرح ، وتجد نصها في كتاب الحيدة لعبدالعزيز الكناني ص ١٢٦ تحقيق د. جميل صليبا .

وأيضاً فإنه يمكن صدور الكلام بدون هذه الآلات كلها في المخلوقات ، فمثلاً قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين)(سورة فصلت آية:١١) قالتا ، فهل للأرض لسان وأسنان وشفتان وحلق ، وهل للسماء شيء من ذلك ، وكذلك أشياء أخرى تكلمت مثل الجذع الذي تركه النبي ﷺ لما فقده حن له(١) ، والجذع ليس له هذه الآلات ، وعلى كل فكثير من المخلوقات أخبر الله عنها ورسوله أنها تقول وتتكلم ومع هذا ليس لها هذه الآلات ، فقولهم لا يجوز على الله الكلام لأنه يلزم عليه هذه الأمور قول باطل :

أولاً : لأن الله لا يقاس بخلقه وإن كان المخلوق محتاجاً إلى مثل هذا .

وثانياً : أن هناك مخلوقات يمكن منها الكلام من غير أن تكون لها هذه الآلات .

(نزل به الروح الأمين فعلمه سيد المرسلين مُحَّداً)

الشرح : نزل به الروح الأمين جبريل عليه الصلاة والسلام فعلمه سيد المرسلين مُحَّداً

وطريقة الوحي إلى النبي ﷺ مختلفة ليست هي بطريقة واحدة ، جبريل يأتي تارة في صورة رجل ويبلغه الوحي ، وتارة ينفث في روعه الكلام ، وعلى كل فالوحي له عدة طرق وقد تكلم عليها السيوطي كلاما جيداً في الإتقان بطريقة مفيدة جداً ، وكتاب الله سبحانه وتعالى بين أن جبريل نزل به على النبي ﷺ: (نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين)(سورة الشعراء آية:١٩٤-١٩٣) وقال (علمه شديد القوى)(سورة النجم آية:٥) وذكر أنه قول جبريل في بعض الأحيان (إنه لقول رسول كريم * ذي قوة)(سورة التكوير آية:٢٠-١٩) بمعنى أنه جاء به للنبي ﷺ وبلغه إياه قولاً ، أي كلمه مشافهة ، والفرق بين هذه الآية وبين آية الحاقة (إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون)(سورة الحاقة آية:٤١-٤٠) المراد بالرسول هناك مُحَّد ﷺ ، والمراد به هنا في سورة التكوير جبريل ، وعلمه النبي ﷺ بأي طريقة من طرق الوحي .

(وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين ، ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين)

الشرح : نعم ، لأن من قال بخلق القرآن فهو مخالف لجماعة المسلمين مخالف لأهل السنة والجماعة ، والسلف الصالح الذين منهم الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون لهم بإحسان ، والمؤلف يرى أن القول بخلق القرآن خرق للإجماع لأنه لا يَعتبر إجماع المعتزلة والجهمية .

---

(١) رواه النسائي (١٣٩٦) واحمد في مسنده (١٤١٤٢) وعبدالرزاق في المصنف (٥٢٥٤) بإسناد صحيح.

(ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب)(١)

الشرح : أهل السنة والجماعة من قواعدهم أنهم لا يكفرون بالذنوب ما لم تكن الذنوب مكفرة بمقتضى نص شرعي ، أو ما لم يستحل المرتكب للذنب ذنبه ، هذه قاعدة يسير عليها أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً ، وهذه المسألة للناس فيها أربعة مذاهب .

المذهب الأول : هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الإنسان المسلم لا يخرج من الإسلام ولا من الإيمان بمقتضى ذنب يرتكبه ما لم يكن ذلك الذنب مكفراً أو ما لم يستحله ، وهذا أدلته كثيرة في الكتاب والسنة ، ونصوص القرآن بتسمية العاصي أو الفاسق مؤمناً كثيرة ، والحديث عن النبي ﷺ فيه كثير أيضا ، ومن أقوى ما يستدل به أهل السنة والجماعة على أن المعاصي لا توجب الكفر وأن الإنسان لا يخرج من الإسلام والإيمان بمقتضى الذنب قوله سبحانه وتعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله)(سورة الحجرات آية:٩) وقوله : (إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم) (سورة الحجرات آية:١٠) فجعل الفئة الخارجة على الفئة الأخرى – سواء أكانت الفئة الدولة أو فئتان من المسلمين اقتتلوا فالخارج مرتكب لذنب كبير ومع هذا عدَّه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز مؤمنا ، فأهل السنة والجماعة لا يخرجونه من الإيمان بمقتضى الذنب وإنما يحكمون عليه بنقص الإيمان ، ويقولون مؤمن ناقص الإيمان أو يعبرون عنه بقولهم : مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، وهذا مقتضى النصوص .

والنبي ﷺ أتي برجل قد شرب الخمر فقال : (اضربوه) ، قال أبو هريرة ﷺ : فمنّا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه ، فلما انصرف قال بعض القوم : أخزاك الله ! قال :(لا تقولوا هكذا لا تعينوا الشيطان على أخيكم)(٢) رجل سكران وحُدَّ ومع هذا عده عليه الصلاة والسلام أخاً للذي سبه أو شتمه أو قذفه ، فدل ذلك على أن الذنب لا يخرج به المسلم والمؤمن من الإيمان.

---

(١) الطحاوي رحمه الله أراد هنا أن يرد على الخوارج القائلين بالتكفير بالكبائر ، وابن أبي العز نقل امتناع كثير من الأئمة من إطلاق قول الطحاوي هذا ، قال رحمه الله : بل يقال : لا نكفرهم بكل ذنب (الشرح ص ٤٣٣ ت التركي) . مع انه سيأتي بعد قليل قول الطحاوي (ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه) وهذا إرجاء واضح مخالف لمذهب أهل السنة كما سيأتي تبيين الشيخ حمود لذلك ، ولهذا فقد ميز الشيخ هنا قول أهل السنة بأنهم لا يكفرون بالذنوب مالم تكن الذنوب مكفرة ، وهذا قيد مهم .

(٢) رواه البخاري (٦٧٨١) وأبو داود (٤٤٨٧)

وكذلك قوله سبحانه وتعالى (فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان)(سورة البقرة آية:١٧٨) هذه الآية الكريمة عدت القاتل أخا لولي القصاص ، ولا معنى للأخوة هنا إلا أخوة الإسلام والإيمان .

الحاصل أن النصوص مستفيضة في تأييد مذهب أهل السنة والجماعة في أن المسلم إذا ارتكب معصية لا يخرج بها من الإيمان بل ينقص إيمانه بقدر ذلك الذنب وأدلة هذا كثيرة .

بعض فرق المعتزلة يسمون العاصي فاسقاً ولكن ليس حكمهم كحكم أهل السنة عليه بالفسق ، فهم يسمونه فاسقا تسمية فقط ، وفي الدنيا يحكمون عليه بحكم الإسلام بالأحكام الظاهرة ، وأما في الآخرة فهو مخلد في النار سواء سموه فاسقاً أو سموه بمنزلة بين المنزلتين .

المذهب الثاني : الخوارج والمعتزلة ، وإن كان بينهما بعض الفروق إلا أن مؤدى مذهبهم واحد في الآخرة ، فالخوارج يحكمون على مرتكب الكبيرة بالكفر والخروج من الإيمان في الدنيا والخلود في النار في الآخرة ، والمعتزلة يحكمون عليه بالخروج من الإيمان في الدنيا ولكن لا يحكمون عليه بالكفر بل يقولون إنه خرج من الإيمان وبقى في مرتبة بين الكفر والإيمان يسمونها المنزلة بين المنزلتين ، وهذا أصل من أصول المعتزلة .

والمعتزلة أصول الدين عندهم خمسة كما لا يخفى على الكثير :

١ – التوحيد .

٢ – والعدل .

٣ – والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٤ – وإنفاذ الوعيد .

٥ – والمنزلة بين المنزلتين ، و هي خروج العاصي بمعصيته من الإيمان وبقاؤه بمنزلة دون الكفر ، هذه نقطة الخلاف بين الخوارج والمعتزلة ، الخوارج والمعتزلة متفقون كلهم على أنه يخرج من الإيمان بمجرد ارتكابه للمعصية ، لكن الخوارج يوافقونهم على هذا ويخالفونهم في الحكم عليه بعد خروجه من الإيمان ، يقولون بأنه بخروجه من الإيمان دخل الكفر وأصبح كافراً حلال الدم والمال .

أما المعتزلة فيقولون كذلك ولكن يجعلونه في طبقة من النار – أعوذ بالله – أخف من عذاب الكافرين ، ولا دليل لهؤلاء الخوارج والمعتزلة إلا ظواهر نصوص لا تدل على ما ذهبوا إليه كقوله سبحانه وتعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين)(سورة المدثر آية:٤٨) يقولون إن هذه الآية دليل على أن العاصي لا يشفع فيه ولا يخرج من النار أبداً ، وكذلك تقول المعتزلة إن قوله سبحانه وتعالى (إنك من تدخل النار فقد أخزيته)(سورة آل عمران آية:١٩٢) يقولون هذا نص في أن

من يدخل النار فإنه لا يخرج منها ، فإنه إذا استحق خزي الله فلا يليق به أن يدخله الله الجنة ويبقى في النار خالداً مخلداً فيها .

فأما استدلالهم بقوله (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) فهذا خاص بالكفار كما دلت عليه الآيات التي بعدها وقبلها .

وأما استدلالهم بقوله سبحانه (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) فقد أجاب عنه السلف بأن الخزي هنا ليس الذي معناه الإبعاد – اللعن والغضب وإنما معناه الخجل ، يعني ربنا إنك من تدخل النار من المسلمين فقد سببت له الخجل ، لأنه إذا حكم عليه بالنار ودخل النار ورآه أقاربه وأصحابه الذي يظنون أنه مجتنب للكبائر ومتباعد عنها إذا رأوه في النار فإنه يخجل منهم يخزى ، فمعنى قوله (فقد أخزيته)(١) فقد أخجلته .

فالحاصل أن مرتكب الكبيرة عند المعتزلة والخوارج لا يخرج من النار أبداً أما عند أهل السنة والجماعة فإن مرتكب الكبيرة إذا مات مصراً عليها ولم يكن مستحلاً لها ولم تكن تلك الكبيرة من المكفرات فإنه يحتمل أحد أمرين :

الأول : أما أن يتفضل الله عليه ويعامله بالفضل ويعفو عنه ويغفر له ويدخله الجنة من أول وهلة .

الثاني : وإما أن يدخله النار ليطهره بمقتضى أعماله السيئة ثم يخرجه من النار بشفاعة الشافعين أو برحمة أرحم الراحمين .

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة وهم لا يختلفون في هذا الأصل أبداً .

المذهب الثالث : مذهب المرجئة ، والمرجئة قوم يعتمدون على نصوص الرجاء ويرجحونها على نصوص الوعيد ، وسمّوا بهذا الاسم لهذا السبب .

---

(١) قال ابن فارس في مادة (خزو) :

ومن هذا الباب قولهم خزي الرجل : استحيا من قبح فعله .. قال جرير :

وإن حمىً لم يحمه غير فرْتني *** وغير ابن ذي الكيرين خزيان ضائع

وهم طبقات :

الطبقة الأولى : المرجئة المحضة ، وهم الجهم بن صفوان وأتباعه ، هؤلاء يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب مطلقا ، فالمؤمن العارف ما دام أنه عرف الله لا يضره ذنب مهما كان ذلك الذنب سواء كان تركا للصلاة أو ارتكابا للفواحش لأن الإيمان عندهم مجرد المعرفة (١) .

وهؤلاء الطبقة كفار ، لأنهم يحكمون على ترك العمل وعلى ارتكاب العمل المحرم بأنه لا يضر ، ولا يشترطون في الإيمان الإقرار والتصديق ، يقولون إذا كان عارفاً فهو مؤمن كامل الإيمان ولا يضره أي ذنب فعله ، ولذا قال السلف رضوان الله عليهم : يرد على هذا بأن إبليس وفرعون وغيرهم من الذين عرفوا الله هل كانوا مؤمنين كاملي الإيمان .

الطبقة الثانية : مرجئة الفقهاء ، وهم الذين أخرجوا العمل عن حقيقة الإيمان وقالوا إنه لا يسمى إيمانا ، وهؤلاء أخف بكثير من المرجئة المحضة ، لأن هؤلاء لا يبيحون ارتكاب المعاصي ولا يبيحون ترك الواجبات ، ويوجبون على المسلم أن يعمل الواجب وان يترك المحرم ، لكنهم لا يجعلون العمل من مسمى الإيمان .

(ما لم يستحله)

الشرح : هذا بالإجماع ، من ارتكب كبيرة مستحلا لها فهو كافر بإجماع المسلمين ، ولا يشذ على هذا إلا الذين لا يعبئون بقواعد الشريعة ونصوصها ، لأن القائل بذلك مكذب للرسول ومكذب للقرآن ، إذا كان القرآن يقول : (ولا تقربوا الزنى)(سورة الإسراء آية:٣٢) و الرسول عليه الصلاة والسلام جلد شارب الخمر لكونه مستحقا للعقوبة ، وكذلك السارق حكم عليه القرآن والسنة بأنه تقطع يده ، فإذا كانت هذه العقوبات ما وجبت إلا لتحريم ذلك الفعل ، فالذي يقول إن الخمر حلال أو الزنى حلال أو أن السرقة مباحة أو أن القتل عمداً مباح هذا مكذب لله ولرسوله ، فإذا كان مكذباً لله ولرسوله فهو كافر بالاتفاق ، ولهذا لما شرب بعض الصحابة رضوان الله

---

(١) قال ابن حزم في الفصل : الثاني (يعني من فرق المرجئة) : الطائفة القائلة إن الإيمان عقد بالقلب ، وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام ، وعبد الصليب وأعلن التثليث في دار الإسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ، وليّ لله تعالى من أهل الجنة ، وهذا قول أبي محرز جهم بن صفوان السمرقندي . الفصل ٣ / ١٢٢ ت يوسف البقاعي

عليهم الخمر متأولين قوله سبحانه وتعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا)(سورة المائدة آية:٩٣) جلده عمر وأقام عليه الحد وقال لو استحله لحكمت بكفره وهذا لا أحد يخالف فيه (١) .

(ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله)

الشرح : لما كان المؤلف رحمه الله من مرجئة الفقهاء وكان ممكناً أن يتوهم متوهم — إذا كانوا مرجئة — أنهم يقولون كما تقول المرجئة المحضة لا يضر مع الإيمان ذنب ، فقال نحن لا نقول ذلك ، يعني نحن وإن سمينا مرجئة فلا نوافق المرجئة المحضة على القول بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، بل نقول الذنوب تضر وتضعف الإيمان ولا نقول إنها تنقص الإيمان ، لأنه ليس من مذهبهم أن الإيمان ينقص ، الطحاوي لا يرى نقص الإيمان لكنه يرى أن الإيمان يقوى ويضعف ، ويقول : الذنوب تضر بتنقيصها للإيمان وتضر باستحقاق مرتكبها العقوبة في الدنيا والآخرة .

(نرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم)

الشرح : نرجو للمحسن ونخاف على المسيء ، هذا مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة الشهادة للمعين بالجنة أو بالنار ، إذا رأينا الإنسان يعمل أعمالا صالحة ومستقيما على طاعة الله فإننا نرجو له الخير بمقتضى إحسانه ، ولا نشهد له بالجنة ، وإذا رأينا إنسانا مسرفا على نفسه بارتكاب المعاصي والإساءة فإننا نخاف عليه من عقاب الله ونخشى عليه ونشفق عليه ، ولكن لا نشهد له بالنار أو نقنطه من رحمة الله ، هذه القاعدة التي عليها مذهب أهل السنة والجماعة .

وهو هنا يشير إلى أن الإنسان المحسن يستحق الجنة ولكن يستحقها بفضل من الله ورحمته سبحانه لا أن مقتضى العمل يكفي في إدخال العبد الجنة ، ومسألة تعلق الثواب و العقاب بالعمل(٢) **فيها ثلاثة أقوال للعلماء** :

المذهب الأول : أن أي عمل يعمله الإنسان لا يكون وحده كافيا في استحقاقه للجنة بل لابد أن ينضم إلى ذلك فضل الله ورحمته سبحانه وتعالى ولكن الأعمال الصالحة أسباب تقتضي الثواب بمعنى أن الثواب والعقاب يتعلقان بالعمل الصالح تعلق المسبب بالسبب ،

---

(١) انظر نقل الاتفاق على ذلك في شرح ابن أبي العز ص ٤٤٦ ت التركي ط ٢ ، و مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤/ ٢١٣ والاستغاثة في الرد على البكري له أيضا ص ٢٥٣ والدرر السنية ١٠ / ٣٧١ .

(٢) هذه المسألة غير مسألة الشهادة بالجنة أو النار للمعين .

وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة ، ومن أدلتهم قوله سبحانه وتعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعلمون)(سورة آية:٣٢) أي بسبب أعمالكم .

المذهب الثاني : مذهب القدرية والمعتزلة ، وهو أن الثواب والعقاب يتعلقان بالعمل تعلق العِوض عن المعوّض ، يعني أنه إذا وجد العمل الصالح تحتم وجود الثواب وإذا وجد العمل السيئ تحتم وجود العقاب ، وأنه لا دخل لمشيئة الله وأرادته وفضله وإحسانه في ذلك .

المذهب الثالث : مذهب الأشاعرة وكثير من الجبرية وهو أن الثواب والعقاب لا تعلق لهما بالعمل مطلقا ، وإنما يتعلقان بمشيئة الله وإرادته وقضائه وقدره ، فمن قضى الله أن يكون مثابا فإنه يثاب سواءا كان محسنا أو مسيئا ، ومن قضى الله أنه يعاقب فإنه سيعاقب سواءا كان محسنا أو مسيئا فلا علاقة للعمل بالثواب والعقاب مطلقا عند هؤلاء .

فأهل السنة والجماعة استدلوا بقوله تعالى : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) ونحوها ، وعلقوا الثواب والعقاب على العمل أنه سبب له .

أما المعتزلة والقدرية فإنهم أخذوا بهذه الآية أيضا (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقالوا إنها تدل على أن الثواب عوض عن العمل بمجرده من غير أن يكون لله سبحانه وتعالى في ذلك فضل ولا مشيئة ولا إرادة .

وأما منزع الجبرية ومن معهم فإنهم استدلوا بقوله ﷺ : (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه و فضل)(١) .

فالقدرية استدلوا بالآية التي ذكرتها على أن الثواب عوض للعمل ، والجبرية والأشاعرة استدلوا بالحديث على أن العمل لا يكون مقتضيا للثواب والعقاب لا من حيث التسبب ولا من حيث الحقيقة ، ولكن أهل السنة والجماعة جمعوا بين الدليلين .

هو صحيح أن قولكم : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) ظاهره أن العمل يدخل الجنة ويدخل النار ، وقوله : (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله) ظاهره أن العمل لا يمكن أن يكون سببا لدخول الجنة أو لدخول النار لكن السلف جمعوا بين النصوص وقالوا : إن (الباء) في قوله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) هي باء السبب ، أي أدخلوا الجنة بسبب عملكم ، لا أن العمل وحده مقتضي لدخول الجنة أو النار ، قالوا : وأما (الباء) في الحديث : (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله) فهي باء العوض أي لن يكون عمل أحدكم كافيا في إدخاله الجنة ،

(١) رواه البخاري (٦٤٦٧) ومسلم (٢٨١٨)

بل لابد أن ينضم إلى العمل أمور أخرى كإرادة الله وإحسان الله وفضل الله سبحانه وتعالى ونحو ذلك .

فالمعتزلة الذين تمسكوا بظاهر الآية ما وفقوا إلى الحق .

والأشاعرة والجبرية الذين أخذوا بظاهر الحديث ما وفقوا إلى الحق .

فكان الحق مع أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين النصوص .

وأما الجواب عن قوله عليه الصلاة والسلام : (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله) فإن أهل السنة والجماعة كما قلت أجابوا عن ذلك بان الباء هنا للعوض ، وقالوا إن الرسول عليه الصلاة والسلام يخبر بأن العمل لا يمكن أن يكون بمجرده عوضا لدخول الجنة وإنما فيه الإشارة إلى أن عمل الإنسان مهما بلغ ومهما كان لا يكفي وحده لدخول الجنة وذلك أن الله سبحانه وتعالى تفضل على عباده وأنعم عليهم وأحسن إليهم في هذه الدنيا بشتى أصناف النعم وأن كل عمل يعمله الإنسان مهما كان فإنه لا يمكن أن يقوم بشكر نعم الله سبحانه وتعالى عليه لولا أن الله يعفو ويتجاوز ويتفضل .

ويستدل على هذا المعنى بالحديث الصحيح أن النبي ﷺ ذكر أنه كان فيمن كان قبلكم رجل منقطع للعبادة في صومعته لا يشتغل بشيء سوى العبادة أطلاقا حتى رزقه يجريه الله عليه بحيث هيأ له شجرة رمان تثمر له كل يوم حبة من الرمان فيتقوتها ويتغذى بها ، وأجرى عند صومعته عينا عذبة يشرب منها فما يشتغل حتى بكسب رزق ، بل هو متفرغ للعبادة ، قال عليه الصلاة والسلام : فإذا كان يوم القيامة يؤتى بهذا الرجل إلى الله ويعرض عليه فيقول سبحانه وتعالى : أدخلوا عبدي الجنة برحمتي ، قال : فيتكاثر عمله ويقول : لا يا رب ، بل بعملي ، فيقول الله سبحانه وتعالى : زنوا أعماله الصالحة وزنوا النعم التي أنعمت بها عليه وقابلوا النعم بالأعمال التي عملها وفعلوا ، قالوا : فلم تقابل أعماله كلها نعمة البصر التي من الله بها عليه وأنعم بها عليه ، فلما رأى ذلك قال : يا ربي برحمتك .

فقوله عليه الصلاة والسلام : (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله) يعني أن العمل وحده لا يمكن أن يكون كافيا لدخول الجنة بل العمل سبب ، ولابد أن ينضم إليه مكملات السبب ومقتضياته ، كتفضله سبحانه وتعالى ومشيئة وإرادته وإحسانه على عباده .

(ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئهم ، ونخاف عليهم ولا نقنطهم)

الشرح : هذه المسألة اختلف العلماء فيها على ثلاثة أو أربعة مذاهب :

المذهب الأول : أرجحها وأقواها مذهب أهل السنة والجماعة وهو أنه لا يشهد لأحد بعينه أنه من أهل الجنة مهما كان عمله الذي يقوم به ، ولا يشهد لأحد بعينه أنه من أهل النار مهما كان العمل الذي يؤديه ويقوم به وإنما يرجون للمحسن ويخافون على المسيء .

أما على الأعيان فلا يشهدون لأحد بجنة ولا نار إلا إذا ورد نص صحيح صريح فلهذا يقولون من شهد له النبي ﷺ بعينه نشهد له بعينه ، كعكاشة بن محصن رضي الله لأن النبي ﷺ لما قال (إن سبعين ألفا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) قال عكاشة بن محصن رضي الله عنه : ادع الله أن يجعلني منهم قال : (أنت منهم)(١) ، نص في أن عكاشة من أهل الجنة بعينة ، وكذلك العشرة أبو بكر وعمر عثمان وعلي والستة الباقون كلهم شهد لهم النبي ﷺ بالجنة بأعيانهم (٢) ، وكذلك ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه لما نزل قوله سبحانه وتعالى : (يا أيها الذين أمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)(سورة الحجرات آية:٢) قال رضي الله عنه لقد حبط عملي لأنني رجل جهوري أرفع الصوت عند رسول الله ولزم بيته فسأل عنه النبي ﷺ فقالوا أنه لزم بيته يبكي ويقول حبط عملي فقال عليه الصلاة والسلام : (بل هو من أهل الجنة)(٣) فثابت بن قيس ممن شهد لهم بأعيانهم بالجنة .

وكذلك لا نشهد لأحد بالنار إلا إذا شهد له النص عن المعصوم ، لأن الأصل الذي قام عليه مذهب أهل السنة والجماعة في الشقاوة والسعادة منوط بما يموت عليه الإنسان ، فإذا رأينا إنسانا يكثر من الطاعات ويلزم المساجد ويجاهد في سبيل الله فلا نأمن عليه أن تكون خاتمته سيئة فقد يرتد ، وكذلك لو رأينا إنسانا كافراً عاصيا يجاهر بالمعاصي والكفر والضلال لا نشهد له بعينه أنه في النار لأنه ربما يتوب ويرجع ويسلم ويحسن إسلامه ويكون من أهل الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام : (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)(٤) .

---

(١) رواه البخاري (٥٧٠٥) و مسلم (٢١٦)

(٢) رواه الترمذي (٣٧٤٨) واحمد في الفضائل (٢٧٨) والبغوي (٣٩٢٥) بسند صحيح .

(٣) رواه البخاري (٣٦١٣) ومسلم (١١٩)

(٤) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)

فإذا شهد نص بأن أحدا ما من أهل النار فإننا نقطع له بأنه من أهل النار قطعا ، كأبي لهب فإن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بأنه من أهل النار فقال : (سيصلى نارا ذات لهب) وإخبار الله سبحانه وتعالى حقٌ ، وكذلك عمرو بن لحي الخزاعي نشهد له بأنه من أهل النار لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : (رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار)(٢) فمن ورد نص صحيح من القرآن أو من الحديث بأنه من أهل النار أو أنه من أهل الجنة فإننا نقطع له بعينه ، و أما ما عدا ذلك فلا ، لأن مجرد العمل لا يكفي .

وأيدوا أهل السنة والجماعة هذا المذهب بأمور منها :

الأمر الأول : أن ظاهر الإنسان لا يكفي فلابد أن يتفق الظاهر والباطن ، لأن العبرة بعقيدة الإنسان وما يضمره في نفسه ، فقد يكون الإنسان منافقا والعياذ بالله يصلي الصلوات ويؤدي شعائر الإسلام مع الناس في الظاهر ولكنه في الباطن ملحد يكفر بالله وبرسوله فإذا شهدنا له بعينه أنه من أهل الجنة على ما نرى من أعماله الصالحة وإقامته لشعائر الإسلام نكون قد أخطأنا لأن الله سبحانه وتعالى علم أنه في الباطن غير ، أما بالنسبة للحكم عليه بالإسلام أو غيره فهذا مناطه الظاهر ، يعني إذا رأينا من يؤدي شعائر الإسلام ويقول : لا إله إلا الله نحكم له بالإسلام ظاهرا وأما باطنه وسريرته فنكلها إلى الله .

الأمر الثاني : أن العبرة بالموافاة فقد يكون الإنسان مؤمنا في الظاهر يؤدي شعائر الإسلام ومؤمنا في الباطن أيضا ولكن يطرأ عليه سوء الخاتمة – والعياذ بالله – ينحرف ويرتد فيموت كافرا فتكون شهادتنا له بالجنة مخالفة لما علمه الله وأراده ، كذلك أيضا قد يكون الإنسان كافرا ظالما ملحدا باطنا وظاهرا لا يؤدي شعائر الإسلام ولا يعتقد بصحة الشرائع ثم عند الخاتمة يهديه الله ويوفقه للخير ويمن عليه بالهداية فيتوب من كفره وضلاله ويشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله فيعمل بعمل أهل الجنة فيكون من أهلها .

وهذا هو أمثل الأقوال وأرجحها .

هناك قول ثان: يقول لا نشهد لأحد بجنة ولا نار إلا الأنبياء فقط ، إذا ثبتت لنا نبوة نبي قطعنا أنه من أهل الجنة ، أما غير الأنبياء فلا نشهد لهم وهذا متعارض مع النصوص التي صرح عليه الصلاة والسلام بها لأشخاص معينين بأنهم من أهل الجنة .

ولهذا يكون هذا المذهب بدرجة أقل من درجة المذهب الأول لأنه لا يعرف له أصل يستند عليه القائل لا تعليل ولا دليل .

---

(٢) رواه البخاري (٣٥٢١) ومسلم (٢٨٥٦) .

القول الثالث : من يسلك مسلك أهل السنة والجماعة ولكن يتوسعون فيه ويقولون لا نشهد لمعين بالجنة ولا بالنار إلا لمن شهد له النص أو شهد له المسلمون ، إذا شهد النص من القرآن أو الحديث قطعنا أنه من أهل الجنة أو من أهل النار ، وإذا شهد المسلمون له بذلك فإننا نقطع له أيضا بالجنة أو بالنار لأنهم لا يجمعون على ضلالة ولأنهم شهداء الله في أرضه .
وهؤلاء مستندهم أنه مرت جنازة برسول الله ﷺ فأثني عليها خيراً حتى تتابعت الألسن فقال رسول ﷺ : (وجبت) قال : ومرت به جنازة أخرى فأثني عليها بشر حتى تتابعت الألسن فقال رسول ﷺ : (وجبت) فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله : قلت في الجنازة الأولى وجبت وقلت في الثانية كذلك فقال : (هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض مرتين أو ثلاثا)(١) .

ولكن هذه الزيادة لا يرضاها السلف ويجيبون عنها فيقولون إن قوله عليه الصلاة والسلام : (وجبت) ليس السبب في ذلك أن المسلمين شهدوا له ، بل السبب في ذلك أنه يعلم صلى الله عليه وسلم أن هذا من أهل الجنة وأن هذا من أهل النار ، أي ليس الحامل له على أن يقول وجبت للذي أثنى عليه الخير وقوله للآخر وجبت الذي أثنى عليه الشر ليس دليله على وجوب الجنة أو النار شهادة المسلمين بل كان يعلم هو عليه الصلاة والسلام من الله عن طريق الوحي أن هذا من أهل الجنة وأن هذا من أهل النار .

يبين هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر : (توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار) قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : (بالثناء الحسن والثناء السيئ أنتم شهداء الله بعضكم على بعض)(٢) ، فقوله : (توشكون) يدل على أنهم لا يقطعون وإنما ثناؤهم بالخير أو بالشر يكون قرينة تدل على ذلك ، لأن أوشك : بمعنى قرب ، فتوشكون بمعنى تقربون .
إذاً فالقول الراجح هو المذهب الأول وهو أننا لا نقطع لإنسان بعينه بجنة ولا نار إلا إذا شهد له النص .

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٧) ومسلم (٩٤٩)

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢١) و احمد في المسند بسند صحيح (١٥٤٣٩) ت التركي

(والأمن و الإياس ينقلان عن ملة الإسلام وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة)

الشرح : الأمن معناه أن يأمن الإنسان من عذاب الله ويأمن من مكر الله ويأمن من أخذ الله ، وهذا مذهب نهجته المرجئة .

الذين يرتكبون المعاصي ويتركون الواجبات ويقولون لا يضر مع الإيمان ذنب معناه الأمن من عذاب الله ، والأمن من عذاب الله محرم ولا يجوز ومن أمن من عذاب الله فإنه ينكر عليه ويبدع (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)(سورة الأعراف آية:٩٩) .

كذلك اليأس والقنوط ، كون الإنسان ييأس من ورح الله وييأس من رحمة الله ويقنط من رحمة الله ويقطع الرجاء نهائيا هذا أيضا محرم ولا يجوز ، بل قال بعض أهل العلم : إن الرجاء والخوف بالنسبة للمسلم كجناحي الطائر فكما أن الطائر لا يستقيم طيرانا ولا يطير إلا بجناحين فكذلك الرجاء والخوف .

فالمسلم لا يسلم في دينه إلا إذا كان عنده رجاء ولكن لا يصل إلى درجة الأمن وعنده خوف ، لكنه لا يصل إلى درجة اليأس ، يكون كالطائر الذي سلمت جناحاه فإنه يستقيم ويطير .

أما لو قُطع أحد جناحيه فلا يمكن أن يطير ، كذلك المسلم لو فقد الأمن واعتمد على اليأس ما نفعه ذلك ، أو فقد اليأس واعتمد على الأمن ما نفعه ذلك ، فالقنوط من رحمة الله محرم والأمن من عذاب الله محرم أيضا .

(ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه)

الشرح : هذه النقطة عليه – رحمه الله – فيها مؤاخذة ، ومعنى كلامه هنا أنه لا شيء يكفر إلا الجحد ، فالأعمال لا تكون مكفرة ، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة ، لكن الإمام الطحاوية رحمة الله من المرجئة ، والمرجئة لا يرون أن الأعمال من الإيمان ، ولا يكفرون بمجرد العمل فقوله : (ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه) هذا غير صحيح ، فقد يخرج من الإيمان بغير جحود ، قد يكون مقراً غير جاحد ، ولكنه يرتكب شيئا من المكفرات فيكون كافرا خارجا من الإيمان .

(والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان)

الشرح: الإيمان مصدر آمن يؤمن إيماناً ، وحقيقته عند أهل السنة والجماعة أنه اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح ، فالاعتقاد جزء من الإيمان ، والعمل بالجوارح جزء من الإيمان ، والنطق باللسان جزء من الإيمان ، يعني كل واحد من هذه الثلاثة يسمى إيمانا حقيقة (١) .

وأما على رأي المؤلف فهو : اعتقاد بالقلب ونطق باللسان ، أما العمل فإنه لا يدخل عند المؤلف – ومن سبقه من الأحناف – في مسمى الإيمان .

والإيمان للناس في تعريفه وحقيقته مذاهب :

المذهب الأول : وهو المتمشي مع كتاب الله وسنة نبيه وسلف الأمة أنه اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان ، وهذا أدلته نستعرضها أن شاء الله .

المذهب الثاني : مذهب الأحناف – ومنهم المؤلف - :أنه اعتقاد بالقلب ونطق باللسان أما العمل فلا يدخل في مسمى الإيمان .

المذهب الثالث : مذهب الكرامية وهو أن الإيمان مجرد النطق باللسان فقط ، فالمنافق عندهم مؤمن .

المذهب الرابع : مذهب الجهمية ، الجهم بن صفوان وأتباعه ، وهو أن الإيمان مجرد المعرفة فقط ، يعني أن المعرفة هي الإيمان ، فعلى مذهب الجهمية لا يبقى هناك كافر ، لأن الكل يعرف الله .

أما مذهب أهل السنة والجماعة فإنه هو المذهب الصحيح لأنه هو المذهب الذي يعضده الكتاب والسنة .

فمن الكتاب قوله سبحانه وتعالى وهو أوضح الأدلة (وما كان الله ليضيع إيمانكم)(سورة البقرة آية:١٤٣) أجمع المفسرون من الصحابة وغيرهم أن المراد : وما كان الله ليضيع صلاتكم ، لأن سبب نزول الآية يبين ذلك ، لما حولت القبلة قال بعض الصحابة ضاع إيمان إخواننا الذين ماتوا وهم يستقبلون بيت المقدس ، ظنوا أن إيمانهم كان باطلا لأن القبلة الصحيحة هي الكعبة ، فنزل قوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) ومثله كثير في القرآن .

---

(١) بعض أهل العلم يرى أن التعريف المشهور : قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان .. تعريف ناقص ، وذلك أن فيه ذكر اعتقاد القلب دون عمله ، والاعتقاد غير العمل ، وأن الصواب هو : قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح ينظر شرح الشيخ سليمان العلوان لسنن الترمذي كتاب الصيام باب ما جاء في التشديد في الغيبة .

ومن السنة قوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان)(١) ، فالحياء عمل من أعمال القلب وإماطة الأذى عن الطريق عمل من أعمال الجوارح ، وهذا الحديث صحيح ولا كلام فيه ، أما الأحناف فإنهم قالوا إن هذا الحديث روي :بـ (سبع وسبعون شعبة) وفي لفظ آخر (بضع وسبعون شعبة) قالوا فهذا يدل على اضطراب الحديث ، والاختلاف في العدد لا يقدح بالحديث بإجماع علماء الحديث ، لأن هذه الرواية غير الرواية الأخرى ويكون بعض الخصال الزائدة على الثلاث والستين داخلة فيه .

وأما مذهب الأحناف فإنهم قالوا الإيمان هو الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان فقط ، أما عمل الجوارح فلا يدخل في مسمى الإيمان ، وقالوا إن الإيمان واحد .

واستدلوا على هذا بأمور منها عطف العمل على الإيمان في قوله سبحانه وتعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قالوا عَطف العمل على الإيمان ومعلوم أن العطف يقتضي المغايرة ، والجواب عن هذا سهل يسير ، **أجاب به السلف رضوان الله عليهم فقالوا** :

إن العطف يقتضي المغايرة غالبا ، لكنه قد يأتي العطف لغير المغايرة ، فقد يعطف الشيء على نفسه لاعتبار من الاعتبارات : فعطف عام على خاص أو عطف خاص على عام ، أو أي أمر يقتضي ذلك يوجب أن يعطف شيء على نفسه كقوله سبحانه وتعالى : (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل)(سورة البقرة آية:٩٨) جبريل الآن عُطف على الملائكة فهل جبريل غير الملائكة ؟ جبريل من الملائكة ولكنه عُطف عليهم عَطف خاص على عام لبيان مزيته عليهم ، ولبيان فضله عند الله سبحانه وتعالى ، إذ هو سفيره إلى رسله ، وإلاّ فهو من الملائكة .

وكذلك قوله سبحانه وتعلى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)(سورة البقرة آية:٢٣٨) هل الصلاة الوسطى خارجة عن الصلوات الخمس ، الصلاة الوسطى من الصلوات الخمس لكنه عطفها على الصلوات من باب عطف الخاص على العام لتأكيد أهمية هذه الصلاة وهي صلاة العصر كما هو الراجح .

وكذلك يعطف العام على لخاص كما في قوله تعالى : (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات)(سورة نوح آية:٢٨) فعطف المؤمنين على من دخل بيته وعلى والديه وهم منهم ، فوالديه ومن دخل بيته مؤمنون وعَطف عليهم عموم المؤمنين فدل على أن الشيء يعطف على نفسه لاعتبارات ، حتى إنه ورد في اللغة عطف الشيء على نفسه وليس هناك مميز للمعطوف والمعطوف عليه ولا مغايرة مطلقا إلا مجرد اللفظ ، كقول الشاعر :

---

(١) رواه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) وبقية أصحاب السنن .

فقدّدت الأديم لراهشيه * وألفى قولها كذباً وميناً (١)**

والكذب هو المين و المين هو الكذب ، ومع هذا عطف المين على الكذب لاختلاف اللفظ فقط ، فبطل استدلالهم بعطف العمل على الإيمان .

قالوا ومن أدلة ذلك أن الإيمان يطلق في اللغة على التصديق كقول إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم :(وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين)(سورة يوسف آية:١٧) وما أنت بمؤمن أي مصدق ، ولكن الجواب عن هذا أن يقال : إن حقيقة الإيمان في اللغة التصديق (٢) ، لكن حقيقة الإيمان شرعا : هو ما دل عليه الشرع ، وفرق بين الحقيقة اللغوية والحقيقة الشرعية ، وكل حقيقة شرعية مبنية على الحقيقة اللغوية فقولهم : (وما أنت بمؤمن لنا) أرادوا بذلك الإيمان اللغوي لا الإيمان الشرعي .

والصلاة : الأصل فيها لغة الدعاء ، يقول الشاعر :

وقابلها الريح في دنّها * وصلى على دنّها وارتسم (٣)**

أي دعا ، هذه الحقيقة اللغوية التي هي الدعاء للصلاة أخذها الشارع وأضاف إليها قيودا فأصبحت حقيقة شرعية ، و كانت حقيقة الصلاة شرعاً هي الدعاء على وجه خاص ، أي الدعاء في الوقت الذي يبدأ فيه بتكبيرة الإحرام ويختم بالتسليم ، هذا الدعاء الخاص سمي صلاة لأن أصل الصلاة في اللغة الدعاء .

وكذلك الصيام ، فحقيقة الصيام في اللغة الإمساك مطلقاً ، والإمساك عن أي عمل يسمى في اللغة الصيام ، كقول الشاعر :

خيل صيام وخيل غير صائمة * تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما (٤)**

يعني واقفة عن الجري ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى حكاية عن مريم (إني نذرت للرحمن صوماً)(سورة مريم آية:٢٦) هل هي نذرت للرحمن أن تصوم عن الأكل والشرب ؟ لا ، نذرت أن

---

(١) انظر لسان العرب مادة مين .

(٢) هذا التعريف اللغوي قال به الشيخ حافظ حكمي رحمه الله (معارج القبول ٢ /٢١) ، والشيخ حمود جعل التعريف الشرعي هنا مكملا للغوي مزيدا عليه بقيود بخلاف المرجئة الذين اكتفوا باللغوي ، وسوف ترى بعد قليل أن الشيخ يخطئ تقييد إطلاق مسمى الإيمان على التعريف اللغوي فقط دون ما أضافه إليه أهل السنة .

(٣) ينظر معجم مقاييس اللغة مادة صلى .

(٤) ينظر لسان العرب مادة صوم .

تمسك عن الكلام ،إذاً فحقيقة الصيام لغة الإمساك مطلقاً ، لكن الشارع أخذ هذه الحقيقة اللغوية وأضاف إليها قيودا فأصبحت هي حقيقة الصيام في الشرع ، فقال : الصيام هو الإمساك عن الأكل والشرب و المفطرات الخاصة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

فكل حقيقة شرعية لا بد وأن توجد فيها الحقيقة اللغوية .

فاستدلالهم بأن الإيمان يطلق في اللغة على التصديق لا يصح من هذا الوجه ، يعني من حيث كونه يطلق في اللغة فقط .

والأحناف يسمون بالمرجئة ، ويقيد إرجاؤهم بإرجاء الفقهاء ، فيقال مرجئة الفقهاء أو يقال مرجئة أهل السنة ، وقد حاول شارح الطحاوية رحمه الله وهو حنفي أن يوفق بين مذهب أهل السنة والجماعة وبين مذهب الأحناف وحاول أن يجعل الخلاف لفظياً ، ولكن أنى له ذلك ، الخلاف معنوي واضح يتبين بأن أهل السنة والجماعة يكفرون بالعمل أما الأحناف فإنهم لا يرون العمل مكفراً مطلقاً لا لارتكاب المحرم ولا ترك الواجب .

أما الكرامية فمذهبهم باطل وهو أنه يلزم عليه أن المنافقين كانوا مسلمين لأنهم يقولون لا إله إلا الله ويقرون بألسنتهم ولا يمكن أن يأتوا بدليل يبرر هذا المذهب ، إلا ما علم من عمومات النصوص من أن لا اله إلا الله تدخل في الإسلام ، كما قال عليه الصلاة والسلام لأسامة (أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله)(١) ونحو ذلك ، ولكن هذا له شروط وله قيود وله أركان ، وليس مجرد النطق بالكلمة يكفي في الإيمان .

وأما المرجئة المحضة وهم الجهمية فإنهم لا يشترطون التصديق ، يقولون إذا وجدت المعرفة في قلب الإنسان فهو مؤمن كامل الإيمان ولو أنكر وحدانية الله وأنكر وجود الله ، إذا كان يعرف الله بنفسه فهو مؤمن ، وألزمهم أهل السنة على هذا المذهب بأن إبليس مؤمن وأن فرعون مؤمن وأن أبا طالب مؤمن ، قالوا لأن إبليس يعرف الله بدليل قوله (رب بما أغويتني)(سورة الحجر آية:٣٩) ، وآيات كثيرة ، وكذلك فرعون يعرف الله بدليل قوله سبحانه وتعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً)(سورة النمل آية:١٤) يعني عرفتها نفوسهم ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض)(سورة الإسراء آية:١٠٢) والله لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات إلا رب السموات والأرض وأبو طالب كذلك يعرف الله بدليل قوله (٢) :

ولقد علمت بأن دين محمد ***من خير أديان البرية ديناً(٣)

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٩) ومسلم (٩٦)

فبطلان مذهب الجهمية لا يحتاج إلى أن يستدل عليه بدليل .

ومن يقول ما فيه كفر يخرج من الملة إلا كفر الاعتقاد فهذا ينطبق عليه مذهب المرجئة تماما (١) ، فمثلا لو نبذ الشرع وراء ظهره فحكّم القانون لحكمنا بكفره بمجرد العمل ، أما ما في قلوبهم – أي المحكمين للقانون – فلا علم لنا به ولا علاقة له . هذا ملخص ما افترق فيه الناس حول بيان حقيقة الإيمان شرعاً ، وأما مسائل أخرى في الإيمان تأتي إن شاء الله .

(وأن جميع ما أنزل الله في القرآن وما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق)

الشرح :كل ما صح من الشرع والبيان نؤمن بأنه حق هذا مذهب أهل السنة والجماعة .

(والإيمان واحد وأهله في أصله سواء)

الشرح : هذا على منهج الأحناف – مرجئة الفقهاء – الإيمان عندهم واحد وهو التصديق فقط ، وأما النطق باللسان فلا يدخل في الإيمان ، الإيمان يقوى ويضعف ، كالنور لكن بعض النور أقوى من بعض ، فأبو بكر وأنا وأنت كلنا في أصل الإيمان سواء ، إلا أن أبا بكر يفضلنا بقوة الإيمان وبقوة التقوى .

ولا يقرون بأنه يزيد وينقص ، لأن الإيمان عندهم شيء واحد ، وإذا كان شيئاً واحداً فإنه لا يزيد ولا ينقص(٢) ، وأهله يختلفون فيه فيما يتعلق بالتقوى والهدى ، يعني فمن كان أتقى فإيمانه أقوى ، ولا يقولون إن إيمانه أكثر لأن الزيادة تكون في العمل والقول وهما ليسا من الإيمان(٣) .

فكلما أكثر المؤمن من الذكر والتسبيح والتحميد زاد إيمانه وكلما أكثر من العمل الصلاة والزكاة ونحوها زاد إيمانه ، وإذا كانوا لا يدخلون هذه الأمور في الإيمان فهم لا مفر لهم من أن يقولوا إنه شيء واحد لا يزيد ولا ينقص .

= (٢) انظر شرح ابن أبي العز للطحاوية ص ٤٦١ ت التركي ط ٢

= (٣) انظر شرح ابن أبي العز للطحاوية ص ٤٦١ ت التركي ط ٢

(١) من بدهيات مذهب أهل السنة أنهم يكفرون بالقول والفعل والترك والاعتقاد والشك ، ينظر نواقض الإيمان القولية والعملية للشيخ عبدالعزيز بن عبداللطيف ص ٣٦ وما بعدها .

(٢) ينظر الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل لمحمد بن محمود آل خضير ٢٧٥/١ .

(٣) سبق ص ٨٢ قول الشيخ : لما كان التصديق لا يعرف إلا بالنطق باللسان (يعني عند الأحناف) قالوا : النطق باللسان ركن وليس جزء من الإيمان لأنه لا يُعرف هل هو مصدق بالله أو ليس بمصدق ، أما العمل عندهم فإنه أطلق على الإيمان مجازا .

فأما مذهب أهل السنة والجماعة فأدلته كثيرة من الكتاب والسنة (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون)(سورة الأنفال آية:٢) وزادتهم إيمانا نص ، كذلك قوله ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون شعبة) فالتصديق واحد ، والرسول ﷺ قال : (بضع وسبعون شعبة) وهذا مما يدل على أن الإيمان غير التصديق ، فإذا كان بضعا وسبعين شعبة إذاً فهو عدد ، ولهذا مثّل بقول : (أعلاها قول لا إله إلا الله) وقول لا إله إلا الله ليس من التصديق ، (وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)(١) وإماطة الأذى عن الطريق عمل من أعمال الجوارح ، سماه : (الإيمان) .

فالنصوص كثيرة في القرآن والحديث على أن الإيمان يزيد وينقص ، أما الأحناف فقالوا إنه شيء واحد لا يزيد ولا ينقص وقالوا : الأعمال لا تكون معه ولا تسمى إيماناً ، لا يجوزون أن يطلق على الأعمال إيمان لأن حقيقة الإيمان التصديق .

واستدلوا على هذا بقوله سبحانه وتعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قالوا : لو كان العمل من الإيمان لما صح عطفه عليه ، لأن العطف يقتضي المغايرة ، ورد عليهم القائلون بزيادة الإيمان ونقصانه بأن العطف وإن كان في الأصل للمغايرة إلا أنه قد يأتي ولا يقصد منه المغايرة فقد يعطف الشيء على نفسه لاعتبارات أخرى كقوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)(سورة البقرة آية:٢٣٨) فالصلاة الوسطى داخلة في الصلوات ومع هذا عطفها على الصلوات وكذلك قوله (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال)(سورة البقرة آية:٩٨) جبريل من الملائكة ومع هذا عطفه عليه ولكن هذا عطف خاص على عام وهو داخل في ذلك العام والنكتة من عطفه لبيان ما له من القدر والفضل ، وجبريل من الملائكة وصلاة العصر من أفضل الصلوات فكان ذكر جبريل مرتين وذكر صلاة العصر مرتين يدل على زيادة الأهمية فعطف الشيء على نفسه جائز إذا كان العطف خاصاً على عام لبيان العناية والفضل بالمعطوف ، وكذلك العكس عطف العام على الخاص كقوله سبحانه وتعالى(رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات)(سورة نوح آية:٢٨) فالمؤمنين عُطفوا على من دخل بيت النبي نوح عليه السلام وهم أعم ، وهذا كثير جداً ويأتي في القرآن وغير القرآن يعطف الشيء على نفسه لأجل بيان فضله ومزيته العامة .

(١) رواه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) وبقية أصحاب السنن .

(والتفاضل بينهم بالخشية والتقى)

الشرح : مقصوده الكيفية ، أي القوة والضعف ، وليس قصده الزيادة والنقصان ، لأنها ليست عندهم كما سبق ، وإنما قصده التصديق الذي يكون في قلب الإنسان ويعقد عليه يختلف من شخص لآخر ، فأحدٌ إيمانه قوي جدا كمحمد عليه الصلاة والسلام ، وجبريل عليه السلام ، وأحدٌ إيمانه ضعيف كسائر الناس ، فالشيء الواحد يكون قويا ويكون ضعيفا ، لكن لا يزيد ولا ينقص ، وهذا يرد عليهم بالنصوص التي سبق ذكر بعض منها التي صرحت بأن الإيمان يزيد وينقص .

(ومخالفة الهوى وملازمة الأولى)

الشرح : مخالفة الهوى يعني الاستقامة على أمر الله وجهاد النفس عن ارتكاب المعاصي التي تميل إليها النفس وهوى الإنسان .

(والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن ، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن)

الشرح : المؤمنون حقاً هم أولياء الرحمن ، وأما أكثرهم ولاية فهو أطوعهم الله سبحانه وتعالى .

(والإيمان هو : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وحلوه ومره من الله تعالى)

الشرح : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقضاء والقدر ، هذه الأصول الستة هي التي تضمنها حديث عمر ﷺ حينما جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة رجل فقال أخبرني عن الإسلام ، قال : (أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان ، قال جبريل : صدقت ، قال الصحابة رضوان الله عليهم عجبنا له يسأله ويصدقه ، ثم قال : أخبرني عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)(١) .

أما الإيمان بالله فمعناه التصديق الجازم الذي لا يتطرق إليه شك بأن الله سبحانه وتعالى موجود وأنه متصف بصفات الكمال وأنه لا يتطرق إليه شيء من صفات النقص أو العيب ، وأنه المعبود وحده دون غيره ، وأنه الخالق الرازق وحده دون غيره ، ولا يكون العبد مؤمنا بالله إلا إذا حقق

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (١)

هذه الأمور ، أن يؤمن بوجود الله وكماله وأن يؤمن بوحدانيته في العبادة ، وأن يؤمن بوحدانية الله في الربوبية ، فإذا أقر بأن الله موجود وأنه كامل وأثبت له صفات الكمال ونزهه عن النقائص والعيوب وأقر إقراراً جازما بأن العبادة خاصة بالله وأنه لا يجوز صرف شيء منها لغير الله واعتقد اعتقادا جازما بأنه لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر ولا يتصرف في العالم إلا الله سبحانه وتعالى فقد أصبح مؤمنا بالله .

والإيمان بالملائكة كذلك هو الاعتقاد بأن لله سبحانه وتعالى ملائكة يدبرهم ويستعملهم فيما يشاء سبحانه وتعالى من الأعمال ، وأن أعمالهم ومهماتهم مختلفة ، منهم من وكل بالقطر ومتابعة السحاب ، ومنهم وكل بالنبات ومنهم من وكل بقبض أرواح العباد ومنهم من وكل بالوحي يأتي به من الله إلى رسله كجبريل ومنهم من وكلوا بكتابة أعمال العباد وهم الكاتبان ومنهم من وكل بحفظ الإنسان وهم الحفظة .

والملائكة عند أهل السنة والجماعة عباد اصطفاهم وأكرمهم خلقهم من نور ، وهم نورانيون علويّون مختلفون عن بني آدم .

وهنالك فرق ضالة تفسر الملائكة بغير ما دل عليه الكتاب والسنة كالفلاسفة الذين يقولون إنهم قوى عقليه تدبر الكون ، وليس لها أجسام وليس لها عقول وهي قوة عقلية .

على كلٍ حتى من المسلمين من أخطئوا في بيان حقيقة الملائكة في اعتقادهم ، ومنهم مُحَمَّد عبده الذي يسمونه الإمام الأكبر ، ومنهم مُحَمَّد رشيد رضا ، يقولون : إن الملائكة هم عبارة عن القوى التي تُعْمل الحيوان وتُعْمل النبات ، فقوة النمو في النبات يقولون : هي من الملائكة ، وقوة النمو في الإنسان من ملائكة وهكذا ، وهذا ضلال كبير .

العلماء إذا بحثوا الإيمان بالملائكة تعرضوا إلى المقارنة بينهم وبين صالحي البشر : أيهم أفضل فمن المسلمين من يفضل الملائكة على صالحي البشر ومنهم من يفضل صالحي البشر كالرسل على الملائكة وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة(١) ، ومن أهل السنة من يميل إلى ما ذهبت إليه المعتزلة من تفضيل الملائكة على صالحي البشر ، والمقارنة أطال عليها الكلام شارح الطحاوية ، وذكر أدلة هؤلاء وهؤلاء وقارن بين هذه وهذه وناقشها بكلام لا طائل تحته .

ثم الذي يلزمنا ومكلفون به هو الإيمان بوجود الملائكة وأنهم عباد مطيعون لله سبحانه وتعالى في أوامره ونواهيه أما هل هم أفضل أو صالحو البشر أفضل فهذا شغل وقتٍ بدون فائدة .

---

(١) يقول ابن القيم رحمه الله : ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة . انظر بدائع الفوائد ٤/ ١٥٥٩ ت علي العمران .

(ونحن مؤمنون بذلك كله لا نفرق بين أحد من رسله ونصدقهم كلهم على ما جاؤوا به)

الشرح : ونحن مؤمنون بذلك كله مثل ما سبق من أصول الإيمان ، مؤمنون بالله مؤمنون بملائكته ومؤمنون بكتبه ومؤمنون برسله ومؤمنون باليوم الآخر ومؤمنون بالقضاء والقدر ، ولا نفرق بين رسله فنقول نؤمن بهذا ونكفر بهذا ، كطريقة الكفار الذين يقولون (نؤمن ببعض ونكفر ببعض) (سورة النساء آية:١٥٠) أما نحن فالواجب علينا الإيمان بجميع رسل الله أنهم رسل من عند الله وأنهم أمروا بتبليغ قومهم لكن لا يلزمنا العمل برسالاتهم وشرائعهم لأن شريعة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم نسخت شرائعهم .

أما اليهود فإنهم يؤمنون بموسى عليه السلام وينكرون رسالة عيسى ورسالة مُحَمَّد ﷺ، والنصارى يؤمنون بعيسى عليه السلام وينكرون رسالة مُحَمَّد ﷺ ويعارضونها ، وهذا هو الكفر ، وهؤلاء هم الذين يقولون : (نؤمن ببعض ونكفر ببعض) .

ويُلحق بهذا لو رأينا إنسانا يحكّم بعض نصوص الشريعة ويرفض تحكيم بعضها ، ويحكّم بدلا منها القانون فإنه داخل في عموم قوله تعالى : (نؤمن ببعض ونكفر ببعض)(سورة النساء آية:١٥٠) فإنه إذا حكم بعض الأمور كأنه آمن بها ، وإذا رفض تحكيم بعض الشريعة فكأنه كفر بها ، فهو داخل في هذه الآية .

أما الإيمان بالكتب فحقيقته الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى أنزل إلى رسله كتباً وأمرهم بتبليغها لقومهم ودعوهم بهذه الكتب إلى توحيد الله وإلى شرع الله ، ما ذكر مفصلا فنؤمن به مفصلا ، فنؤمن بأن الله نزل على موسى التوراة ونؤمن بأن الله نزل على عيسى الإنجيل ونؤمن بأن الله نزل على إبراهيم صحفا وعلى داود الزبور وعلى مُحَمَّد القرآن ، أما الإجمال فهو أننا نؤمن بصحة كل كتاب ثبت أن الله سبحانه أنزله على نبيه ، نؤمن به بمعنى أننا نصدق به وليس معنى ذلك أننا نعمل به .

واليوم الآخر معناه أننا نؤمن بأن الله تعالى سيبعث الناس يوم القيامة بعثا حقيقيا يبعث أرواحهم وأجسادهم ، وأن هناك حياة أخرى يدانون فيها على أعمالهم أو يجازون ، وسوف يأتي لهذا استطراد إن شاء الله .

(وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون ، إذا ماتوا وهم موحدون ، وإن لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين ، وهم في مشيئته وحكْمه ، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضلة ، كما ذكر عز وجل في كتابة (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وإن شاء عذبهم في النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثهم إلى جنته ، وذلك بأن الله تعالى مولى أهل معرفته ، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته ، الذين خابوا من هدايته ، ولم ينالوا من ولايته ، اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به)

الشرح : الكبائر جمع كبيرة ، والكبيرة هي الذنب والمعصية الكبيرة .

والكبيرة أصلها وصف ، لكن غلبت عليها الاسمية وأصبحت كأنها اسم مستقل ، وإلا فهي صفة لاسم قبلها ، أي المعصية الكبيرة أو الخصلة الكبيرة أو ما أشبه ذلك .

وقد اختلف العلماء في ضابط الكبيرة على أقوال كثيرة جداً أوصلها بعضهم إلى أربعين قولا ، لكن المهم منها أن الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الكبيرة : هي كل ذنب ثبت فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة بغضب أو لعنة أو نار ، كالزنا والسرقة أو البراءة من الشخص الذي يفعل ذلك ، كما في قوله (: (من غشنا فليس منها)(١) .

وهذا التعريف من أحسن ما حدّت به الكبيرة لأمور منها :

أولا : أنه مضطرد منعكس ، بمعنى أنه جامع مانع فلا يخرج منه شيء من الكبائر ولا يدخل معه شيء من الصغائر .

ثانيا : من مرجحات هذا التعريف أنه مروي عن السلف رضوان الله عليهم كبعض الصحابة ، وبعض الأئمة الذين عرفوا الكبيرة بهذا التعريف .

وأما التعاريف الأخرى فكلها إما أن تكون جامعة غير مانعة أو مانعة غير جامعة أو لا جامعة ولا مانعة .

من التعاريف الأخرى قول من يقول إن الكبيرة هي كل ذنب اتفقت الشرائع على تحريمه ، وهذا التعريف غير جامع ، لأن الشرائع اختلفت في تحريم الخمر ، فبعض الشرائع تحرمه وبعض الشرائع تبيحه ، وعلى هذا التعريف يكون شرب الخمر صغيرة ، لماذا ؟ لأن الشرائع اختلفت فيه ، إذاً فهو غير جامع لخصال الكبيرة ، وهو غير مانع أيضا ، فإن هناك من الصغائر ما أجمعت الشرائع على تحريمها ، فالكذب مجمع على تحريمه في جميع شرائع الرسل ، والسرقة مجمع على تحريمها في جميع

---

(١) رواه مسلم (١٠١) وأبو داود (٣٤٥٢) والترمذي (١٣١٥) وابن ماجه (٢٢٢٤)

شرائع الرسل ، ونجد في شريعتنا أن من الكذب ما هو صغيرة ،مثلوا لهذا فقالوا : لو أن إنسانا كذب كذبة صغيرة لا يترتب عليها ضرر على أحد ولا فساد فإنها تعد من الصغائر ، وكذلك من السرقة ماهو صغير ، مثلوا لذلك فقالوا : لو أن أنسانا سرق حبة برٍّ أو تمرة من مخزن فيه مئات الأطنان ، قالوا هذا ليس بكبيرة ، وإن كان سرقة لعدم تعلق البال والاهتمام به لزهادته وقلته .

ومن الناس من قال إن الكبيرة ليس لها ضابط ، لأن كل ذنب كبيرة بالنسبة لما دونه ، صغيرة بالنسبة لما فوقه ، وهذا يخالف ما جاء في القرآن والحديث من تسمية الذنوب كبائر .

ومنهم من قال الكبيرة هي كل ذنب سدّ باب المعرفة بالله وهذا لا ضابط له لأن الذنوب كلها قد تحجب الإنسان عن معرفة ربه وعن الإقبال إليه حتى الصغائر .

وهناك تعاريف كثيرة أخرى لا يتسع المجال لاستعراضها .

قوله : (وأهل الكبائر من أمة مُحَّد ﷺ في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون) هذا أصل من أصول أهل السنة والجماعة ، أن من مات من أمة مُحَّد فإنه لا يخلد في النار ، بل يكون إما أن يعامله الله سبحانه وتعالى بعفوه وفضله فيكفّر عنه سيئاته ويدخله الجنة من أول وهلة ، وإما أن يعامله بعدله فيعذبه في النار بقدر ذنوبه ثم يخرجه منها إلى الجنة ، فمآل الموحد إذا مات وعليه ذنوب مصرّ عليها – مآله إلى الجنة ، سواء طهر في النار أو أدخل الجنة دون تعذيب ، بشرط أن لا تكون هذه الذنوب شركا .

أما الشرك فلابد من أن يأخذ المشرك عقابه ، فإذا كان شركه أكبر فإنه لابد له من النار ولابد له من الخلود فيها ، وإذا كان شركه أصغر فإنه يعذب في النار ولابد ، لقوله سبحانه وتعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) ولكن يخرج من النار بعد التطهير .

إذاً الفرق بين الشرك الأصغر والكبيرة أن الكبيرة قد يعفى لصاحبها وقد يؤاخذ ، أما الشرك الأصغر فلابد أن يؤاخذ ولا بد أن يطهر في النار بقدر شركه .

فالفرقة الأولى : أهل السنة والجماعة يقولون من مات وهو مرتكب للكبيرة من غير توبة فإنه إما أن يعفو الله عنه وإما أن يدخله النار ثم يخرجه منها إلى الجنة .

ومنشأ مذهبهم هو الأخذ بأحاديث الوعيد وأحاديث الوعد والجمع والتوفيق بينهما وتخصيص العام وتقييد المطلق .

وأما غير أهل السنة والجماعة من فرق المسلمين فإن الخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة بارتكابه لهذه الكبيرة ، يخرجونه من الإيمان ويحكمون عليه بالكفر ويخلدونه في النار إذا مات من غير توبة .

وأما المعتزلة فإنهم أيضاً يخرجونه من الإيمان بمقدار الكبيرة ، ولكن لا يدخلونه في الكفر كما تفعل الخوارج ، وإذا أخرجوه من الإيمان منهم من يقول هو في المنزلة بين المنزلتين – بين الإيمان والكفر – لا يسمى مؤمنا ولا يسمى كافرا ، ومنهم من يقول هو فاسق ولكن في الآخرة إذا مات من غير توبة يتفقون مع الخوارج على أنه خالد مخلد في النار .

ومنشأ مذهبهم أنهم أخذوا أحاديث الوعيد وأهملوا أحاديث الوعد ونبذوها وراء ظهورهم .

الفرقة الرابعة : المرجئة المحضة كالجهم بين صفوان وأتباعه هؤلاء يقولون إن الكبائر لا تضر ، فلا يضر مع الإيمان ذنب ، أي ذنبٍ ارتكبه ، سواء ارتكب المحرمات أو ترك الواجبات ، فلو لم يصل ولم يحج ، ولو ارتكب الزنا والسرقة والقتل وشرب الخمر وغير ذلك فإنه لا يضره ذلك كله ما دام مؤمنا .

والإيمان عندهم هو معرفة الله ، فما دام عارفا بالله فلا يضره ذنب .

ومنشأ مذهبهم أنهم اعتمدوا على نصوص الوعد وأهملوا نصوص الوعيد فلم يلتفتوا إليها .

(ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم)

الشرح : هذا هو أصل مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يطيعون الإمام الشرعي – الإمام الأعظم أو نائبه – ويجاهدون معه ويؤدون الجمع والجماعات خلفه سواء كان برا أو فاجرا ، ولا يردهم في ذلك كونه فاسقا أو جائرا أو ظالما ، فالصلاة خلف الأئمة الفجار هي طريقة أهل السنة والجماعة رضوان الله عليهم ، ولا يقتضي فسق الإمام أو جوره – لا يقتضي معصيته والخروج عليه ، لكن بشرط أن يكون آمراً بالمعروف ناهيا عن المنكر محكما لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ أما إذا حصل منه ما يخرجه من الإسلام فإنه لا يجوز الصلاة خلفه ، ولا تجوز الصلاة عليه أيضا إذا مات (١) .

والإمام الأعظم هو :

١ – من نصّبه المسلمون – انتخبوه – إماما عليهم .

٢ – أو من عَهِدَ له الإمامُ السابق بالإمامة ، ووافقه المسلمون على ذلك .

٣ – أو من استولى على السلطة وخضعت له الأمة ، ودانت له ، وأصبح هو الحاكم .

---

(١) أشار الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن رحمه الله أن المؤمن قد يصلي خلف المرتدين إذا كان لهم شوكة ودولة ويعيد صلاته ، وقد نقل عن عبدالله بن أحمد أن الإمام أحمد كان يعيد صلاة الجمعة وغيرها إذا صلاها خلف المرتدين ، (الدرر السنية ١٠ / ٤٢٢ بتصرف) .

ونقل أبو الحارث عن الإمام أحمد النهي عن الصلاة خلف المبتدع ، إلا إذا خافه فيصلي ثم يعيد .

المسائل والرسائل المروية عن الإمام احمد بن حنبل في العقيدة ٢ / ٤١٥ لعبدالاله الأحمدي .

فمثل هؤلاء الثلاثة هم الأئمة الذين يصلى خلفهم .

أما إذا حصل من أحدهم ما يقدح في إيمانه وإسلامه ويخرجه من الإسلام ، كالردة ، أو الحكم بغير ما أنزل الله ، أو كإلزام المسلمين بالمعاصي ، أو نهيهم عن أداء الواجبات ، فإن هذا لا يصلى خلفه ، كما لا يطاع في أمره ونهيه .

والصلاة خلف الفاسق – غير الإمام الأعظم – للعلماء رحمهم الله خلاف فيها ، منهم من يرى أن الصلاة خلف الإمام الذي نصبه الإمام الأعظم وعينه إماما للناس أن الصلاة خلفه صحيحة ولو كان فاسقا ، وهذا القول تدل عليه العمومات ، كقوله ﷺ لما سئل عن الأئمة الفجار قال : (يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم وإن أخطؤا فلكم وعليهم)(١) ، وكما جاء في بعض الأحاديث وإن كان فيه ما فيه ، قال : (صلوا خلف من قال لا إله إلا الله)(٢) ، و : (صلوا خلف كل بر وفاجر)(٣) ، وكما كان السلف رضوان الله عليهم يصلون خلف الأئمة الفجار كالحجاج وغيره وهم يعلمون أنه جائز ظالم ، كل هذه الأمور ترجح المذهب القائل بالصلاة خلف الإمام الفاسق مطلقا .

ومما يرجح ذلك من حيث المعنى أن الفسق لا يبطل صلاة الإمام الفاسق إذا صلى فصلاته في نفسه ولنفسه صحيحة ، ولم يقل أحد من المسلمين إن صلاته باطلة ، فإذا كان كذلك فمن باب أولى أن تكون صلاة المأموم صحيحة ، وهذا هو أقوى ما يؤيد به ويرجح به هذا القول .

وهناك من الطوائف كالخوارج والمعتزلة من يقول إن الفسق يبطل إمامة الفاسق ولا يصح الائتمام به ، وإذا صلى إنسان خلفه وجب عليه إعادة الصلاة .

و مسألة الصلاة خلف الإمام الفاسق لها باب في الفقه – باب الإمامة – ولكن علماء العقيدة رحمهم الله جرت العادة أنهم يذكرونها في عقائدهم ، لأن هناك من الفرق الضالة من يخالف في ذلك كما ذكرتُ ، كالخوارج والمعتزلة فقد ذكر العلماء هذه المسألة في كتب العقائد للرد على تلك الطوائف الضالة التي ضلت في هذه لمسألة .

أما من أمّ الناس في الصلاة وهو فاسق ، وهو ليس الإمام ولا نائب الإمام فهذه المسألة جرى فيها الخلاف بين الفقهاء ، فالبعض أجاز الصلاة خلفه كالإمام الأعظم ، والبعض أبطلوها

---

(١) رواه البخاري (٦٩٤) .

(٢) رواه الدارقطني بأسانيد ضعيفة وقال : لا يثبت منها شيء .

(٣) رواه الدارقطني والبيهقي بإسناد ضعيف .

وقالوا إن النصوص التي وردت في الحث على الائتمام بالإمام الفاسق كلها تخص الإمام الأعظم ، وقالوا الصلاة باطلة ، ومذهب المتأخرين من الحنابلة أن الصلاة لا تصح خلف الإمام الفاسق إذا لم يكن هو الإمام الأعظم ، كما أشار إلى ذلك في زاد المستنفع في قوله : ولا تصح خلف فاسق كالكافر(١) .

وفي المسألة أقوال للعلماء وتفصيلات .

وكذلك الصلاة على من مات من الأئمة الفسّاق ، ومن الفساق غير الأئمة ، مذهب أهل السنة والجماعة أن الصلاة عليهم مشروعة ولا يجوز ترك الصلاة عليهم ، إلا بعض الفساق كالغال وكالقاتل لنفسه ، ومثل هؤلاء لا يصلي الإمام عليهم وإنما يصلي عليهم المسلمون .

وأما عامة فساق الأمة أعني غير الإمام ونائبه فهؤلاء مذهب أهل السنة والجماعة أن الصلاة عليهم جائزة ، بل هم أحوج في الصلاة عليهم من غيرهم ، لأن الصلاة على الميت معناها الدعاء له ، ومن مات على فسق أو ظلم فإنه أولى أن يصلى عليه من التقي النقي الذي لا تكون حاجته إلى دعاء المسلمين كحاجة الفاسق الظالم الجائر من أبناء المسلمين ، والرسول عليه الصلاة والسلام صلى على الغامدية رضي الله عنهما(٢) ، وعلى أمثالها من الذين ارتكبوا الذنوب ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لما قال له عمر تصلى عليها وقد زنت يا رسول الله قال : (لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم)(٣) والحاصل أن الراجح والذي يتمشى مع مذهب السلف الصلاة على كل مسلم مطلقا .

(ولا ننزل أحدا منهم جنة ولا ناراً)

الشرح : هذه مسألة القطع للمعين بالجنة أو النار ، هذه فيها ثلاثة أقول :

القول الأول : قول السلف وجمهور والمسلمين أننا لا نقطع لمعين بجنة ولا بنار مهما كان عمله ، يعني لو كان ناسكا عابداً مجتهدا في الطاعات ولا نعرف عنه معصية ثم مات فإننا لا نقطع له بالجنة وإنما نرجو له الخير ، ولهذا يقولون نرجو للمحسن ونخاف على المسيء ، إلا من شهد له نص معصوم من القرآن أو من الحديث ينص على أن فلانا بعينة من أهل الجنة نقطع له بذلك ، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : (إن سبعين ألفا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب ولا

---

(١) انظر حاشية الروض المربع لابن قاسم ٢ / ٣٠٦ – ٣٠٩

(٢) رواه مسلم (١٦٩٥)

(٣) رواه مسلم (١٦٩٦)

عذاب) فقام عكاشة ﷺ وقال يا رسول الله :أدع الله أن يجعلني منهم ، قال :(أنت منهم)(١) ، فهذه شهادة من النبي ﷺ لعكاشة بن محصن أنه من السبعين الفائزين الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، إذاً فقطعنا لعكاشة أنه في الجنة من شهادة النبي ﷺ له بذلك ، حتى على الرواية الأخرى أنه قال له : (اللهم اجعله منهم)(٢) وهذا يدل على أنه منهم ، وكذلك من الأمثلة ثابت بن قيس بن شماس ﷺ نشهد له بعينه أنه من أهل الجنة ، لأنه لما نزل قوله تعالى (يا أيها الذين أمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)(سورة الحجرات آية:٢) وكان ثابت ﷺ جهوري الصوت ، لزم بيته يبكي وقال حبط عملي ، لأنه كان يرفع صوته عند النبي ﷺ ، ففقده النبي ﷺ فسأل عنه فقيل له هكذا فقال : ﷺ بل هو من أهل الجنة (٣) ، فشهد له بعينه ، وكذلك الخلفاء الأربعة وبقية العشرة كل هؤلاء نشهد لهم بالجنة بأعينهم .

وكذلك من شهد له النص أنه في النار فإنا تقطع بأنه في النار بعينه كعمرو بن لحي الخزاعي لعنه الله ، لأن النبي ﷺ أخبر أنه رآه ليلة أسري به يجر أمعاءه في النار ، فهذا نص من المعصوم عليه الصلاة والسلام أن هذا لشخص في النار ، وكذلك أبو لهب في قوله سبحانه وتعالى : (سيصلى ناراً ذات لهب)(سورة المسد آية:٣) ، الحاصل أن هذا القول الذي هو قول السلف وجمهور المسلمين أننا نقطع بالجنة ونقطع بالنار للشخص بعينة إذا شهد له نص من القرآن أو الحديث ، أما غيره فمهما كان عمله صالحا أو فاسدا فلا نقطع له بالجنة ولا بالنار .

قالوا دليل هذا المذهب أمران :

الأمر الأول : أننا لا نعلم ماذا تكون عليه خاتمة الإنسان ، من يعمل عملا صالحا لا ندري هل يستمر عليه إلى الوفاة أو يتركه ويرتد ويعود إلى الكفر وكذلك الكافر أو المشرك لا نقطع له بالنار لأننا لا نعلم ما هي الحقيقة أو الحالة التي يموت عليها ، والرسول عليه الصلاة والسلام أخبرنا أن العبرة بالخواتيم حيث قال : (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح) ثم قال ﷺ : (والذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار

---

(١) رواه البخاري (٥٧٠٥) و مسلم (٢١٦)

(٢) رواه البخاري (٦٥٤١)

(٣) رواه البخاري (٣٦١٣) ومسلم (١١٩) .

فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)(١)

الأمر الثاني : أننا لا نعلم بواطن الأمور ، فإذا رأينا إنسانا يعمل الصالحات ويكثر منها فقد يكون في الباطن بخلاف ذلك فقد يعمل الأعمال الصالحات وهو منافق كافر ، والعكس فقد يكون الإنسان يرتكب المعاصي وفيه من الإيمان والخوف والوجل والخشية والندم ، وهو في باطن أمره يكفر ذلك .

القول الثاني : هناك من يقول لا نقطع لمعين مطلقا إلا للأنبياء والرسل فقط ، وهذا لا يعرف له دليل خاص ، وهو قول قيل .

القول الثالث : أنهم يقولون نشهد لمعين بالجنة أو النار إذا شهد له النص أو إذا شهد له المسلمون ، يضيفون إلى المنهج الأول قولهم إذا شهد المسلمون لشخص بعينه ، وهؤلاء يستدلون بما ثبت عنه ﷺ أنه مر بجنازة فأثني عليها خيرا فقال : (وجبت) ومر بأخرى فأثنى عليها شراً فقال (وجبت) فقال عمر ﷺ يا رسول الله ما وجبت فقال : (هذا أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شراً وجبت له النار أنتم شهداء الله في أرضه)(٢) .

ولكن هذا الحديث يجاب عنه بأن شهادة المسلمين للمعين تكون قرينه ترجح حالته التي هو عليها ولا تكفي للقطع بدليل قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر : (توشكون أن تعرفوا أهل لجنة من أهل النار) قالوا بم يا رسول الله قال : (بالثناء الحسن والثناء السيئ ، أنتم شهداء الله بعضكم على بعض)(٣) ، فقوله : توشكون يدل على أنهم لا يقطعون وأن شهادتهم لا تكفي للقطع وإنما هي قرينه ، لأن توشكون من أوشك وأوشك معناها قرب .

فعلى هذا يكون المذهب الراجح هو الأول .

(ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ونذر سرائرهم إلى الله تعالى)

الشرح : قوله : (ونذر) ندع ونترك سرائرهم إلى الله سبحانه وتعالى ما لم يظهر منهم فعل مكفر ، فمجرد إسرافهم في فعل المعاصي وتفريطهم في الطاعات لا نشهد بكفرهم بمجرد ذلك ، لكن لو

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)

(٢) رواه البخاري (١٣٦٧) ومسلم (٩٤٩)

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٢١) و احمد في المسند بسند صحيح (١٥٤٣٩) ت التركي

ظهر من أحدهم فعل يكفر من المكفرات من ردة وغيرها فإننا نكفره .

(ولا نرى السيف على أحد من أمة مُحَمَّد إلا من وجب عليه السيف)

الشرح : ولا نرى السيف على أحد من أمة مُحَمَّد ﷺ ، وفي نسخه : (ولا نرى القتل على أحد من أمة مُحَمَّد ﷺ والمعنى واحد ، ومعنى ذلك أننا لا نحل دم أحد من المسلمين إلا إذا أوجب الشرع وأباح دمه ، كما قال عليه الصلاة والسلام : (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا اله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث :الثيب الزاني ، النفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة)(١) هؤلاء نرى قتلهم ودمهم مباح ، كما قال ذلك عليه الصلاة والسلام .

وكذلك من جحد أركان الإسلام ورفض الإتيان بها فإنه يقاتل ويقتل حتى يأتي بها ، وكذلك تارك الصلاة عند كثير من السلف إذا تركها عمدا من غير عذر وخرج وقتها وضاق وقت ما تجمع إليه ولم يصلها فإنه يقتل ردة ، هذا مذهب أحمد رحمه الله وأصحابه و الأوزاعي والثوري وكثير من السلف ، يقولون من ترك الصلاة عمدا من غير عذر ودعي إليها ولم يصل فإنه يقتل ردة

قوله : **(إلا من وجب عليه شيء)**

الشرح : يعني إلا من حل قتله بمقتضى نص من نصوص الشريعة كما مثلنا .

(ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ، ولا ندعو عليهم ، ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية ، و ندعو لهم بالصلاح والمعافاة)

الشرح : قال سبحانه وتعالى : (يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)(سورة النساء آية:٥٩) فطاعة ولي الأمر عند السلف رضوان الله عليهم واجبة ما لم يأمر بمعصية ، ولا يكفي مجرد ظلمه أو جوره وفسقه لمعصيته والخروج عليه ، ولكن إذا حصل منه ما يضر بالإسلام كتعطيله للجهاد وكتعطيله للحدود وكأمره للناس بالمعاصي أو إباحتها للناس ، أو كنهي الناس عن الحج وغيره ، أو ارتد بأي فعل من أفعال الردة كتحكيم القوانين ونبذ الكتاب والسنة أو ما أشبه ذلك ، فمثل هذا لا يطاع ويخرج عليه إذا أمكن ، إذا قدرت الأمة على الخروج عليه وقد وصل إلى هذه الدرجة فلهم ذلك .

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) وغيرهما .

وطاعة ولاة الأمور وبذل الطاعة لهم يحصل به اجتماع الأمر وعدم الفتن وعدم التفرق وعدم الشقاق ، وهذه المصلحة مصلحة أكبر من المفسدة التي هي فسقهم أو ظلمهم أو معصيتهم ، لكن إذا كانوا يتعاطون ما يضر بأصول الإسلام فإنهم لا يطاعون في ذلك ولهذا ورد وعيد عنه ﷺ في ذلك حيث قال : (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم) : قالوا يا رسول الله : أفلا ننابذهم بالسيف ؟ قال : (لا . ما أقاموا فيكم الصلاة)(١) يعني ما بقوا على الإسلام وتحقيق واجباته والنهي عن ارتكاب المحرمات من ارتكاب المعاصي وغيرها .

الله المستعان ، أئمة اليوم ما فيهم أحد ينطبق عليه هذا الحديث ، كلهم يحكمون القوانين ويعطلون الجهاد ويحتقرون القرآن والسنة ، ويوالون الكفار أعداء الله ويحبونهم وربما فضلوهم على المؤمنين وقدموهم عليهم ، وقدموا آراءهم على آراء المسلمين الصالحين فهذا كله يطعن في إمامتهم ويقدح فيها .

(ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة)

الشرح : السنة في اللغة معناها الطريقة ، وتطلق في الشرع على اطلاقات كثيرة :

تطلق تارة ويراد بها ضد البدعة ، فيقال هذا الأمر سنة وهذا الأمر بدعة .

وتطلق تارة في مقابل الكتاب ، فيقال هذا الأمر ثابت في السنة وهذا الأمر ثابت في الكتاب .

وتطلق تارة في مقابل الفرض ، فيقال هذا الأمر فرض وهذا الأمر سنة .

فأما السنة التي يطلقونها في مقابل البدعة فيراد بها طريقة السلف .

وأما السنة التي تطلق في مقابل القرآن فالمراد بها أقواله وأفعاله وتقريراته ﷺ فأي فعل فعله فهو من السنة ما لم يثبت بيان اختصاصه بذلك كالوصال مثلا ، وأي قول قاله أو أمر به فهو سنة ، وأي فعل فُعل عنده وأقره فهو من السنة أيضا .

وأما السنة التي تطلق في مقابل الواجب والفرض فهي التنفل الذي يؤديه المسلم نفلا ، يكون مسنونا ومطلوبا منه ومندوبا إليه لا على سبيل الوجوب بل على سبيل الاستحباب .

والذي يريده المؤلف هنا في قوله : (ونتبع السنة) يريد بالسنة ما يقابل البدعة .

قوله : (الجماعة) الجماعة في اللغة هم ما زادوا على اثنين فأكثر .

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٥) وأبو داود (٤٧٦٠) وغيرهما

و في الشرع ما اجتمع عليه المسلمون ، أو جماعة المسلمين ، ولا ينظر لكثرتهم أو قلتهم بل من كانوا على الحق فهم الجماعة ، ولو كانوا قليلا ولو كان الذي على الحق واحداً فهو الجماعة كما قال سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين)(سورة النحل آية:١٢٠) علما بأن إبراهيم واحد ولكن لما كان على الحق وصف بأنه أمة ، فالجماعة هم من كانوا على الحق ، سواء أكانوا أكثر من غيرهم أو أقل من غيرهم .
والكثرة غالبا تكون بخلاف الصواب كما قال سبحانه وتعالى (وإن تطع أكثر في الأرض يضلوك عن سبيل الله)(سورة الأنعام آية:١١٦) فالكثرة ليست عبرة في الإتباع والأخذ بل العبرة بالإتباع والأخذ هو ما كان عليه السلف الصالح ومثله عن النبي ﷺ ، وقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى هذا المعنى في قوله : (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقه وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقه وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقه كلها في النار إلا واحدة)(١) قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)(٢) وجاء في بعض ألفاظ الحديث أنه قال : (وهي الجماعة)(٣) .
أما قوله : (الشذوذ والخلاف) فهو مخالفة المسلمين والشذوذ عن طريقهم ، لأن اتباع جماعة المسلمين أصل من أصول أهل السنة والجماعة – يتبعون الجماعة ويجتنبون الفرقة والخلاف والشذوذ .

قوله : (والفرقة) معناها ما يقتضي تفرق المسلمين أو يقتضي إيقاع خلاف بين المسلمين في أمر من الأمور ، والشذوذ عن طريقة السلف رضوان الله عليهم ، والتفرق مذموم شرعا (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء)(سورة الأنعام آية:١٥٩) ، (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)(سورة آل عمران آية:١٠٣) ، وكثير في القرآن ذم الفرقة لأنها تحدث ضعفا في الأمة وانشقاقا وشرخا في قوة الأمة .

---

(١) رواه احمد في المسند (٨٣٩٦ ، ١٢٢٠٨) والترمذي (٢٦٤٠) وقال حديث حسن صحيح ، قال ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٣٤٥/٣) : الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد .
(٢) رواه الترمذي (٢٦٤١) وسنده حسن .
(٣) رواه أبو داود (٤٥٩٦) والدرامي ٢٤١/٢ واحمد (١٦٩٣٧) ، وابن ماجه (٣٩٩٢) .

والمسلمون كانوا في عصر الصحابة رضوان الله عليهم ومعظم التابعين على السنة إلى أن ظهرت رؤوس البدع التي حرفتهم عن السنة وأوجدت الفرقة والخلاف كما حصل من الذين أحدثوا مذهب القدرية في الأمة ومن الذين أحدثوا مذهب الروافض ومذهب الخوارج وغيرهم هؤلاء جاءوا بعد عصر الصحابة رضوان الله عليهم وإن كان بعض البدع والشبه والضلالات وجدت في عصر الصحابة كنفي القدر ، بل وجذور هذه البدع كانت موجودة في عصر النبي ﷺ:

فشبهة القدرية ونفي القدر كانت موجودة كما في قوله سبحانه وتعالى : (الذين قالوا لإخوانهم لو أطاعونا ما قتلوا)(١) هذا دليل على نفي القدر و أنهم ما أقروا بالقدر ولكن قالوا : (لو أطاعونا ما قتلوا) معناه أنهم ما التفتوا إلى القضاء والقدر وما نظروا إليه ولا أيقنوا بأن ذلك أمر مقدر عليهم .

وكذلك شبهة الجبرية أصلها موجود في قوله سبحانه وتعالى : (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) فقولهم هذا يساوي قول الجبرية تماما ، لأن معنى الآية أنهم يقولون لو شاء الله عدم إشراكنا ما أشركنا ولكنه شاء إشراكنا فأشركنا ، فهم يحتجون على جواز الشرك بالقضاء والقدر كونه أمراً مقدراً عليهم .

وكذلك شبهة الخوارج ظهرت بذورها في عهده ﷺ حينما قال ذو الخويصرة : يا مُحَمَّد اعدل فإنك لم تعدل ، فقال عليه الصلاة والسلام : (ويلك من يعدل إذا لم أعدل)(٢) وفي لفظ قال : (يخرج من ضئضئ(٣) هذا الرجل قوم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم عن الرمية)(٤) ، يعني الخوارج ، فأصول الشبهة موجودة على عهده ﷺ ، وظهر بعضها في عصر الصحابة ولكن ظهورها كمذاهب لها أصول ولها قوانين ولها أئمة جاء متأخرا كما ظهرت بدعة المعتزلة في أئمة المعتزلة كواصل بن عطاء وأبي هذيل العلاف وعمرو بن عبيد وغيرهم ، فظهور بدعة الخوارج كان في عهد علي رضي الله عنه في أواخر عهد الصحابة حينما خرجوا عليه وقاتلوه .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[سورة آل عمران ١٦٨]

(٢) رواه البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤)

(٣) أي من أصله ونسله . أنظر اللسان مادة ضأضأ . وذكر لنا الشيخ حمود رحمه الله في أحد دروسه أن عمود الظهر يسمى ضئضئ .

(٤) رواه البخاري (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٤) .

وكذلك بدعة الرافضة أيضا خرجت في أواخر عهد الصحابة حينما دعا إليها اليهودي الذي جاء مدعيا الإسلام وسمى نفسه عبد الله بن سبأ ، فهذا وقت ظهورها وهو الذي تبناها ، علما بأنه أول من قاد الناس إلى بدعة الخوارج فإنه أول من خطط للخروج وقاد الناس حينما دعا إلى الثورة على عثمان ﵁ وقاد أهل الشام وبعض المتمردين للثورة المسلحة عليه ﵁ ، حتى قتلوه وخلعوه من الحكم .

الحاصل أن السنة والجماعة هي الطريقة التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه .

(ونحب أهل العدل والأمانة ونبغض أهل الجور والخيانة)

الشرح : العدل والأمانة معناهما أن يكون الإمام عادلا أمينا على حقوق الأمة ، والجور والخيانة معناه أن يكون الإمام جائرا ظالما وخائنا لأمته ودينه ، فهو يقول نحب هؤلاء ونبغض هؤلاء ، وليس معنى قوله : (نبغض أهل الجور والخيانة) ما يفهم منه أنه يدعوا إلى الخروج على الإمام إذا جار أو ظلم أو خان ، وإنما يبين أنه لا تلازم بين السمع والطاعة للإمام وبين بغضه ، فإنه يكون إماماً شرعياً ولو كان يبغضه المسلمون لظلمه وجوره وخيانته ، لأن هذا لا يقدح في إمامته ويبيح الخروج عليه .

لكن الخيانة تختلف ، إذا كانت الخيانة تضر الإسلام ومسيرة الإسلام بأن كانت الخيانة هي تقريب الكفار وموالاتهم والاعتماد عليهم دون المسلمين ، أو كانت الخيانة معناها تعطيل شرائع الله وإبدالها بتحكيم القوانين فهذه الخيانة تبيح الخروج على الإمام .

أما الخيانة التي معناها أخذ أموال الناس أو محاباته في الوظائف أو الأعمال فهذه خيانة ولكنها لا تقتضي الثورة عليه والخروج عليه .

(ونقول الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه)

الشرح : يعني ما علمناه قلنا به واعتقدناه وحكمنا به ، وما اشتبه علينا علمه نرد علمه إلى عالمه كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله (فأما الذي في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)(سورة آل عمران آية:٧) وكما جاء عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال : (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)(١) يعني سماهم بقوله تعالى : (وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) .

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥) .

الحاصل أن المسلم يجب عليه تجاه نصوص القرآن والحديث أنه إذا علم معنى النص اعتقده إن كان عقيدة ، أو عمل به إن كان شريعة ، أو صدقه إن كان خبرا ، وإذا اشتبه عليه ذلك فإنه يرد إلى الله ، فيقول الله أعلم بذلك .

والمؤلف يشير رحمة الله إلى ما حدث للأمة من التفرق والاشتباه بسبب الشبة التي تعْرِض للناس ، فمن أجل هذا الاشتباه ومن أجل عدم رده للمحكم يقع العبد في الخطأ ، سواء كان خطأ اعتقاديا أو خطأ شرعياً ، فعلينا الإيمان بما علمناه والتصديق به والعمل به ، وعلينا تجاه المتشابه أن نرده إلى الله سبحانه وتعالى إلا إذا أمكن تبيينه بالمحكم فإننا نرده إلى المحكم ونبينه به .

(ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر كما جاء في الأثر)

الشرح : المسح على الخفين مسألة فرعية فقهية محضة .

ولهذا يُسأل : لماذا ذكر المؤلف رحمه الله مسألة المسح على الخفين في المعتقد وهي من مسائل الفقه ؟

يجاب عن هذا كما قلت في مسألة الإمامة : أنه لما كان هناك من يعارض أو ينكر هذه السنة الثابتة كالرافضة جرت عادة المؤلفين في المعتقدات أن يذكروا هذه المسألة ليبينوا أن السنة الأخذ بها وأن عدم إتباعها من علامات الابتداع و الرفض .

والمسح على الخفين ثابت عنه ﷺ في أحاديث كثيرة ، قال الإمام أحمد رحمه الله ليس في نفسي شي من المسح ، فيه أربعون حديثا عن النبي(١) ﷺ ، وذهب الجمهور إلى أن أحاديث المسح من قسم المستفيض ، ولكن ذهب علماء الحديث إلى أنها من المتواتر ولذا ذكرت مع بعض المسائل التي ذكر أنها متواترة ، وقد جمعها بعضهم في بيتين :

مما تواتر حديث من كذب
ومن بنى لله بيتا واحتسب
شفاعة ورؤية والحوض (٢)

---

(١) انظر المغني لابن قدامة ٣٦١/١ ت التركي .

(٢) ينظر نظم المتناثر من الحديث المتواتر لمحمد بن جعفر الكتاني ١ / ١٨

مما تواتر عند هذا الناظم حديث (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعدة من النار)(١) وحديث : (من بنا لله بيتا بنى الله له بيتا في الجنة)(٢) وكذا الشفاعة ورؤية الله سبحانه ، وحوض نبينا مُحَّمد ﷺ، هذه الأمور يرى صاحب هذا النظم أنها من المتواتر ، وكذا أحاديث المسح فقوله : ومسح الخفين وهذى بعض . أي هذه بعض ما جاء متواترا عن النبي ﷺ.

والمسح على الخفين تدرس في باب المسح على الخفين في الفقه ، والقواعد الثابتة أن المسح سنة ، وأنه للمقيم يوم وليلة وللمسافر ثلاثة أيام بلياليها ، وأن ذلك يكون في الحدث الأصغر وأما الحدث الأكبر فلابد فيه عند الاغتسال من خلع الخفاف ، ولابد أن يكون الخف مباحا طاهرا ساترا ، وأن يكون لبسه على طهارة .

وهناك مسائل كثيرة خالف فيها المبتدعة أهل السنة والجماعة وذكرت في المعتقدات ، منها مسألة الإمامة ومسألة المسح على الخفين كما ذكرنا ، وهناك مسائل أخرى كالحج والجهاد مع الإمام لكن التي يشتهر فيها الخلاف مع المبتدعة هي التي يذكرها أهل العلم في معتقداتهم .

(والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم و فاجرهم إلى قيام الساعة ، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما)

الشرح : أي قيادة الإمام للمسلمين في الحج ، هذا أمر واجب عند أهل السنة والجماعة لابد للمسلمين من إمام يقودهم ويدبر أمرهم فيه ، ولا ينقطع هذا الوجوب إلى قيام الساعة ، وكذلك الجهاد .

والجهاد واجب مع كل إمام براً كان أو فاجراً ، لا يشترط للإمام أن يكون تقيا براً ، لا في مسألة الجهاد ولا في مسألة الحج ولا في مسألة إمامة الجمع والجماعات بل إذا كان إماما للمسلمين أو نائبا لإمام المسلمين فإنه يصلي بالناس ويحج بهم ويقودهم في الجهاد ولو كان فاجرا ، لأن المصلحة تقتضي ذلك .

---

(١) رواه البخاري (١١٠) ومسلم (٣) .

(٢) رواه البخاري (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣)

والجهاد هو ركن من أركان الإسلام فلا يتم إسلام بدون جهاد ، وهو دائم مستمر لا ينقطع حتى تقوم الساعة كما أخبر عليه الصلاة والسلام أن الهجرة باقية إلى قيام الساعة(١) والهجرة من الجهاد – مهاجرة الإنسان من بلاد الكفار إلى بلاد المسلمين نوع من الجهاد ، وجهاد الكفار كذلك واجب ، مات النبي ﷺ وهو واجب وفرض لم ينسخه شيء .

ووجوب الجهاد على الكفاية ، يعني يجب على المسلمين عموما أن يجاهدوا لكن وجوب كفائي إذا قام بالجهاد من يكفي من الأمة سقط التكليف والإثم عن الباقين ، إلا في بعض الحالات يكون فيها الجهاد فرض عين :

الحالة الأولى : لو استنفر الإمام شخصا بعينه وجب عليه النفور والالتحاق بالمجاهدين .

الحالة الثانية : إذا حضر المسلم المعركة وجب عليه نصرة المسلمين : إذا قامت معركة بين المسلمين والكفار وحضرها بعض من المسلمين وجب عليهم الدخول والقتال مع إخوانهم المسلمين ، ولا يقولون هذا فرض كفاية وإخوانهم فيهم كفاية .! لا . حتى لو كان فيهم الكفاية ، إذا حضروا تلاحم الصفوف والمعارك فإنه يجب عليهم وجوبا عينيا .

الحالة الثالثة : إذا حاصر العدو البلد ، وخيف من سقوطها بيده فإنه يجب على كل مسلم بعينه أن يقوم ويشارك في الدفاع عن البلد .

أما في غير هذه المسائل الثلاث فالجهاد فرض كفاية إذا قام به من يكفى سقط الإثم عن الباقين .

ولما كان الجهاد هو أساس قيام دولة المسلمين و نصرتهم ، وهو الذي به تقوى الأمة كان أعداء الإسلام يحاولون إيقاف الجهاد و إضعافه أو تعطيله ، ولهذا تجد أعداء الإسلام يوجدون جماعات وفرق تدعوا إلى تعطيل الجهاد ، كالقاديانية ، فإن من أصول القاديانية تعطيل الجهاد وعدم الوقوف في وجه الدولة ، فقالوا يجب على الناس أن يهملوا الجهاد ويعطلوه فلا يكون له أثر ولا مكان .

ومن الفرق التي تدعوا إلى ذلك جماعة التبليغ ، فإن من الأصول التي تدعو إليها تعطيل الجهاد وإيقافه ، وأن يكتفى عن الجهاد بالخروج للقرى والأرياف وغيرها للدعوة وتذكير الناس .

---

(١) روى أحمد (١٦٩٠٦) وأبو داود (٢٤٧٩) والنسائي (٤١٧٢) أن النبي ﷺ : (لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار) .

وكلا الفرقتين حدوثهما كان من مؤامرات الإنجليز (١) ، فإن الإنجليز هم الذين أوجدوا القاديانية في الهند وباكستان وهم الذين أوجدوا جماعة التبليغ ودعوا إليهما في الهند وباكستان أيضا ، ولأنهم كانوا يعرفون أهمية الجهاد ويعلمون تحمس المسلمين للجهاد قاوموه بإحداث فرق تدعو إلى تعطيله وإيقافه .

ولا يقوم أمر المسلمين بدون الجهاد إطلاقا ، ولا ينفع في المسلمين سواه ، وهو هدفهم ومطلبهم ، لأن دولتهم ما قامت إلا على الجهاد ، ولهذا لما كادت تبدأ المعركة بين المسلمين والروم في غزوة مؤتة ورأى الروم صرامة المسلمين وحبهم للقتال وحرصهم على بدء المعركة أرسلوا رسولهم إلى خالد بن الوليد فقال الرسول لخالد : يقول لك القائد نحن نعلم أنكم ما أخرجكم من بلادكم إلاّ الحاجة والجوع وطلبكم للرزق فهل لكم أن نعطيكم أموالا لكم ولأميركم الذي أرسلكم وتكون عادة لكل سنة ؟ فقال خالد : قل له إنه واهم في ظنه هذا ، نحن ما خرجنا إلا للجهاد ، نحن قوم نحب دماء أعدائنا الكفار ، وقد ذكر لنا أنه لا أحلى من دم الروم فجئنا لنشرب من دمهم ، فلما سمع قائد الروم هذا الكلام انهارت معنوياتهم وضعفت ، وحصلت المعركة وأسفرت عما تعلمون .

---

(١) لجأ المحتل الصليبي الانجليزي لبلاد الهند قبل قرنين تقريبا إلى بعض من يتظاهر بالعلم لكي يستصدروا منهم فتوى تقول بأن الجهاد في حالة عدم التكافؤ بين قوة المسلمين وقوة المحتل عبارة عن عبث ومضيعة للنفس والمال ، وأن المستعمر مادام أنه لا يتدخل في الصلاة وأداء الفرائض فلا تكون البلاد الإسلامية المحتلة بلاد حرب ، وكان الغرض من هذه الفتوى هو إبطال الفتوى القديمة التي أصدرها الشيخ شاه عبدالعزيز الدهلوي ابن الإمام ولي الله الدهلوي (ت ١٢٣٩) سنة ١٨٠٣ م والتي تقول بأن دار الإسلام إذا احتلها الكافر فهي دار حرب ، ولو أقيمت فيها الصلاة والشعائر الإسلامية ، وقد كون المسلمون بهذه الفتوى جيشا لحرب الانجليز والسيك حتى وقفت ضدهم القاديانية وغيرها بعد وعد الصليبيين لهؤلاء الخونة ووعيدهم .

والجدير بالذكر أن الصليبيين أثّروا على أولئك المسترزقة لكي يحرضوا بعض علماء مكة المهاجرين من الهند ليؤيدوا فتواهم بمنع الجهاد ، وفعلا أصدرت تلك الفتوى عام ١٨٧٨ م بتوقيع تسعة منهم ، وهي فتوى تدل على مدى تخوف المحتل الصليبي من نشر فقه الجهاد بين المسلمين .

وفتوى الشيخ شاه ولي الله موجودة في كتاب (فتاوى عزيزية) للشاه عبدالعزيز باللغة الفارسية طبع دلهي ص ١٦ – ١٧ ، وفي كتاب (تاريخ الإسلام في الهند) . وفي فتاوى الشيخ عبدالرحمن السعدي ص٨٦ ذكر أن البحرين والعراق إبان احتلال الانجليز السابق تعتبران دار حرب وإن كان بها كثير من المسلمين لأن الحكم فيها والنفوذ للكفار ، وأحكام الكفر تجري فيها ، وهو قول ابن حجر (تحفة المحتاج ١٢/١٠٨-١٠٩) وقول إسحاق بن عبدالرحمن آل الشيخ (الأجوبة السمعيات ص ٧١) وابن سحمان (منهاج أهل الحلق ص ١٠٢) .

(ونؤمن بالكرام الكاتبين ، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين)

الشرح : الكرام الكاتبون هم الملائكة الذين يكتبون أعمال العباد ، لأن الله سبحانه وتعالى وكل بالعبد عند بلوغه ملكين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال يكتبون أفعال العبد وأقواله حتى النيات ، يطلعهم الله على ما ينويه الإنسان فيسجلونه ، والله سبحانه وتعالى أخبر عن ذلك في الكتاب العزيز فقال : (وإن عليكم لحافظين *كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون)(سورة الإنفطار آية:١٢-١٠) وقال بالنسبة لكتابة الأقوال : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)(سورة ق آية:١٨) أما بالنسبة لكتابة ما يَهِمُ به العبد وينويه فيستدل عليه بقوله تعالى في الحديث القدسي : يقول الله تعالى لملائكته : (إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا)(١) ، وهذا دليل على أنهم يكتبون ما يَهِمُ به الإنسان ولا يقال إنهم يعلمون الغيب ، الله سبحانه وتعالى يطلعهم على ذلك فيعلمونه ويكتبونه .

وهناك ملائكة غير الكرام الكاتبين ، هناك ملائكة حفظة وهم الذين وكلوا بالإنسان يحفظونه من أمر الله أو يَحفظوا بأمر الله كما قال سبحانه : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)(سورة الرعد آية:١١) الله سبحانه وتعالى جعل جماعات الملائكة المعقبين يحفظون الإنسان من ورائه ومن أمامه ، فقوله (يحفظونه من أمر الله) أي بأمر الله ، وليس المعنى أنهم يحفظونه ويمنعون أمر الله من أن يقع به ، بل يحفظونه وحفظهم له حاصل بأمر الله لهم بذلك ، وحرف (من) وحرف (الباء) كثيرا ما يتناوبان ، وله أمثلة كثيرة من قول العرب ، كقول الشاعر (٢) :

شربن بماء البحر ثم ترفعت ***متى لجج خضر لهن نئيج

فقوله : شربن بماء البحر ، أي شربن من ماء البحر ، فالباء هنا جاءت بدلا من (من) ، وكذلك (يحفظونه من أمر الله) ، (من) جاءت بدلا من (الباء) ، وقوله : شربن بماء البحر يعني روينا بماء البحر ، وشرب لا يعدى بـ (الباء) لا يقال شربت بماء كذا وإنما يؤول أو يفسر بروي ، وهذا كثير يأتي في اللغة العربية كقول الشاعر :

(١) رواه البخاري (٧٥٠١) ومسلم (١٢٨)

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي ، ينظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ت مُحَّد محي الدين عبدالحميد ١٠/٢

علفتها تبناً وماءاً بارداً ***حتى شتتْ همالة عيناها (١)

فالماء لا يعلف ، ولكن يقولون : إنه ضمنه فعلا يؤدي الأمرين ، ومعنى علفتها : (ناولتها) أو أعطيتها تبنا وماء ، أو أطعمها ، أو أن ذلك يؤول بوجه آخر فيكون هناك فعل محذوف هو العامل بالماء ، فيكون المعنى علفتها تبنا وسقيتها ماءا وهذا وجه آخر .

ومثل هذا البيت أيضا بيت الشاعر الذي يقول فيه :

إذا ما الغانيات برزن يوما * وزججن الحواجب والعيونا (٢)**

التزجيج خاص بالحواجب ، فخرج على أحد الوجهين ، كما خرج في البيت السابق ، قالوا إنه ذكر فعلاً – الذي هو التزجيج – يصلح للأمرين ، فيكون زججنا بمعنى حسنّ ، أي حسنّ الحواجب وحسنّ العيون ، وحسنّ تصلح للحواجب وتصلح للعيون ، أو الوجه الآخر : يقدر للعيون فعل مناسب محذوف فيكون المعنى : زججنا الحواجب وكحلنا العيون ، والتزجيج هو الأخذ من الحواجب مأخوذ من الزّج ، و زج الرمح دقيق جداً فتدقق حواجبها وتجعلها كزج الرمح .

والكرام الكاتبون ملائكة يتعاقبون ، كما قال ﷺ : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم – وهو أعلم بهم – : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون)(٣) .

وقوله : (يتعاقبون فيكم ملائكة) استعمل ﷺ لغة : أكلوني البراغيث ، ولغة أكلوني البراغيث هي أن يأتي بعد ضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب اسم ظاهر .

(الواو) هنا في (يتعاقبون) عبارة عن فاعل ، لكن (ملائكة) ماذا نفعل بها ؟

قالوا يخرج على أحد ثلاثة أوجه :

١– إما أن يكون الاسم الظاهر بدلا من الضمير فيعرب إعرابه ، يكون الضمير هو الفاعل والاسم الظاهر الذي يأتي بعده بدلا منه ، فنقول الواو هنا فاعل و (ملائكة) بدل من الواو .

---

(١) البيت نسبه الفراء إلى بعض بني أسد في معاني القران ١ / ١٤ وفي ٣ / ١٢٤ نسبه إلى بعض بني دبير ، وانظر خزانة الأدب ٣ / رقم ١٨١

(٢) البيت للراعي النميري واسمه عبيد بن عمير ، ينظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ت محيي الدين عبدالحميد ٢٢١/٢

(٣) رواه البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢)

٢– أو يقال تكون الجملة اسمية وملائكة مبتدأ مؤخر ، و (يتعاقبون فيكم) فعل وفاعل ،وتكون الجملة في محل رفع خبر مقدم كأنه يقول : ملائكة يتعاقبون فيكم ، فقدم الخبر على المبتدأ .
٣– وهناك وجه آخر وهو أضعف الوجوه : أن يجعل الضمير حرفا فيقال عند إعراب يتعاقبون : الواو حرف دال على الجمع ، وملائكة فاعل ، لكن هذا أضعف التوجيهات .
وهذه اللغة وإن كانت لقبيلة خاصة من العرب إلا أنها كثيرا ما تأتي في شعر الشعراء ، يقول الشاعر:

يلومونني في اشْتراء النخيل أهلي ، فكلهمُ يعذل (١)

فأهلي بدل من الواو في يلومونني ، أو على حسب الأوجه الثلاثة التي سبقت .
ومثله قول الشاعر :

رأين الغواني الشَّيب لاح بعارضي
فأعرضن عني بالخدود النواظر (٢)

النون في رأين فاعل ، و الغواني إما بدل منه وإما مبتدأ مؤخر ، وإما أن تكون النون حرفا دالا على جمع النسوة كالتخريج السابق .

(ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين)

الشرح : ملك الموت هو من ملائكة الله وكّله الله بقبض أرواح العباد ، فما من عبد يموت إلا وهناك ملك يقبض روحه ويسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان صالحا أو ملائكة العذاب – والعياذ بالله – إن كان غير ذلك ، كما قال سبحانه وتعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم)(سورة السجدة آية:١١).
والكلام على ملك الموت عادة يتطلب الجمع بين آيات وردت في التوفي كقوله سبحانه وتعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم) وقوله في آية أخرى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها) (سورة الزمر آية:٤٢)وقوله في آية أخرى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا)(سورة المؤمنون آية:٩٩)

(١) ينظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١/ ٤٢٧
(٢) ينظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٤٢٨/١

ففي إحدى الآيات ملك الموت هو الذي يتوفى الأنفس وفي الأخرى الله هو الذي يتوفى الناس وفي الثالثة رسل الله هم الذين يتوفون الإنسان .

والجمع بين هذه الآيات متيسر والحمد لله :

وذلك أن الله يتوفى الأنفس بمعنى أنه قضى عليها الموت وأمر ملك الموت بقبضها ، فتوَفي الله معناه قضاء الأمر ، وتوفي ملك الموت هو مباشرةُ قبض أرواحهم ، وأما : (توفته رسلنا) فالمراد بهم ملك الموت وأعوانه ، لأنه يقبضها ثم يسلمها لأعوانه من ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب .

والإيمان بملك الموت من أصول أهل السنة والجماعة ، يؤمنون بأن هناك ملكا سخره الله وكلفه بتوفي عباد الله .

وقد يرد إشكال فيقال : كيف يمكن لملك الموت أن يقبض الناس لو مات جماعة في غرق أو حرق أو هدم أو في معارك يموتون جميعا ، كيف يتمكن من قبض أرواحهم جميعا وهو واحد ؟

والجواب عليه أن يقال : هذا السؤال يوجهه الذي لا يعلم قدرة الله سبحانه و تعالى ولا يتصور عظمة الله سبحانه وتعالى ، فإن الله يقدره على ذلك في لحظة واحدة ، ولهذا لو أن إنسانا قبل مائة سنة يتكلم في أمريكا ثم يسمعه العالم جميعا في لحظة واحدة هل يصدق ذلك ؟ لا يمكن أن يصدق ، لكن رأيناه الآن بأعيننا ، فما دام أنه أمكن في الدنيا أن يقع ما كان مستحيل التصور قبل مائة سنة – قبل أن يقع – فكذلك قدرته على قبض أرواح الناس جميعا في آن واحد متصور ، بمعنى أن الله يجعل ذلك في إمكانه وفي قدرته .

(وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً ، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه ، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله (وعن الصحابة رضوان الله عليهم)

الشرح :من أصول مذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بعذاب القبر في البرزخ لمن كان أهلا لذلك.

والبرزخ في اللغة : الفاصل كما في قوله تعالى (وجعل بينهما برزخا)(سورة الفرقان آية:٥٣) ، وسميت الفترة التي تبدأ بموت الإنسان وتنتهي ببعثته يوم القيامة برزخا لأنها تحجز بين الدنيا والآخرة ، وقد أشار القرآن إلى البرزخ في قوله سبحانه تعالى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)(سورة المؤمنون آية:١٠٠-٩٩) .

ومن أصرح الأدلة على عذاب القبر من كتاب الله قوله عز وجل : (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)(سورة غافر آية:٤٦) .

ومن أصرح ما ورد في السنة على ذلك قوله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال مر النبي ﷺ على قبرين فقال : (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير – وإنه لكبير – أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة) ثم دعا بجريدة فشقها نصفين ثم وضع على كل قبر شق ثم قال : (لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)(١) .

مر بقبرين فقال (إنهما ليعذبان) خبر بمؤكدين (إن) و (اللام) لأن الخبر تارة يكون مجرداً وتارة يكون مؤكداً ، فالمجرد لو قال : يعذبان صاحبا هذا القبر أو صاحبا هذا القبر يعذبان ، هذا خبر مجرد مرسل عن التوكيد لكنه قال (إنهما ليعذبان) واللام هنا موطئه للقسم والخبر منه صلى الله عليه وسلم إذاً فنقطع بأن عذاب القبر يقع في البرزخ وأنه حق .

ومن أدلة عذاب القبر ونعيمة أيضا حديث البراء بن عازب ﷺ قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا كان العبد المؤمن في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة جاءته ملائكة كأن وجوهم الشمس ، فجلسوا منه مد البصر ، ثم يأتي ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها الروح الطيبة أخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج تسيل كما تسيل قطرة من فيّ السقا ، فيأخذها ملك الموت فإذا أخذها لم يدعها ملائكة الرحمة في يده طرفة عين – وأخبر أن مع كل واحد منهم كفن وحنوط من الجنة ، فيضعون الروح في هذه الأكفان ويصعدون بها إلى السماء ثم يؤمرون بالرجوع بها إلى صاحبها – قال فيفسح له في قبره مد بصره ، ويفتح له باب إلى الجنة ويرى منزله فيها ، ويأتيه من روح الجنة ونعيمها من هذا الباب الذي فتح له) فهذا شاهد على نعيم القبر .

قال : (وإذا كان العبد الكافر في انقطاع من الآخرة وإقبال على الدنيا نزلت ملائكة سود الوجوه ومعهم المسوح – والمسوح هي نسيج من الصوف الخشن لكنها من نار – ويأتي ملك الموت ويجلس عند رأسه ويقول أيتها الروح الخبيثة أخرجي إلى غضب من الله وعذاب ، أو كما قال ﷺ قال فتتفرق في بدنه لا تريد الخروج إلى هذه العذاب ، قال فيجتذبها وينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول – السفود الشوك إذا علق بالصوف يصعب جدا انتزاعه منه لاسيما إذا صار الصوف مبلولا – قال فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يضعوها في تلك الأكفان – والعياذ بالله – فيصعدون بها إلى السماء ثم لا يفتح لهم ويطرحونها في الأرض طرحا فتذهب إلى جسد صاحبها ثم يقعد ويفتح له باب إلى النار ويأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٥) ومسلم (٢٩٢)

قبره – والعياذ بالله – حتى تختلف إضلاعه) (١).

نسأل الله العافية ، وهذا من شواهد عذاب القبر والحديث مخرج في السنن ، والآثار من ذلك كثيرة ، منها أن يهوديتين دخلتا على عائشة ﵂ فقالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتهما ، ولم أنعم أن أصدقهما فخرجتا ، ودخل علي رسول الله ﷺ فقلت له : يا رسول الله إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا علي فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم فقال : (صدقتا ، إنهم يعذبون عذابا تسمعه البهائم)(٢) .

وأما المعتزلة وبعض الملاحدة من فلاسفة وغيرهم فإنهم أنكروا عذاب القبر وقالوا لا يعقل أن الإنسان إذا مات وتحلل جسمه وتحول إلى مواد أخرى لا يقبل العقل أنه يعذب أبداً ، ولكن هذا اتباع للعقول الفاسدة التي هي أحقر من أن تدرك تلك الأسرار وتلك الحقائق التي تكون غائبة عنا.

وعذاب القبر يكون للمقبور وغير المقبور ، إذا مات الإنسان وهو مستحق لعذاب القبر عذب ، وإذا مات وهو مستحق لنعيم القبر نعّم ، سواء قبر أو ترك على ظهر الأرض أو أحرق أو أكلته السباع فلابد أن ينال من عذاب القبر أو نعيمه ما قسم له ، على الكيفية التي يريدها الله سبحانه وتعالى ، ومعرفة حقيقة العذاب غير معرفة كيفية العذاب ، فإن الذي أُمرنا به وكُلفنا به هو اعتقاد حصول العذاب وحصول النعيم أما كيف يكون العذاب وكيف يكون النعيم فهذا لم يخبرنا عنه المعصوم ولن تشاهده عقولنا وتطلع عليه ، فالله سبحانه وتعالى طوى علمه عنا فلا نكلف أنفسنا بالتخرص والتحري ، فإذا كان كذلك فعلينا إذاً علينا أن نكل علمه إلى الله سبحانه وتعالى ، فنقول يعذب في قبره وينعم في قبره على كيفية يعلمها الله سبحانه وتعالى .

والعذاب والنعيم :

قيل للروح والجسد جميعا وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ، إلا أن نصيب الروح منه أكبر من نصيب الجسد .

وقيل للروح فقط ، وهذا قول ينقل عن بعض أهل السنة .

وقيل للجسد فقط ، وهذا قول باطل لا يدل عليه دليل .

---

(١) حديث طويل رواه أبو داود (٤٧٥٣) و أحمد في المسند (١٨٦١٤) ت التركي وغيرهما ، وصححه ابن القيم في الروح ص ٧٦ .

الشيخ رحمه الله ذكر الحديث مختصرا ، وله أصل في الصحيحين رواه البخاري (١٣٦٩) ومسلم (٢٨٧١) .

(٢) رواه البخاري (٦٣٦٦) ومسلم (٥٨٦).

أما القول الأول فهو مذهب أهل السنة والجماعة ، بدليل العمومات ، كحديث البراء بن عازب : (إذا كان العبد في انقطاع من الدنيا ..) (١) الحديث ، والعبد اسم للروح والجسد جميعا .
وابن القيم رحمه الله ذكر أن للروح في الجسد ثلاث تعلقات (٢):
١ – تعلقها به في الدنيا وهذا تختلف فيه الأحكام ، أحكام النعيم والعذاب بين الروح والجسد .
٢ – وتعلقها به في البرزخ وهذا تختلف فيه أيضا الأحكام .
٣ – وتعلقها به بعد البعث أي يوم القيامة .
قال : فأما في الدنيا فالعذاب والنعيم يكون للبدن ، وينال الروح قسط منه على سبيل التبعية ، فإذا تعذب البدن تعذبت الروح وإذا تنعم البدن تنعمت الروح ، ولكن عذاب البدن وعذاب الروح أقوى ، فإذا كان في البرزخ انعكس الأمر فيكون العذاب والنعيم للروح والبدن ، ولكن نصيب الروح من العذاب والنعيم أقوى من نصيب البدن ، فتعذب الروح ويعذب البدن تبعا للروح ، وأما في الآخرة فيكون العذاب والنعيم للروح والبدن جميعا ، وكل من البدن والروح يحس بالعذاب إحساسا كاملا .

(والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران)

الشرح : القبر روضة من رياض الجنة على من أراد الله نعيمه ، وحفرة من حفر النيران إذا أراد الله لصاحبها العذاب ، وقد قال عليه الصلاة و السلام : (لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي اسمع منه)(٣)، وهذا استدل به بعض الجهلة أن من لم يقبر لا يعذب ، ولكن هذا فهم باطل لأنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك بناء على ما يَظن أن الناس يتوهمون بأن الذي لا يقبر لا يعذب ، فكأنه يقول عليه الصلاة والسلام بناء على هذا الوهم – وهمكم – أنا لا أدعوا الله أن يسمعكم ذلك خشية أن تطبقوا هذا الوهم وتتركوا موتاكم على ظهر الأرض .
وقال بعض العلماء : ربما يكون قوله هذا قبل أن يعلمه الله بأن العذاب والنعيم يكونان لمن يقبر ومن لا يقبر ولكن الجواب الأول هو الصحيح .

---

(١) سبق تخريج الحديث قبل قليل
(٢) الشيخ حمود رحمه الله نقل هنا كلام ابن القيم باختصار ، وقد ضمّن التعلقات الخمس التي ذكرها ابن القيم بهذه الثلاث . انظر شرح الطحاوية ت التركي ط٢ ص ٥٧٨
(٣) رواه مسلم (٢٨٦٧)

والقاعدة عند السلف هي الإيمان بالنعيم والعذاب وعدم الخوض في كيفية ذلك

أما ما رآه في ليلة الإسراء كتعذيب عمرو بن لحي وغيره فقد رآهم رؤية صحيحة كاملة والله قادر على أن يصور له أجسادهم وأرواحهم ، كما يقال هذا في الأنبياء الذين أمهم النبي ﷺ في القدس فمن العلماء من قال أمّ أرواحهم ، والصحيح أنه أمّ أرواحهم وأشباحهم ، وقد مثلت وهيئت له فأمهم .

فقدرة الله سبحانه تفوق إدراك العقل فإذا عجز العقل عن ذلك قال (١) : الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء .

(ونؤمن بالبعث)

الشرح : **البعث يطلق في اللغة على معنيين :**

١ – يطلق على إحياء الأموات .

٢ – ويطلق على الإرسال .

تقول في اللغة بعث الله الأموات بمعنى أحياءهم ، وتقول بعثت فلانا إلى فلان بمعنى أرسلته إليه كما قال سبحانه وتعالى : (ولقد بعثنا في كل رسولا أن أعبدوا الله واجتبوا الطاغوت)(سورة النحل آية:٣٦) .

هذان المعنيان في اللغة للبعث ، ويستعمل البعث مجازاً في أمور أخرى ، كقولك : بعثت فيه اليقظة أو بعثت فيه الحركة ، أو إذا أردت فقل أيقظت همته أو أيقظت وعيه ، بمعنى أنه حصل منك له هذا الأمر الذي جعله ينبعث فيه بعد أن كان غافلا ، المهم أن معناه الوضعي إحياء الأموات والإرسال .

ويراد في البعث وإحياء الأموات النشور والنشر ، تقول نشر الله الأموات بمعنى أحياهم ، ومن ذلك قوله (في الدعاء المأثور : (اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور)(٢) ومثله كثير في القرآن ، كقول الكفار (وما نحن بمنشرين)(سورة الدخان آية:٣٥) أي بمبعوثين ، ومن أدلة إطلاق النشر على إحياء الأموات في اللغة العربية قول مهلهل :

يا لبكر انشروا لي كليبا * يا لبكر أين أين الفرار (٣)**

---

(١) يعني صاحب العقل

(٢) رواه أبو داود (٥٠٦٨) والترمذي (٣٣٩١) بسند صحيح .

(٣) من أبيات لمهلهل بن ربيعة ، ينظر تفسير الطبري عند قوله تعالى : (يقول الإنسان يومئذ أين المفر)

فمعنى انشروا لي كليبا أي أحيوه .
الحاصل أن النشر والبعث في أحد معنييه يطلقان على إحياء الأموات .
والشعراء معروفون في المبالغة لكن نورد هنا لأحدهم شاهدا للمعنى الذي نحن فيه وأظنه للأعشى إن لم تخني الذاكرة ، يقول :

لو أسندت ميتا إلى نحرها * عاش ولم ينقل إلى قابر**

حتى يقول الناس مما رأوا * يا عجبا للميت الناشر (١)**

الناشر أي المنشور المبعوث المحيا .

والبعث بعد الموت فيه ثلاثة مذاهب للناس :

المذهب الأول : مذهب جمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة ومن مبتدعة ، أن البعث حق وأنه واقع لابد منه ، وأنه يكون بعثا للأرواح والأبدان جميعا ، وأدلته في القرآن كثيرة جدا بل أكثر ما تقرأ في سور القرآن لابد وأن تجد فيه ما يشير إلى ثبوت البعث وأنه حق ، لكن أساليب الأدلة في القرآن على ثبوت البعث متنوعة :

منها أدلة عقلية ترشد العقول وتلفتها إلى الإقرار بأن الله سبحانه وتعالى يبعث الناس يوم القيامة :
من ذلك الاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الأموات ، كثيرا ما يذكر سبحانه وتعالى دليلا على قدرته في بعث الخلق بقدرته على إحياء الأرض بعد أن تكون ميتة – تكون يابسة مغبرة فينزل الله المطر ثم بعد فترة تراها خضراء نضرة مهتزة ، كما قال سبحانه وتعالى : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شي قدير)(سورة الحج آية:٦-٥) ، والآية الأخرى التي يقول فيها سبحانه وتعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [سورة فصلت ٣٩] ، وهذا كثيراً ما يتكرر في القرآن ، يلفت سبحانه وتعالى عقول عباده إلى قدرته على البعث استدلالا بقدرته على إحياء الأرض وإيجاد الحياة فيها .

وكذلك الاستدلال ببدء الخلق على الإعادة كلفته سبحانه وتعالى أنظار عباده إلى أنهم وجدوا من العدم ، وأن الله بدأ خلقهم من غير أن يكون لهم مثال سابق ، فإذا كان كذلك فمتقرر عقلا أن

---

(١) من أبيات للأعشى ، ينظر أضواء البيان ٢٧٢/٦

إعادة الفعل أهون من البدء به ، ولهذا قال سبحانه وتعالى :(وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) (سورة الروم آية:٢٧) وكذلك في قوله سبحانه وتعالى : (ويقول الإنسان أإذا ما مات لسوف أخرج حيا)(سورة مريم آية:٦٦) الإنسان يستغرب أنه يبعث ويحي بعد الموت .! رد الله عليه بقوله : (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً)(سورة مريم آية:٦٧) أي أيدعي الإنسان عجزنا عن الإحياء والبعث وينسى ولا يذكر الإنسان أننا أوجدناه من العدم من غير مثال سابق؟.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى : (أولم ير الإنسان أن خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه)(سورة يس آية:٧٨-٧٧) وسبب نزول هذه الآية أن أحد طغاة قريش (١) أخذ عظما قد أرم وبلي وفته بين يدي الرسول ﷺ وقال : يا مُحَمَّد أتزعم أننا إذا صرنا مثل هذا نبعث ؟! فنزل قوله سبحانه وتعالى : (وضرب لنا مثلا) الآية ، ضرب مثلا لعجز الله سبحانه وتعالى عن البعث بهذا العظم الميت ، لكن الله رد عليه بقوله : (ونسي خلقه) يعني نسيت يا أيها الطاغية كونه سبحانه وتعالى أوجدك من لا شيء حتى تستبعد قدرته على خلقك مرة أخرى : (قال من يحي العظام وهي رميم)(سورة يس آية:٧٨) ، قوله : (قال من يحي العظام) حكاية لما فعله هذه الطاغية حيث فت العظم ، وقال : هذا العظم الذي قد أرم تزعم يا مُحَمَّد أن الله يبعثه إذ صرنا مثله ؟!

فقال سبحانه وتعالى : (قل يحييها – يعني العظام – الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)(سورة يس آية:٧٩) يعني بدء خلقكم وإعادتكم هو عليم به سبحانه وتعالى : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً)(سورة يس آية:٨٠) ، يقول ابن القيم رحمه الله عن هذه الآية : هذا رد على هذا الملحد من جنس حجته ، فهو احتج على عدم قدرة الله على البعث بكون العظم يصير إلى رميم بالٍ ، قال رحمه الله : فهو يقول هذا العظم بلغ الغاية في اليبس والبرودة ، ليس فيه أي حرارة وليس فيه أي رطوبة ، ومعلوم أن حياة المخلوقين لابد أن تكون متصفة بالرطوبة والحرارة ، ولا يمكن أن يوجد مخلوق حي ويستغني عن أن يكون فيه رطوبة وحرارة ، كيف يوجد الله الحياة التي هي مستلزمة للرطوبة والحرارة من هذه العظام التي هي مستلزمة لليبوسة والبرودة ، يقول : إن الله تعالى رد عليه بقوله : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً) ومعلوم أن النار طبيعتها الحرارة واليبوسة وقد أوجدها – في ضدها – في الشجر الأخضر الذي طبيعته الرطوبة والبرودة ، فإذا كان يقدر سبحانه وتعالى على إيجاد العنصر الحار اليابس من

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أن هذا الطاغية هو أبي بن خلف .

الشجر الذي هو عنصر بارد رطب فكذلك قادر على إيجاد الحياة في العظم البارد اليابس وإن كانت مستلزمة للحرارة والرطوبة .

وهناك دليل أخر كثيرا ما يتكرر في القرآن ، وهو استدلاله سبحانه وتعالى بقدرته على خلق الشيء العظيم بخلق ما هو أكبر منه :

من ذلك قوله سبحانه وتعالى : (أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم)(سورة يس آية:٨١) أي : أليس الله الذي خلق هذه السماوات العظيمة والأرض العظيمة بقادر على أن يخلق مثل بني آدم أو يعيدهم مرة أخرى ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى : (أأنتم أشد خلقا أم السماء)(سورة النازعات آية:٢٧) معلوم أن السماء أشد خلقا وأعظم ، أذاً فهو قادر على بعث الناس وخلقهم ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس)(سورة غافر آية:٥٧) كل هذه الآيات دلائل على قدرته سبحانه وتعالى على البعث .

ومن أصناف الأدلة على قدرته على البعث كونه سبحانه وتعالى يحي بعض الناس في الدنيا :

وقد حصل منه إحياء بعض الأموات في الدنيا وشوهدوا ، كإحياء قتيل بني إسرائيل : (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى)(سورة البقرة آية:٧٣) أي اضربوا القتيل ببعض من هذه البقرة فيحيا فضربوه فحيي ، فما دام أن الله سبحانه وتعالى قدر على إحياء هذا القتيل فإنه قادر على إحياء جميع الأموات إذا أراد ، وكذلك في قوله تعالى : (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه – لم يتغير – وأنظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير)(سورة البقرة آية:٢٥٩) لما رأى الحمار يبعثه الله طورا بعد طور حتى قام حيا كاملا قال : (أعلم أن الله على كل شيء قدير) أي فهو قدير على بعث الناس ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى في الآية التي بعد هذه : (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك – أي اجعلهن إليك – ثم أجعل على كل جبل منهن جزءا ثم أدعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) (سورة البقرة آية:٢٦٠) قال المفسرون إن هذه الآية تعني أن الله أمر إبراهيم أن يعصب عدداً من الطير ويذبحها ويقطعها أجزاء ثم يخلط هذه الأجزاء بعضها ببعض ثم يجعل كل جزء منها على جبل ثم يدعوها ، ففعل فجاءته حية تسعى .

وهناك طريقة أخرى للاستدلال على قدرة الله على البعث وهي كونه يضرب على آذان بعض الناس للنوم سنين طويلة جداً ثم يوقظهم :

كما حصل لأصحاب الكهف لما هجروا قومهم وفروا من الشرك و الكفر وأووا إلى كهف في جبل ، ناموا وبقوا في نومهم أكثر من ثلاثمائة سنة ، ثم استيقظوا وظنوا أنهم ما ناموا إلا يوما أو بعض يوم ، والله سبحانه ذكر هذه القصة في سورة الكهف ليبين لعباده أن الذي قدر على حفظ الحياة أو إعادة وعيهم وحياتهم بعد ثلاثمائة سنة وأكثر – أنه قادر على إحياء الأموات : (فضربنا على أذانهم في الكهف سنين عدداً)(سورة الكهف آية:١١) إلى أخر الآيات التي تشير إلى هذا المعنى.

ومن مباحث البعث التي ينبغي عدم إهمالها في هذه المناسبة أن الله سبحانه وتعالى أكثر في القرآن في تكرار البراهين الدالة على البعث والدالة على توحيد الإلهية ، فأنت إذا قرأت سورة قَلّ أن تخرج منها إلا ولديك حجة على قدرته على البعث أو حجة على وحدانية سبحانه وتعالى على الإلهية .

ولهذا يرد سؤال هنا لماذا يكثر في القرآن جداً تكرار الاستدلال على البعث وتكرار الاستدلال على توحيد الإلهية أكثر من غيرهما بكثير ؟

والجواب عن هذا أن يقال : هناك أمران يقتضيان هذا التكرار :

الأمر الأول : أن القوم الذين بعث فيهم النبي ﷺ كانوا يبالغون في إنكار البعث ويبالغون في إنكار توحيد الإلهية ، و يعجبون من دعوة النبي ﷺ إلى توحيد الله في العبادة (أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب)(سورة ص آية:٥) ، وكذلك يعجبون ويستنكرون من ذكره عليه الصلاة والسلام أن الله يبعث الناس مرة أخرى ، فلما كانوا يبالغون في إنكار البعث وإنكار التوحيد احتاجوا إلى تكرار الأدلة والحجج وتنويعها وتصنيفها ليكون ذلك مقنعا لهم .

الأمر الثاني : أن هذين الأمرين هامان جداً ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو أخر الرسل لن يأتي بعده رسول ، والرسل الذين كانوا قبله كان إذا مات نبي خلفه نبي آخر يجدد ما نسي من الشريعة ويبين ما غمض و اندرس منها ، أمّا النبي ﷺ فهو خاتم الأنبياء ولن يأتي بعده نبي ، فكان تكرار هذه الأدلة والحجج والبراهين وتصنيفها وتنويعها لئلا يتطرق إليها الاندراس والنسيان والغموض .

ومما يبحث أيضا في هذا الباب دعوى الفلاسفة بأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم ينذروا أممهم ويبلغوهم بالبعث ، ولم يفصح عن البعث إلا مُحَمَّد ﷺ، ولكن هذا قول باطل والقرآن مملوء من تحذير الرسل لقومهم من البعث ، ولكن الفلاسفة لما رأوا كثرة الأدلة والبراهين في القرآن قالوا : إنه لم يفصح عن البعث إلا مُحَمَّد .

والجواب عن هذا – عن كلام الفلاسفة – هو المذهب الأول في مسلك الناس فيما يتعلق بإثبات البعث وهو مذهب الرسل وإتباعهم الذين يقولون ببعث الأجسام وبعث الأرواح جميعا ، وقد سبق ذكره .

المذهب الثاني: هو للفلاسفة الذين يسمون بالفلاسفة الإسلاميين ، كابن سيناء والفارابي والكندي وغيرهم ، هؤلاء يقولون هناك بعث بعد الموت ولكنه بعث للأرواح فقط أما الأبدان فإنها تبلى وتنعدم ولا تبعث لكن الأرواح هي التي تبعث وهي التي تجازى ، ويقولون : إن الأرواح إذا مات صاحبها وهي فاضلة تفعل الخير فإنها تنعّم ، وإذا كانت شريرة تفعل الشر فإنها تعذب ، ولكن العذاب والنعيم معنويان وليسا حسيين ، فليس في الآخرة أكل ولا شرب ولا جماع ولا لبس ولا تلذذ بأي شيء إنما النعيم هو عبارة عن انشراح وانبساط وفرح يحصل للروح ، والنار عبارة عن كآبة وحزن وانقباض ونحو ذلك ، إذاً هم لا يقرون بشيء من العذاب الحسي أو النعيم .

المذهب الثالث : مذهب الملاحدة من العالم ، الذين ينكرون بعث الأرواح وبعث الأبدان جميعا ، ويقولون : (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين)(سورة المؤمنون آية:٣٧) وهؤلاء ليس لهم أي دليل ولا منزع إلا قولهم : يقولون إذا مات الإنسان وبلى وتحلل لا يمكن بعثة ، فكيف نبعث ؟ هذه شبهتهم .

(وجزاء الأعمال يوم القيامة)

الشرح : أي نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى يبعث الناس ويحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم ، إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة وكثير من الطوائف الأخرى كالمعتزلة والجهمية وغيرهم .

أما الجبرية فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا يقرون ويقولون ما يحصل للإنسان في الآخرة من جنة ونار ليس جزاء لأعمالهم وإنما هو من الله يحصل لهذا العذاب و لهذا النعيم ، بناءً على المشيئة السابقة فقط ، أما الأعمال فليس لها جزاء لأنها ليست أعمالهم وإنما هي أفعال الله أجبرهم عليها ، فلا يمكن أن يكون الجزاء مترتبا عليها لأنه إذا أراد الله أن يعذب الإنسان في الأزل فإنه يعذبه ولو كان من الصالحين والأولياء وغيرهم ، ومن أراد الله في الأزل أن ينعمه ويثيبه فإنه يفعل به ذلك ولو كان من الكافرين وغيرهم . فلا علاقة للجزاء بالعمل عند هؤلاء الضلال .

(والعرض والحساب)

الشرح : العرض المراد به عرض الناس على الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، والناس يعرضون عليه حفاة عراة غرلا ، كما جاء في الحديث الصحيح (١)، فإنهم حينما يبعثون يموج بعضهم في بعض لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا يدرون كيف يحاسبون إلا أنهم إذا اشتد بهم الأمر ذهبوا إلى الرسل طلبا للشفاعة لأن يعرضوا عليه ويقضي بينهم وكل إنسان يتبين سبيله إما إلى الجنة أو إلى النار ، فيسألون آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى وكلهم يعتذرون عن الشفاعة ، فإذا جاؤوا إلى محمد ﷺ قال أنا لها ، ثم ذهب وسجد تحت العرش ، قال : (ثم يفتح الله علي من محامده ما لم أكن أعلمه قط فيقال : يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع ، فيقول : أمتي أمتي)(٢) ثم يأتي سبحانه وتعالى للقضاء بين الناس والفصل بينهم فيعرض الناس عليه كلهم ويقررهم بأعمالهم كما قال سبحانه (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة)(سورة الكهف آية:٤٨) يعرضون عليه ويخاطبهم سبحانه وتعالى ويقررهم بأعمالهم عملت كذا يوم كذا وكذا في مكان كذا فيحصل منهم اعتذار وإنكار ، ثم في آخر الأمر يختم على أفواههم وتتكلم أعضاؤهم وجلودهم وألسنتهم بما كانوا يعملون ، هذا معنى قول المؤلف : (والعرض) .

قوله : (والحساب) معناه محاسبة الله سبحانه وتعالى لعباده على أعمالهم ومجازاتهم عليها ، فمن عمل صالحا جازاه على عمله بإدخاله الجنة ومن عمل سيئا جازاه عليها بتعذيبه في النار إن شاء .

والجزاء الذي يكون في الآخرة أنواع :

الأول : جزاء للأعمال الصالحات ، الذين يعملون الصالحات جزاؤهم الجنة .

الثاني : جزاء للكافرين والمنافقين وهؤلاء جزاؤهم الخلود في النار .

الثالث : جزاء للعصاة من أمة محمد ﷺ الذين ماتوا على الكبائر ، من أراد الله أن يجازيه بسيئاته منهم ، لأن من مات مصراً على المعصية وهو من أهل التوحيد فإنه معرّض لأحد أمرين :

الأول : إما أن يعفو الله عنه ويدخله الجنة من أول وهلة .

الثاني : وإما أن يدخله النار ويعذبه بقدر أعماله ثم يصير إلى الجنة .

إذاً الجزاء ثلاثة أنواع : إما في الجنة خالدين ، وإما في النار خالدين ، وإما في النار يعذبون عذابا مؤقتا ثم يخرجون إلى الجنة ، والجزاء معناه مجازاة العامل على عمله ، وهذا باتفاق المسلمين ما عدا الجبرية من فرق الضلال كما سبق .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩)

(٢) رواه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣)

(**وقراءة الكتاب**)

الشرح : قراءة الكتاب معناها أن كل إنسان له كتاب ، في هذه الدنيا الله سبحانه وتعالى وكل بكل إنسان عند البلوغ ملكين يكتبان في هذا الكتاب ما يفعله هذا الإنسان وما يقوله وما يهم به وما ينويه ، فإذا كان يوم القيامة عرض على صاحبه وسلم إياه ، لكن من الناس من يعطى كتابه بيمنه ومنهم من يعطى كتابه بشماله – والعياذ بالله – فإن كان من عباد الله المطيعين ثم أعطي كتابه بيمينه فرح به ثم دفعه إلى كل من يعرفه من أصدقائه وأهله وأقاربه ، ويقول أقرؤوا : (فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه) أي خذوا كتابي اقرؤوه – من الفرح والسرور – ((وأما من أوتي كتابه بشماله – والعياذ بالله – فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه)(سورة الحاقة آية:٢٥-١٩) يتمنى أن لم يعط إياه لأن فيه خسارته وفيه ما يقتضي عذابه والعياذ بالله .

وجاء في القرآن الكريم أن الإنسان يعطى كتابه بشماله وجاء في آية أخرى أنه يعطى كتابه وراء ظهره : (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبوراً)(سورة الانشقاق آية: ١١-١٠)

قوله تعالى : (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه)(سورة الحاقة آية:٢٥) .

قد يقول قائل كيف يعطى بشماله ومن وراء ظهره ؟

والجواب عن هذا أن يقال : أنه يعطى كتابه بشماله ومن وراء ظهره ، يعني يدفع له من وراء ظهره وليس من الأمام ليكون ذلك أشد تبكيتا وتعنيفا و إهانة .

وقد أنشد عبد الله بن المبارك رحمه الله أبياتا في هذا المعنى فقال:

وطارت الصحف في الأيدي منشّرة يود قوم ذوو عز لو أنهم فكيف سهمك والأنباء واقعة أفي الجنان وفوز لا انقطاع له تهوي بساكنها طوراً وترفعه طال البكاء فلم ينفع تضرعهم

فيها السرائر والجبار مطلع هم الخنازير كي ينجو أو الضبع عما قليل ولا تدري بما تقع أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع إذا رجوا مخرجا من غمها قمعوا هيهات لا رقة تغني ولا جزع (١)

المعنى أنهم لم تنفعهم فدية ولا بكاء ولا غيره ، وهذا المقام يصور دفع الكتب للناس كونهم يعطون إياها في ذلك الوقت الذي تكون فيه الحسرة أو تكون فيه الفرحة ، فمن آخذ كتابه بيمينه أو بشماله .

والله سبحانه وتعالى أشار إلى هذا في كثير من آيات القرآن : (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا)(سورة الإسراء آية:١٣) كل إنسان يقرأ ما في كتابه سواء أكان قارئا أم غير قارئ ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٣/٨

وغير القارئ يعطيه الله سبحانه وتعالى قدرة على القراءة حتى لو كان في الدنيا غير قارئ .

(والثواب والعقاب)

الشرح : يعني نؤمن بالثواب والعقاب وأنه منوط بالأعمال وأن الثواب والعقاب نتيجة عمل الإنسان .

وفي مسألة ارتباط الثواب بالعمل ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول: والأحق والمطابق لكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ هو مذهب أهل السنة والجماعة ومن وافقهم من فرق الأمة ، وهو أن الثواب مترتب على العمل ومربوط به ، والعمل الصالح سبب لحصول الثواب ، والعمل السيئ سبب لحصول العقاب ، ولكن ليس كون الثواب مترتبا على العمل أن يكون هذا الترتب حتميا ، هم يقولون إن الأعمال أسباب ولكن الأسباب لا تتم مسبباتها إلا بشروط وانتفاء موانع ، فمن الشروط أن يشاء الله سبحانه وتعالى ترتب الثواب أو العقاب على العمل ، ولهذا يقولون إن المعاصي سبب لدخول النار ولكن ليس كل من ارتكب معصية ومات مصراً عليها دخل النار ، فقد يعفو الله عنه ويتولاه بالعفو ويدخله الجنة ولو وجد منه السبب الذي هو العمل السيئ .

المذهب الثاني : مذهب المعتزلة ، يقولون إن الثواب والعقاب مترتب على العمل ، فالثواب مترتب على العمل الصالح والعقاب مترتب على العمل السيئ ، ولكن يختلفون عن أهل السنة في أن هذا الترتب يكون حتما ، يعني لابد وأن يحصل ، فمتى ما عمل الإنسان صالحا فلابد وأن يحصل ثوابه ، ولا يعلقون ذلك بمشيئة الله ، وإذا حصل معصية فلابد أن ينال العقاب ولا يعلقون ذلك بمشيئة الله بل يقولون الثواب مترتب على العمل كترتب العوض على المعوض تماما ، فلا يجوز أن يوجد عاص ، ولا يوجد عقاب أبداً .

المذهب الثالث : مذهب الجبرية ، فإنهم يقولون لا صلة بين الثواب والعقاب كما تقدم ، فالثواب لا يتعلق بالعمل الصالح والعقاب لا يتعلق بالعمل السيئ بل هو متعلق بالمشيئة فقط ، ووجهتهم كما سبق يقولون إن العبد ليس له عمل حتى يثاب عليه أو يعاقب لأنه مجبور على عمله .

(والصراط)

الشرح : يعني نؤمن بالصراط ، والصراط في اللغة الطريق ، يقال هذا صرا ط مستقيم يعني طريق لا اعوجاج فيه .

فيطلق على الطريق المعنوي كالمذهب والدين والمنهج ، فيقال هذا صراط الله وهذا صراط الشيطان ، كما في قوله سبحانه (صراط الذين أنعمت عليهم)(سورة الفاتحة آية:٧) والمراد بالصراط هنا الطريق المعنوي وهو الدين .

ويطلق أيضا على الطريق الحسي كما هو أصله ، وهو الذي أراده هنا ، وهو الصراط الحسي ، أي الجسر الذي ينصب على متن جهنم يوم القيامة ويكلف الناس باجتيازه ، ويجتازونه على حسب أعمالهم ، فمن الناس من يجتازه بسرعة خاطفة ومنهم من يجتازه بسرعة بطيئة ومنهم من يحبو حبواً تقر رجل وتعلق أخرى ، وتقر يدٌ وتعلق أخرى ، لكنه يخلص منها وينجو ، فإذا نجا قال الحمد لله الذي آتاني ما لم يؤت أحداً من خلقه ، لأن النجاة من النار فضل لا يتصور الإنسان عِظَمه .

ومذهب أهل السنة و الجماعة الإيمان بالصراط ، وقد جاءت أوصافه في أحاديث كثيرة منها أنه أدق من الشعرة وأحدّ من السيف وأحرّ من الجمر وأنه دحضٌ مزلة ، لكن من أئمة السلف من يرى أن هذه الصفات لم تثبت كلها ، يؤمِن بالصراط وأنه جسر منصوب على متن جهنم ولكن يقول هذه الصفات لم تثبت .

وعادة العلماء يبحثون في مسألة الصراط معنى الورود كما في قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها)(سورة مريم آية:٧١) هذه الآية للمفسرين في معناها ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : الورود الذي ذكر في الآية معناه العبور على الصراط بالنسبة للمؤمنين ، والدخول إلى النار بالنسبة للكافرين ، يعني لا أحد إلا وسوف يرد النار ، إما أن يدخل فيها إن كان من أهلها وإما أن يمرّ عليها إن كان من أهل الجنة .

المذهب الثاني : أن الورود معناه الوقوف حول النار والإطلاع عليها من كثب ويستدل هؤلاء بقوله تعالى : (ولما ورد ماء مدين)(سورة القصص آية:٢٣) يقولون إنه أطلق الورود مع أن موسى ما دخل في ماء مدين (ورد ماء مدين) يعني وقف قربه ووقف حوله .

المذهب الثالث : الذين يقولون ما من أحد إلا سيدخل النار دخولا حقيقا ، من أهل الجنة ومن أهل النار ، فأما أهل الجنة فتكون عليهم برداً و سلاما ثم يخرجون منها إلى الجنة ، وهؤلاء يقولون إن تفسير الورود بالمرور على الصراط يرده قوله سبحانه وتعالى : (وإن منكم إلا واردها — إلى قوله — ثم ننجي الذين اتقوا)(سورة مريم آية:٧٢-٧١) ، قالوا : فيفهم من هذا أن النجاة حصلت بعد الوقوع في النار .

وهذا أجاب عنه العلماء بأنه لا يلزم من وصف الإنسان بالنجاة من الشيء أنه دخل فيه ، بل إذا انعقدت أسباب الأمر وأوشك أن يحصل ثم لم يحصل قيل نجى ، ولذا قال سبحانه نجينا هوداً نجينا صالحا نجينا شعيبا ، مع أن العذاب الذي أصاب قومهم ما أصابهم ، ومع هذا قال نجيناهم .

فيكون معنى : (ثم ننجي الذين اتقوا) أي ننجيهم من النار بطريق عبورهم على الطريق ، وليس بعد أن دخلوا فيها .

والأقوال في مسألة الورود هي هذه الثلاثة :

١ – إما العبور على الصراط بالنسبة للمؤمنين ودخول النار بالنسبة للكافرين .

٢ – وإما الوقوف حولها والقرب منها .

٣ – وإما الدخول الحقيقي لجميع الناس فيها ، لكنها تكون برداً وسلاما على المؤمنين كما كانت برداً وسلاماً على إبراهيم .

والراجح الأول هو الذي عليه أكثر المفسرين .

(و الميزان)

الشرح : الإيمان بالميزان من أصول أهل السنة والجماعة ، وهو أن الله سبحانه وتعالى ينصب الميزان يوم القيامة و يزن أعمال العباد ليتبين ثقلها من خفتها .

والمعتزلة أنكروا ذلك وقالوا هذا غير صحيح ولا يعقل وقد أنكروه بشبهتين :

الشبهة الأولى : قالوا الله سبحانه وتعالى عالم بأفعال العباد لا يحتاج إلى الميزان ، الذي يحتاج إلى الميزان هو الفوّال والبقّال الذين لا يعرفون العواقب ولا يعرفون المقادير ، أما الله سبحانه وتعالى فإنه عالم بأعمال العباد فلا حاجة به إلى وزنها .

الشبهة الثانية : قالوا إن الأعمال أعراض ، والأعراض لا تقبل الوزن وليس لها ثقل حتى توزن ، إنما الذي يقبل الوزن الأعيان .

لكن أجاب أهل السنة والجماعة عن هاتين الشبهتين فقالوا :

أما الأولى : فإننا نقول إن الله سبحانه وتعالى عالم بأعمال العباد قبل وزنها وأنه لا حاجة له إلى وزنها ، ولكن يريد سبحانه وتعالى أن يُعذر من عباده ، وأن يوقفهم على أعمالهم ويجعلهم يرون ميزانهم إذا ثقل أو خف حتى لا يحتجوا فإنهم إذا شاهدوا صحفهم تطيش وتخف عندها لا يمكنهم الاحتجاج أو الاعتذار ، وأيضا قالوا فإن الله سبحانه وتعالى يحب العدل ويريد أن يري عباده عدله ،فإذا شاهدوها عرفوا أنه ما ظلم أحداً .

وأما الشبهة الثانية : وهي قولهم إن الأعمال أعراض فأجابوا عنها بقولهم :

إن الله سبحانه وتعالى قادر على قلب الأعراض أعيانا ، هو صحيحٌ أن الأعمال وإن كانت – كالصلاة والصيام – أعراضا لكن إذا كان يوم القيامة يجعلها الله سبحانه وتعالى أعيانا ، كما ورد أن القرآن يأتي في صورة رجل يوم القيامة يجادل عن صاحبه ويحاج دونه ، وكذلك الصيام ، وقد ورد في الصحيح : (اقرؤوا القران فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة)(١) وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال :(يؤتي بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فيقال لأهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت)(٢) وليس المراد بالموت ملك الموت كما يغلط بعض الناس ويفهم ذلك ، بل المراد بالموت الموت الذي هو مفارقة الحياة ، وهو معنى من المعاني ، ومع هذا يؤتى به في صورة كبش ، فإذا كان الموت كذلك فإن الله سبحانه وتعالى يجعل الأعراض أجسادا تقبل الوزن وتوضع في الميزان ، فبطلت هاتان الشبهتان .

ويبحث بعض العلماء في الوزن هل يكون للعمل أو للعامل أو للصحف ؟

من العلماء من قال الذي يوزن العامل نفسه ، يجعل في كفة وأعماله في كفة أخرى ، وهؤلاء يستدلون بأحاديث منها قوله عليه الصلاة والسلام حينما كان مع أصحابه في السفر قالوا تحت شجر الأراك وبدؤوا يجنون من ثمره ، فعبد الله بن مسعود تسلق الشجرة ليجني للنبي ﷺ من ثمرها ، وكان دقيق الساقين وصغير الجسم وهناك ريح كانت تقلبه مع الغصن ، فرآه الصحابة فضحكوا ، فقال عليه الصلاة والسلام : (مم تضحكون) ، قالوا : من دقة ساقيه يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : (والذي نفسي بيده إنهما في الميزان أثقل من جبل أحد)(٣) هذا استدل به من يقول بأن العامل هو الذي يوزن ، وكذلك جاء في الحديث قوله ﷺ: (يؤتي بالرجل العظيم السمين يوم القيامة فيوضع في الميزان لا يزن عند الله جناح بعوضة)(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤) .

(٢) رواه البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩) .

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣٩٩١) والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٧) وغيرهما بسند صحيح

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥) .

وهناك قول آخر يقول به السلف أن الصحف هي التي توزن ، وهؤلاء استدلوا بحديث البطاقة حينما أوتي برجل وأخرج له تسعة وتسعون سجلا كلها مسودة بالسيئات ، كل سجل منها مد البصر ، فقال الله له : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول الله : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن مُحَّد رسول الله) فيقول : احظر وزنك ، يقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ - يعني ماذا تجدي ورقة مع هذه السجلات المائة التي كل وأحد منها مد البصر ؟ - فقال: (إنك لا تظلم) فتوضع السجلات في كفة و البطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة (١) ، فترجح بالسيئات فينجو ويخلصه الله بهذه البطاقة ، قالوا هذا دليل على أن الصحائف هي التي توزن .

وهناك قول ثالث يقول إن الوزن للعمل وليس للعامل ولا للصحف ، توضع السيئات في كفة والحسنات في كفة وأيهما رجحت كان لها الحكم ، وهؤلاء مما استدلوا به قوله ﷺ : (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان)(٢) ، وقوله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)(٣) .

وجمع بعض العلماء بين هذه الأقوال فقال إنه يمكن وزن العامل والعمل والصحف جميعا ولا تعارض بين هذه النصوص التي وردت في هذه .

هذا ما يتعلق بهذه النقاط ، وقد اختصرتها اختصاراً شديداً جداً ، وإلا فكل نقطة منها تحتاج إلى محاضرة وقد كنت أدرس في الجامعة الميزان أجعل له محاضرتين والصراط محاضرتين والبعث أجعل فيه أكثر من عشر محاضرات ، لكنني ضغطها لك باختصار زائد جداً .

(والجنة و النار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان)

الشرح : الجنة معناها في اللغة البستان ، فكل بستان اسمه جنة ، لأنه تُجنّ أرضه وما تحته ، فالبستان يكون فيه أشجار والأشجار تجن ما تحتها أي تستره ، فالجنة مأخوذة من جن بمعنى ستر.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩) وابن ماجه (٤٣٠٠) وسنده صحيح .

(٢) رواه مسلم (٢٢٣) والترمذي (٣٥١٢) .

(٣) رواه البخاري (٧٥٦٣) ومسلم (٢٦٩٤)

وهذه المادة التي هي جن (الجيم والنون) في أي تركيب استعملت فإنها تدل على الستر والتغطية من ذلك قوله سبحانه وتعالى : (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا)(سورة الأنعام آية:٧٦) ، أي ستره وغطاه بظلاله ، كما قال الراجز :

حتى إذا جن الظلام و اختلطْ

جاؤوا بمذق هل رأيت الذئب قطْ (١)

قوله : جن الظلام أي ستر وغطى الأرض .

ومنه الجنين سمي جنينا لاستتاره في رحم أمه ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ذراعي عيطل أدماء بكرٍ

هجان اللون لم تقرأ جنينا (٢)

فأطلق عليه اسم الجنين لاجتنانه في بطن أمه .

والمجن هو شيء يستتر به المحارب ويغطي به نفسه من السيوف والرماح ، وربما الرصاص إذا كان قويا .

ومنه قول عمرو بن ربيعة :

فكان مجني دون من كنت اتقى

ثلاث شخوص كاعبان ومعصِر (٣)

فكان مجني : أي ستري ، يصور النساء الثلاث اللاتي هن صديقاته أنه جعلهن كالستر عليه عن عيون الناس .

وقوله : (ثلاث شخوص) هنا وقفة نحوية :

فإن القاعدة للعدد من ثلاث إلى عشرة أن يذكر مع المؤنث ويؤنث مع المذكر ، بمعنى أنه إذا كانت الثلاثة إلى العشرة لمذكر فإنه يؤتى بالتاء فتقول ثلاثة ، وإذا كان لمؤنث تحذف التاء فتقول ثلاث ، وهو هنا قال : فكان مجني دون من كنت أتقى ثلاث شخوص ،

---

(١)ينظر شرح ألفية ابن مالك لابن عقيل ١٨٥/٢ ت مُحَمَّد محي الدين عبدالحميد .

(٢) ينظر أضواء البيان ٧/٧

(٣) ينظر تفسير القرطبي ١٧٢/١٩

والشخوص جمع شخص والشخص مذكر ، فلماذا جاء بالتاء في جمع الثلاثة مع أنها مذكر ، والقاعدة أنه لا تأتي التاء ؟ قالوا الذي أباح هذا كون الشخوص مذكرا لفظا ومؤنثا معنى ، يعني قوله ثلاث شخوص أي ثلاث نساء ، فلما كان معنى الشخوص هنا مؤنثا ساغ حذف التاء ، فقال : ثلاث شخوص ، وإلا فالأصل والقاعدة أن يقول ثلاثة شخوص .

بقي أن يقال ما الدليل على أن هذه الشخوص مؤنث ؟

الدليل على ذلك أنه وصف هذه الأشخاص الثلاثة بأوصاف لا تنطبق إلا على النساء فقال ثلاث شخوص كاعبان ومعصر ، فالكاعب والمعصر أوصاف لا يوصف بها إلا النساء ، لأن الكاعب هي التي تكعب ثديها أي برز ، والمعصر هي الفتاة التي قاربت الحيض ولم تحض ، وهذان الوصفان لا يقعان إلا على النساء ، إذاً فالشخوص نساء فساغ تأنيث العدد هنا .

ومنه قل الراجز :

جارية بسفوان دارها

تمشي الهوينى ساقطا خمارها

قد أعصرت أو قد دنا إعصارها (١)

يعني حاضت أو قارب حيضها .

ويطلق مجازاً على المطر ، إذا قاربت السحب المطر يقال هذه سحابة معصر ، كما في قوله تعالى : (وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجا)(سورة النبأ آية:١٤) .

الحاصل أن الشخوص في البيت السابق معناه ثلاث نساء .

وعادة الشعراء أنهم يزعمون – سواء كان صحيحا أو يزعمون – أن صديقاتهم أو معشوقاتهم تستر عليهم بكسائها ، كما قال امرئ القيس :

خرجت بها أمشي تجر وراءنا

على أثرينا ذيل مرط مرجل (٢)

أي تجر مرطها على الأثر ، تعميها عن الناس حتى لا يعرفوا مجيئه إليها .

هذا معنى الجنة في اللغة .

---

(١) ينظر تفسير القرطبي ١٧٣/١٩

(٢) ينظر زاد المسير عند تفسيره لقوله تعالى (كان لم يغنوا فيها ..)

أما معنى الجنة في الآخرة فهي تلك الدار التي أعد الله فيها لعباده المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم والسرور والحور وغير ذلك .

وأما النار لغة : هي العنصر المحرق المعروف ، تسمى ناراً وتسمى جهنم وتسمى جحيما وتسمى الحطمة لها أسماء كثيرة ، وجهنم لفظ أصله فارسي ، لأن الفرس يسمون النار كهنام ، فالعرب عرَّبوها وقالوا جهنم وأطلقوها على النار .

أما النار شرعا : فهي تلك الدار التي أعدها الله مكانا لعباده العاصين والكافرين والمنافقين ، وأوجد فيها من الجحيم والسعير والأغلال – والعياذ بالله – والسلاسل ما لا يتصوره بشر .

أما حكم وجود الجنة والنار الآن فجمهور المسلمين على أنهما موجودتان ، خلقهما الله قبل أن يخلق الخلق ، وأعدهما وهيأهما ، ولا يزال سبحانه وتعالى يوجد فيهما من أصناف النعيم والعذاب ، يحدثه فيهما شيئا بعد شيء إلى يوم القيامة ، حتى بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

أما المعتزلة فإنهم أنكروا وجود الجنة والنار الآن وقالوا إنهما غير مخلوقتين الآن ولن تخلقا إلا يوم القيامة ، ولا يجوز خلقهما قبل يوم القيامة .

ما دليلهم على ذلك ، لأن قولهما الجنة والنار معدومتان الآن هذه قضية إيجابية ، وكل قضية – سواء كانت إيجابية أم سلبية – لا تقبل من صاحبها إلا بدليل .

إذاً فما الدليل لدى المعتزلة على عدم وجود الجنة والنار الآن وأنهما لن توجدا إلا يوم القيامة ؟

الشبهة الأولى : قالوا من حيث المعنى فإن الله سبحانه وتعالى حكيم ويجب عقلا تنزيهه عن العبث والقبح ، ووجود الجنة والنار قبل يوم القيامة عبث لأنه لا حكمة في ذلك .

قالوا : لو أن إنسانا أعد بيتا وجعله مهيئا ، بناه وفرشه وهيئه سنين بدون ساكن لعدّ هذا عبثا ، إذاً فكذلك الله ، فما الحكمة في كون الجنة والنار يوجدان ثم يبقيان سنين طويلة بل ملايين السنين بدون ساكن ، إذاً فلا يجوز عقلا أن تكون الجنة والنار موجودتين الآن .

جمهور المسلمين الذين قالوا بوجودهما أجابوا عن هذه الشبهة وقالوا :

الوجه الأول : لا يجوز قياس الخلق على الخالق أو قياس الخالق على الخلق ، وحتى لو كان مثل هذا بالنسبة للمخلوق عبثا ، فإنه في حقه سبحانه وتعالى لا يكون عبثا لأنه لا يجوز لنا أن نقيس الخالق على المخلوق ، ولا يجوز لنا أن نقيس أفعاله على أفعال المخلوق ، والله سبحانه لا يشبه خلقه في شيء من الأشياء ولا الصفات التي يتصفون بها ، الله سبحانه حكيم وفاعل لما يختار ولا يكون في فعله قبيح .

الوجه الثاني : أن يقال إن مثل هذا ممكن أن يصدر عن مخلوق ولا يكون عبثا ، يمكن للإنسان أن يتوقع قدوم ضيف عليه أو قريب له مسافر ويهيئ له منزلا ويعده ويفرشه ويهيئه ويبقى أشهراً وأكثر من أشهر بدون ساكن ، بل مهيئا لمن سيسكنه فيما بعد فلا يعد هذا عبثا في حق الإنسان ، فمن باب أولى أن يكون ذلك في حق الله سبحانه وتعالى ليس عبثاً .

الشبهة الثانية : تمسكوا بظواهر نصوص لا تدل ولا توصل إلى ما ذهبوا إليه :

١- من ذلك قوله سبحانه وتعالى حكاية عن امرأة فرعون أنها قالت : (رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة)(سورة التحريم آية:١١) قالوا : لو كانت الجنة موجودة الآن لما طلبت أن يبني الله لها بيتاً في الجنة .

٢- ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى : (كل من عليها فان)(سورة الرحمن آية:٢٦) قالوا لو كانت الجنة والنار مخلوقتين الآن للزم أن تفنيا ضرورة قبل يوم القيامة .

٣- قالوا وكذلك قوله ﷺ : (لقيت أبي إبراهيم ليلة أسري بي فقال أقرئ أمتك عني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ..) الحديث (١) .

٤- واستدلوا أيضا بقوله ﷺ : (من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة) (٢).

قالوا هذا يدل على أن الجنة غير موجودة ، فلو كانت موجودة لم يكن للغراس معنى ، كما أنه لم يكن للبناء معنى في آية التحريم السابقة ، وكون البناء موجودا إذا خلقت الجنة معناه أن كل شيء موجود ، هذا وجه الدلالة عندهم .

والجواب أن يقال :

أولا: قولهم إن قوله تعالى حكاية عن امرأة فرعون : (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) يلزم لو كنا نقول إن الله خلق الجنة والنار ولم يَبق شيء إلا وخلقه فيهما ، نحن نقول إن الجنة والنار مخلوقتان ولكننا لا نقول إن خلقهما قد كمل وإن الله تعالى لا يخلق فيهما شيئا ولا يحدث فيهما شيئا ، لو كنا نقول هذا لكان ما ذكروه دليلا ، نحن نقول : خلق الله الجنة والنار ولا يزال سبحانه وتعالى يخلق فيهما ويحدث فيهما من البناء و الغراس وغير ذلك إلى يوم القيامة ، بل بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة والنار النار فإنه يحدث ويخلق فيهما من أنواع النعيم والعذاب الشيء الكثير ، إذاً فلا

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٢) بسند صحيح .

(٢) رواه الترمذي (٣٤٦٤) بسند صحيح .

يبقي للاحتجاج بهذه الآيات شيء .

ثانيا: وأما قوله تعالى : (كل من عليها فان)(سورة الرحمن آية:٢٦) كقوله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه)(سورة القصص آية:٨٨) وهذه الآية أقوى لهم في الاستدلال من الأخرى ، لأن النار والجنة شيء ، فلو كانتا موجودتين الآن للزم أنهما يهلكان قبل يوم القيامة ويفنيان .

والجواب عن هذا أن يقال : إن قوله سبحانه وتعالى : (كل من عليها فان) أي كل شيء قابل للفناء فإن الله سبحانه تعالى سيفنيه ، كما أن كل شيء قابل للهلاك ومن شأنه أن يموت فإن الله سبحانه وتعالى سيهلكه قبل يوم القيامة ، أما الجنة والنار فهما خلقتا للبقاء ولا يمكن عليهما الفناء ، إذاً فلا يدخلان في عموم (كل شيء هالك) ولا في عموم (كل من عليها فان) .

وأما أدلة أهل السنة والجماعة وجمهور المسلمين وغيرهم فالقرآن والسنة كلها مملوءة من الأدلة على أن الله أعد الجنة والنار كما في قوله تعالى (أعدت للكافرين) وقوله عن الجنة (أعدت للمتقين) ، ومعنى الإعداد الإيجاد ، ومعنى أعدها أي أوجدها وهيأها .

ثالثا: أما إخباره عليه الصلاة والسلام ليلة أسري به أنه دخل الجنة وأنه نظر إلى النار وأنه وجد في الجنة كذا ووجد في النار كذا فهذا عليهم وليس لهم ، لأن كل هذا يدل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن .

رابعا: أما الجواب عن حديث (من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة)(١) .

فالجواب عليه أن يقال :

هذا الحديث وغيره مما يشْبهه كان ذكره ترغيبا للمؤمنين في المسارعة للعمل الصالح ، ومثله يقال فيما رآه النبي عليه الصلاة والسلام في النار من تعذيب عمرو بن لحي وغيره أن ذلك كان ترهيبا للكافرين ، ولا يعني الإحداث فيهما عدم وجودهما .

أما ما يتعلق بدوامهما وعدم فنائهما ، هل الجنة والنار تفنيان أو لا تفنيان أو يفنى أحدهما ، أو تدومان وتبقيان وتخلدان المسألة باختصار فيها أربعة مذاهب :

المذهب الأول : أن الجنة والنار باقيتان خالدتان لا تفنيان ولا تبيدان أبداً ، وهذا عليه جمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة والأشاعرة والمعتزلة وغيرهم ، هؤلاء كلهم يعتقدون أن الجنة والنار دائمتان خالدتان لا تفنيان ولا تبيدان أبداً ، والأدلة على ذلك كثيرة من القرآن والحديث لا يتسع المقام لسردها منها ، من ذلك قوله سبحانه و تعالى : (خالدين فيها أبدا)

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٤) بسند صحيح .

، وقوله سبحانه وتعالى بالنسبة للنار : (وما هم منها بمخرجين) ، وقوله سبحانه وتعالى بالنسبة للجنة : (عطاء غير مجذوذ)(سورة هود آية:١٠٨) أي غير مقطوع ، ونصوص كثيرة جداً لا يتسع المقام لسردها .

المذهب الثاني : مذهب ينسب لبعض السلف ووردت به آثار عن بعض الصحابة أنهم قالوا به ، وهو :أن الجنة باقية خالدة لا تفنى أبداً ولا تبيد وأهلها خالدون لا يبغون عنها حولا ، وأما النار تبقى مدة طويلة يعذب فيها أهلها ثم تفنى ويخرج منها أهلها ، وهذا قول يروى عن بعض السلف ، نقل عن عمر وغيره أنهم قالوا :(لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لجاء لهم يوم يخرجون فيه) (١)، وكذلك ما روي عن أبي هريرة ومثله عن ابن مسعود وغيرهما أنهم قالوا : (سيأتي على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها من قلة الساكنين)(٢) .

هذه الآثار وأمثالها استدل بها القائلون بفناء النار دون الجنة وأجابوا عن كل دليل يورده القائلون ببقاء النار بأن ذلك حاصل ما دامت النار موجودة :

كقوله سبحانه وتعالى : (وما هم بخارجين من النار) هذا نص على دوام النار ، لكنهم يمنعون ذلك ويقولون هذا في حالة محدودة ، يعني ما دامت موجودة .

وكذلك قوله سبحانه تعالى : (إن عذابها كان غراما)(سورة الفرقان آية:٦٥) أي ملازم لأهلها مادامت باقية .

فكل آية أو حديث وردت تدل على تأبيد النار يقولون : هذا مراد به ما دامت موجودة .

ومما استدل به القائلون بفناء النار أن الله سبحانه وتعالى قال : (إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي)(٣) . وفي لفظ : (تغلب غضبى)(٤) ، قالوا فإذا كانت

---

(١) رواه عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب ﷺ وقد ضعفه الصنعاني في رفع الأستار ص٦٥ .

(٢) يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في أول الوابل الصيب . ولما كان الناس ثلاث طبقات :

طيب لا يشوبه خبث ، وخبيث لا طيب فيه وآخرون فيهم خبث وطيب ، كانت دورهم ثلاثة :

دار الطيب المحض ودار الخبيث المحض وهاتان الداران لا تفنيان .

ودار لمن معه خبث وطيب وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ودار الخبيث المحض .

انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز تحقيق التركي ص ٦٢٦

(٣) رواه البخاري (٧٥٥٤) .

(٤) رواه البخاري (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١)

رحمة الله تغلب الغضب وتسبقه ، والجنة أثر الرحمة والنار أثر الغضب فلابد أن يغلب أثر الرحمة أثر الغضب ، فالجنة هي أثر الرحمة ستغلب النار التي هي أثر الغضب ، فتبقى وتخلد وتدوم ، أما النار فتفنى .

قالوا وكذلك من وجه آخر : العذاب مراد لله سبحانه وتعالى لغيره لا لذاته ، والرحمة مرادةٌ لله سبحانه وتعالى للاحسان لذاته ، فالله يريد الإحسان ويحب الإحسان لأجل الإحسان ويريد العذاب والانتقام لا لأجل العذاب والانتقام ، ولكن لأجل تأديب المعذبين وتطهيرهم وتهديدهم عن درن الكفر والمعاصي التي ارتكبوها ، فإذا عذبهم الله في النار مدداً كافية لتطهيرهم وتأديبهم فإن التأديب بعد ذلك يبقى لا حكمة فيه ، فلابد أن يخرج أهل النار منها إذا تطهروا وتهذبوا .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى (ورحمتي وسعت كل شيء)(سورة الأعراف آية:١٥٦) قالوا : المعذبون في النار شيء ، فلا بد أن تسعهم رحمة الله فيخرجون من النار .

وهكذا استمروا في سرد الشبهة التي يرون أنها توصل إلى ما ذهبوا إليه .

وقد نسب هذا القول إلى ابن القيم وابن تيمية ولكن عندما تتأمل أقوالهما وتمحصها يتبين للإنسان أنهما متوقفان لم يقطعا بفناء النار ولا بخلودها(١) .

المذهب الثالث : مذهب الجهم بن صفوان واتباعه : وهو أن النار والجنة كلاهما تفنى وتبيد ، وأن ما فيهما يفنى ويبيد .

شبهتهم في ذلك : أن الجنة والنار لو بقيتا وخلدتا إلى ما لا نهاية لكانتا مشابهة لله سبحانه وتعالى في صفة البقاء والدوام ، لأن من صفات الله سبحانه وتعالى الدوام والبقاء ، وعدم قبول العدم عقلا .

والجواب عن هذا أن يقال : هناك فرق بين وصف الله سبحانه وتعالى بالدوام والبقاء وبين وصف الجنة والنار بالدوام والبقاء ، فإن دوامه سبحانه وتعالى واجب لذاته ولا يقبل العقل بخلافه ، أما دوام الجنة والنار فهو ممكن إلا أن الله سبحانه وتعالى حكم به وأراد أن تبقيا ، فلولا إرادة الله وحكمه لبقائهما لكانتا كغيرهما من المخلوقات تفنيان وتبيدان .

المذهب الرابع : مذهب أبي الهذيل العلاف وأتباعه من أئمة المعتزلة ، وهذا المذهب لا يبعد عن مذهب الجهم بن صفوان ، لأن الجهم بن صفوان يقول تفنى النار وتفنى الجنة ويفنى من فيهما ، أما أبو الهذيل العلاف فمذهبه قائم على أن الجنة والنار باقيتان وأن من فيهما باقون ولكن تنقطع الأفعال ، أي يبقون في النار وفي الجنة بسكون دائم لا يتحركون ولا يأكلون ولا يشربون ولا

(١) وقد نشر لشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب "الرد على من قال بفناء الجنة والنار" ط دار بلنسية عام ١٩٩٥م

يتنعمون ولا يتلذذون فيبقون في الجنة إلى ما لا نهاية ويبقون في النار إلى ما لانهاية ، من دون أن يكون لهم أفعال أو حركات .

وشبهته تقرب جداً من شبهة الجهم بن صفوان يقولون : لو قلنا بدوام حركات أهل الجنة والنار ودوام أفعالهما للزم أن تكون مشبهة لأفعال الله سبحانه تعالى فإذا كانت أفعاله تدوم ولا تنقطع وقلنا بأن أفعال أهل الجنة وأهل النار تدوم ولا تفنى لصارت مثل أفعال الله ، فاقترح هذا المذهب الوسط بين مذهب جمهور المسلمين وبين مذهب الجهم بن صفوان .

ولكن المذهب الصحيح الأول ، والثاني يليه في الصحة (١) ، أما المذهب الثالث والرابع فهما مذهبان باطلان لا يقومان على أساس ولا يقومان على مبدأ .

(وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له وصائر إلى ما خلق له و الخير و الشر مقدران على العباد)

الشرح : هذا المقطع يتعلق بالقضاء والقدر ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قدر وشاء وكتب ما سيصير إليه العبد قبل أن يخلقه ، فهو إذا كان سعيداً أو شقيا فهذا كله مكتوب ومقدر ، ويدل علية آيات كثيرة من القرآن وكذلك أحاديث ، كقوله ﷺ عند خلق الجنين : (ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد)(٢) .

يورد القدرية – نفاة القدر – على هذا فيقولون :

إذا كان الله قدر على العباد الشقاوة والسعادة فلماذا يعملون ، لماذا لا يتكلون على كتابتهم السابقة ولا حاجة إلى العمل .

وهذا جوابه أن يقال : إن الصحابة سألوا النبي ﷺ عن ذلك لما خطبهم وأخبرهم بأن الله كتب الشقاوة والسعادة قام سراقة بن مالك فقال: يا رسول الله : بين لنا ديننا ، كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل ؟ قال : (لا ، بل فيما

---

(١) لا يعني قول الشيخ (يليه في الصحة) تصويب هذا القول ، ولكن يعني قبول الاجتهاد في الأخذ به وأن ذلك لا يلزم عليه التبديع والتضليل ، وذلك لورود بعض الآثار عن السلف بهذا القول ، وهناك فتوى مخصوصة للشيخ حول هذه المسألة وهي موجودة في موقعه على الانترنت ، مما قال فيها : فمن اجتهد وهو من أهل الاجتهاد ، وأخذ بأحد القولين فإنه لا ينكر عليه ولا يضلل ولا يبدع .. الخ

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)

جفت به الأقلام وجرت به المقادير) ،قال : ففيم العمل ؟ فقال : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)(١) فإذا كان الله سبحانه وتعالى أخبرنا بالقضاء والقدر وأمرنا أن نعمل فنؤمن بإخباره لنا بالقضاء والقدر ونصدقه ونعتقد ذلك ونعمل بقوله اعملوا كما قال سبحانه وتعالى : (فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى)(سورة الليل آية:١٠-٥) إذاً فنحن مطلوب منا الإيمان بالقضاء والقدر ومأمورون بالعمل ، فلابد لنا من الأمرين ، لابد أن نؤمن بما أخبرنا به من سبق القضاء والقدر ، ولا بد لنا أن نطيع الله ورسوله ونعمل ، والله ييسر لنا الخير و يقدرنا إليه سبحانه وتعالى .

والقضاء والقدر كره المؤلف في الكتاب ويأتي إن شاء الله زيادة كلام في موضع آخر.

(والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يوصف المخلوق به تكون مع الفعل ، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل و بها يتعلق الخطاب كما قال تعالى : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)

الشرح : الاستطاعة معناها لغة القدرة والطاقة .

ولها في اصطلاح العلماء ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : مذهب أهل السنة والجماعة .

المذهب الثاني : مذهب القدرية .

المذهب الثالث : مذهب الجبرية و الأشاعرة .

فأما خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في الاستطاعة فهي عندهم نوعان :

نوع يكون قبل الفعل ، ونوع يكون مع الفعل .

فالنوع الأول : ما يكون قبل الفعل وهو القدرة على الفعل ، يعني الوسع والتمكن وسلامة آلات الفعل ، فمن كانت عنده هذه الاستطاعة فهو مكلف وإن لم تكن عنده فليس بمكلف ، ولذا فسرها بسلامة آلات الفعل . مثلا : الرجل الأعمى يقال لا يستطيع الكتابة لماذا ؟ لأن آلات الكتابة عنده غير موجودة وهي البصر ، وكذلك المريض الذي لا يستطيع القيام للصلاة هذا لا يكلف بأن يصلي قائما بل يكفي منه شرعاً أن يصلي قاعداً كما قال ﷺ: (صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب)(٢) .

(١) رواه مسلم (٢٦٤٨) و البخاري بلفظ آخر (١٣٦٢) .

(٢) رواه البخاري (١١١٧) وأبو داود (٩٥٢) والترمذي (٣٧٢) وابن ماجه (١٢٢٣) .

إذاً هذا النوع من أنواع الاستطاعة يفسر بالقدرة على الفعل بكون العبد يمكنه أن يفعل ، بمعنى أن تكون آلات الفعل موجودة كاملة عنده وليس هناك ما يمنعه من أن يفعل ، فمن كان مستطيعا للنوع الأول كلّف وخوطب وأثيب على فعله وعوقب على تركه ، ومن لم يكن مستطيعا فإنه لا يكلف ولا يعاقب على ترك الفعل .

النوع الثاني : هو ما يعطيه الله للعبد من التوفيق والتسديد والإعانة حتى يحصل منه الفعل ، وهذا النوع يكون مع الفعل مقارنا له ، لا يأتي وحده بل لا يمكن أن يوجد الفعل إلا وهذا النوع من الاستطاعة مقارن ومصاحب له ، إذاً فهو استطاعة ، ولكن لا يتعلق بها التكليف الشرعي لكون هذه الاستطاعة من الله سبحانه وتعالى ، ولأن التكليف يتعلق بمعنى سلامة الفعل والآلات والتمكن منه .

ويستدل أهل السنة على النوع الأول بآيات كثيرة وأحاديث :

كقوله سبحانه (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)(سورة البقرة آية:٢٨٦) هذا يدل على أن الإنسان إذا فقد الاستطاعة التي بمعنى التمكن من الفعل فهو غير مكلف .

وكذا قوله سبحانه وتعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم)(سورة التغابن آية:١٦) .

وقوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)(سورة آل عمران آية:٩٧) فالعاجز عن أداء الحج إذا لم يكن لديه مال ولا راحلة يتوصل بهما إلى مكة فلا يكلف ، لأن الاستطاعة التي هي مناط التكليف مفقودة منه .

وكذا قول النبي ﷺ : (صل قائما فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب)(١) .

و يستدلون على النوع الثاني :

كما في قوله سبحانه وتعالى عن الكفار (ما كانوا يستطيعون السمع)(سورة هود آية:٢٠) فهل الكفار صم ما يسمعون ؟ هم يسمعون ، فنفيه عنهم الاستطاعة مما يدل على أنه نفى عنهم التوفيق والإعانة والتسديد فقوله (ما كانوا يستطيعون) يعني ما حصل لهم التسديد من الله والإعانة من الله ولا التوفيق من الله .

وكذلك قوله (إنك لن تستطيع معي صبراً) الخضر قال لموسى لن يحصل منك استطاعة لما سأفعله ، فهل موسى عاجز عن الاستطاعة التي هي بمعنى التمكن من الفعل ؟ موسى عليه السلام من أولي العزم الخمسة الذين أمر نبينا ﷺ أن يقتدى بهم كما في قوله تعالى

---

(١) رواه البخاري (١١١٧) وأبو داود (٩٥٢) والترمذي (٣٧٢) وابن ماجه (١٢٢٣) .

(فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وموسى واحد منهم ، وهم يستطيعون الصبر أكثر من غيرهم ومع هذا قال الخضر (إنك لن تستطيع معي صبرا)(سورة الكهف آية:٦٧) يعني لن يحصل منك فعل الصبر ، ولن يعطيك الله فعل الصبر ، فالاستطاعة التي مع الفعل هي التي بمعنى التوفيق والإعانة والتسديد من الله سبحانه وتعالى .

المذهب الثاني : مذهب القدرية ، والقدرية يقرون بالاستطاعة التي قبل الفعل ، التي هي بمعنى التكليف والقدرة على الفعل ، ولكن ينكرون النوع الثاني ، ويقولون ليس هناك استطاعة مع الفعل ، فالاستطاعة عندهم نوع واحد وهي التي تكون قبل الفعل وهي التي يتعلق بها التكليف .

يعني النوع الأول عند أهل السنة والجماعة يقر به المعتزلة ، ولكن ينكرون النوع الثاني الذي هو بمعنى التوفيق .

وشبهتهم في ذلك يقولون : إذا قلنا إن هناك استطاعة بمعنى توفيق الله وإعانته وأنه يوفق من يشاء ولا يوفق من يشاء ويعين من يشاء ولا يعين من يشاء ، لو أقررنا بهذا لكان الله ظالماً ، كيف يوفق هذا ويمنع توفيقه عن هذا ، فينكرون التي مع الفعل بهذه الشبه الفاسدة تعالى الله عن ذلك وتقدس .

ولكن شبهتهم هذه أبطلها أهل السنة والجماعة وقالوا : إن التوفيق والتسديد والإعانة ملك لله سبحانه وتعالى ، والمالك للشيء يعطيه من شاء ويمنعه من شاء ولا يكون ظالما ، فأنت إذا كان لك شيء تملكه كتاباً أو غيره ، فلو أعطيت فلانا ومنعت فلانا لا تعتبر ظالما لأن الكتاب ملكك ، والمالك للشيء يعطيه من شاء فضلا ويمنعه من شاء عدلا .

ولهذا لما دخل عبد الجبار الهمذاني المعتزلي على الصاحب بن عباد وكان عنده الإسفرائيني ، وكان الاسفرائيني أشعريا يخالف المعتزلة ، وعبد الجبار منهم ينكر الاستطاعة التي مع الفعل والاسفرائيني يقر بها لأنه اشعري جبري .

قال عبدالجبار على الفور : سبحان من تنزه عن الفحشاء .

فقال الإسفرائيني فورا : كلمة حق أريد بها باطل ، سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء .

فقال عبدالجبار – وفهم انه قد عرف مراده – : أيريد ربنا أن يعصى ؟

فقال أبو إسحاق : أيعصى ربنا قهرا ؟

فقال عبد الجبار : أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى ، أحسن إلي أم أساء ؟

فقال الإسفرائيني : إن كان منعك ماهو لك فقد أساء ، وإن كان منعك ماهو له فيختص برحمته من يشاء .

فانقطع القدري عبدالجبار وسكت ولم يجد جواباً (١) .

فقوله : سبحان من تنزه عن الفحشاء يعني سبحان من لا يخلق المعاصي ، والاسفرائيني قال : كلمة حق أريد بها باطل . يعني قول من يقول إن الله متنزه عن الفحشاء حق ولكنك تريد باطلا فلما عرف قصده رد عليه بما ذكر .

فالحاصل أن المعتزلة ينكرون الاستطاعة التي بمعنى التوفيق والإعانة والتسديد وأنها لا وجود لها ، ويقرون بالاستطاعة التي تكون قبل الفعل والتي هي مناط التكليف والتي يتعلق بها الخطاب .

المذهب الثالث : مذهب الجبرية الأشاعرة ، فهؤلاء ينكرون التي قبل الفعل ، ويقولون لا تأثير لها ولا وجود لها ، ويقرون بالاستطاعة التي مع الفعل فقط ، والتي هي بمعنى التوفيق والتسديد ، يقولون هي الأساس فإن حصلت من الله حصل الفعل وإن لم تحصل لم يحصل الفعل .

وهناك كلام طويل للعلماء في هذا الموضوع .

لكن خلاصة ما يقال في هذه المسألة أن أهل السنة والجماعة يقولون بالنوعين ، والقدرية يقرون بالتي تكون قبل الفعل ، والأشاعرة والجبرية يقرون بالتي تكون مع الفعل فقط .

(وأفعال العباد خلق الله)

الشرح : وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد ، أما خلق الله فهذا مذهب أهل السنة والجماعة قاطبة ، وهو أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لأفعال العباد وأن كل شيء يقوم به العبد من حركة أو سكون أو حسن أو قبيح أو طاعة أو معصية كله خلق لله سبحانه وتعالى ، لا خالق إلا الله تعالى .

فأهل السنة يقرون بأن الله هو الخالق لأفعال العباد ولكن العبد هو الفاعل ، وفرق بين الخلق والفعل ، والعبد فاعل حقيقة وله مشيئة وإرادة بفعله ، ولكن فعله لا يكون بدون إرادة الله ومشيئة الله ، الله عز وجل يريد فعل العبد وييسره له ويعينه عليه والعبد هو المتحرك بفعله وهو الفاعل والله الخالق ولكن ذلك تابع لمشيئته سبحانه .

هذا هو المذهب الأول وهو مذهب أهل السنة والجماعة ومن تبعهم من الطوائف الأخرى ، وهذا هو الذي توافرت عليه الأدلة من الكتاب والحديث :

---

(١) انظر دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي في آخر أضواء البيان ٣٣١/١٠ ، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١ / ٣٣٩

فمن الكتاب قوله تعالى (أتعبدون ما تنحتون *والله خلقكم وما تعملون)(سورة الصافات آية:٩٦-٩٥) أي خلقكم وخلق أعمالكم ومعمولاتكم ، و (ما) هنا موصولة .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى : (ونفس ما سواها * فألهمها فجورها وتقواها)(سورة الشمس آية:٨-٧) فقوله : (ألهمها) دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الموفق للعباد والمعين لهم على أفعالهم ، فبدون إعانته لا تحصل الأفعال وقوله (فجورها وتقواها) إضافة الفجور إلى النفس وإضافة التقوى إلى النفس ، دليل على أنها هي الفاعل لفعلها .

وهذا المذهب أدلته كثيرة في القرآن .

المذهب الثاني :

وأما من خالف أهل الحق كالمعتزلة والرافضة فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الخالق لأفعال العباد ، وقالوا : الله هو الخالق للعباد ، لكن العباد هم من يخلق أفعالهم ، ويقولون لو كان الله هو الخالق لأفعالهم للزم من ذلك وصف الله بالظلم ، يخلق الكفر ثم يعاقب عليه .! يخلق المعصية ثم يعاقب عليها .! يقولون هذا ظلم ، والله سبحانه وتعالى منزه عن الظلم .

ومن أدلتهم التي لبسوا بها :

قوله سبحانه تعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين)(سورة المؤمنون آية:١٤) وجه الاستدلال من الآية أنها تضمنت بيان تعدد الخالقين ، فإذا كان هناك خالقون كان هناك خالق غير الله ، إذاً فالخالقون هنا الله والعباد ، الله يخلق العباد والعباد يخلقون أفعالهم .

أهل السنة والجماعة أجابوا عن الشبهة الأولى التي يزعمون أنها دليل عقلي فقالوا :

إن شبهتكم هذه تلزمكم في كل شيء لو طبقت ، فإننا نناظركم في هذه المسألة ونقول لكم :

أنتم تقولون إن الله لم يخلق أفعال العباد ، لأنه لو خلقها وعاقبهم عليها للزم أن يكون ظالما لهم ، فهل تقرون بأن الله يعلم أفعال العباد قبل أن يخلقها العباد على حسب زعمكم ، أو كان جاهلا بها ؟

وهذا معنى قول الشافعي رحمه الله : ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا .

فيقال هل تعتقد أيها القدري وتعترف بأن الله عز وجل علم أفعال العباد كالمعاصي والكفر قبل أن يخلقها أو جهلها ؟ ولا بد له من جواب :

إما أن يقول : علمها الله ، وإما أن يقول جهلها .

فإن قال : إن الله كان جاهلا بها كفر بالإجماع ، لأن المسلمين أجمعوا كلهم على أن من نسب إلى الله الجهل فهو كافر ، وهذا معنى ما قاله الإمام الشافعي : فإن أنكروه – أي العلم – كفروا ، يعني إن قالوا : إن الله يجهل أفعال العباد قبل أن يوجدوها كفروا .

وإن قال : بل علمها الله تعالى قبل أن يخلقوها .

قيل له : هل كان قادراً على صرفهم عن المعاصي والكفر أو كان عاجزاً ؟

فإن قال : كان عاجزاً .

قيل له : كفرت بالإجماع ، لأن المسلمين أجمعوا على أن من وصف الله بالعجز فهو كافر .

فإن قال : بل علمها وكان قادراً على صرفهم عنها .

قيل له : إذاً إذا كان عالما بأن فلانا سيفعل الكفر وقادراً على صرفه عن الكفر إلى الإيمان فكونه تركه يكفر ولم يصرفه إلى الإيمان مع قدرته عليه يكون ظالما له .

إذاً فهم لا يخلوا إما أن يكفروا وإما أن يَلزمهم نظير ما فروا منه .

وهناك طريقة أخرى للمناظرة وهي أن يقال :

إن معنى قول : إن الله يخلق أفعال العباد ، بمعنى أنه يوفقهم ويعينهم ويهديهم وييسر لهم الفعل فهذه الهداية وهذا التوفيق وهذا التسديد الذي به يحصل الفعل هل هو ملك للعبد أو هو ملك لله ؟ ومعلوم قطعا أنه ملك لله ، فإذا اقروا بأنه ملك لله لم يكن الله ظالما لهم إذا منعهم إياها ، فهم كفروا بسبب منع الله سبحانه وتعالى لهدايته لهم وتوفيقه ، إذاً الذي منعه عنهم هو ملكه ، ومعلوم عقلا أن المالك للشيء إذا منعه عن الغير لا يسمى ظالما ، ولا يعتبر ظالما ، لأن المالك للشيء قد يعطيه من شاء فضلا ويمنعه من شاء عدلا ، وكذلك الله سبحانه وتعالى أقدرهم على الفعل فجعل وسائل الفعل موجودة عندهم ، فجعلهم قادرين وجعلهم أصحاء وأعطاهم الاختيار وبين لهم الحق من الباطل ، ولكن غاية ما هنالك أنه منعهم التوفيق ، والتوفيق ملك الله سبحانه وتعالى إن شاء أعطاهم إياه وإن شاء منعهم إياه ، وإذا منعهم إياه فهو ملكه والمانع لملكه لا يكون ظالما لمن منعه عنه .

هذا جوابهم عن الشبهة العقلية .

أما عن الشبهة السمعية : وهي قوله سبحانه وتعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين)(سورة المؤمنون آية:١٤) يقال لهم :

أولا :

كيف استدللتم بالآية وأنتم من أصولكم أن النقل لا يصلح دليلا على مسائل الأصول ، لأن من الأصول والقواعد عند المعتزلة أنه لا يُستدل على مسائل أصول الدين إلا بأدلة عقلية (١) ، أما الأدلة السمعية فإنهم لا يرون فيها دلالة (٢) ، لأنها إما أن تكون ظنية الثبوت كالآحاد وإما أن تكون ظنية الدلالة كالقرآن والمتواتر من السنة .

السمع عند المعتزلة وعلماء الكلام قسمان ، كما هو عند غيرهم : متواتر وآحاد ، هم يقولون المتواتر والآحاد كلاهما لا يصلح دليلا على مسائل أصول الدين – أي العقائد – قالوا :

لأن الآحاد ليست قطعية الثبوت بل هي ظنية الثبوت ، فإذا كانت ظنية فالظني يحتمل الثبوت ويحتمل عدمه ، فلا دلالة فيه .

أما القرآن والمتواتر من الحديث فهو وإن كان قطعي الثبوت فإنه ظني الدلالة ، دلالته محتمله ، والمثال قوله سبحانه وتعالى : (الرحمن على العرش استوى)(سورة طه آية:٥) ، يقولون دلالته على الاستقرار والعلو ظنية ، لماذا ؟ لأنه يحتمل الاستواء ويحتمل الاستيلاء .

فيقال لهم : أنتم لا ترون في الأدلة النقلية حجة على مسائل الأصول فلماذا استدللتم بهذه الآية ؟

ثانيا :

يقال لهم : حتى النصوص التي استدللتم بها واعتقدتم صحتها فإن قوله سبحانه وتعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين) لا دلالة فيها لكم (٣) :

لأن الخلق يطلق في اللغة تارة ويراد به الإيجاد من العدم ، ويطلق تارة ويراد به التصوير والاختراع ، تقول خلق الله الإنسان وخلق الله الخلق أي أوجدهم من العدم ، وتقول خلق الخراز النعل أي قاسه وصوره وقدره ، وخلق الخياط الثوب بمعنى فصّله ، يعني هيأ صورته وقوله تعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين) أي المقدرين المصورين ، وليس الموجودين ، فإنه لا موجد إلا الله ، فالله سبحانه وتعالى أحسن المقدرين وأحسن المصورين ، أما الإيجاد فلا يوجد موجِد إلا الله سبحانه وتعالى

---

(١) يقول عضد الدين الايجي في الموقف الأول من (المواقف) :

الثاني : ما يتوقف عليه النقل مثل وجود الصانع ونبوة مُحَمَّد فهذا لا يثبت إلا بالعقل .

انظر التنكيل للمعلمي ٢ / ٣٢٥ .

(٢) بل يقول الغزالي في الإحياء ١/ ١٨٠ :

فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف .

(٣)ينظر ص ٧٧

وهذا معروف في لغة العرب ومنه قول الشاعر في ممدوحه :

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري (١)

تفري أي تنفّذ ، يصف ممدوحه بأن لديه القدرة على تنفيذ ما يخلق أي ما يقدره ويصوره ويزينه بنفسه من فعل ، والفري هنا متجوّز به عن شق الخراز الجلد ، فكما أن الخراز الماهر إذ أراد أن يوجد نعلا فإنه يقدّر مقدار النعل ثم يفري الجلد أي يشقه على المقاس الذي أراده ولا يتردد في ذلك ولا يخطئ ، يقول أنت أيها الممدوح تفري ما خلقت أي تنفذ ما قدرته وصورته ولا أحد يمنعك عن ذلك ، وأما غيرك من الناس فهو وإن كان لديه الخلق بمعنى التقدير والتصوير والتخطيط إلا أنه يعجز عن التنفيذ فلا يفري .

فهذا دليل على أن الخلق يطلق في اللغة ويراد به غير الإيجاد وهو المراد في قوله تعالى : (أحسن الخالقين) .

هذا ردهم على الشبهة التي تذرعوا بها من النقل .

وسياق الآيات يدل على رد هذه الشبهة ، والذي هو بمعنى التصوير ، وهو قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)(سورة المؤمنون آية:١٤-١١) .

(وكسب من العباد)

الشرح : الكسب الذي يريده المؤلف هنا هو الفعل ، لأنه معروف أن مذهبه في هذه المسألة هو مذهب أهل السنة والجماعة ، فهو يقول هي خلق لله وفعل للعبد ، لكنه عبر بالكسب لأن الكسب والفعل بمعنى واحد لا فرق بينهما .

هو عبر بالكسب عن الفعل وهو لا يريد الكسب الذي تريده الأشاعرة .

فإن الأشاعرة يقولون العبد له كسب وليس له فعل وهذا تناقض ، فلا يعقل شيء اسمه الكسب وشيء اسمه الفعل ، بل الفعل هو الكسب وهذا هو الذي عبر عنه المؤلف في قوله : (وكسب من العبد) هو يريد أن العباد أفعالهم لهم وهي مخلوقة لله سبحانه وتعالى .

---

(١) ينظر مفردات الراغب الأصفهاني مادة خلق ، وأضواء البيان ٢٦٧/٦ .

والكسب أطلقه المؤلف هنا ، والذي لا يعرف مذهب المؤلف قد يظن أنه يساير الأشاعرة فيثبت الكسب وينفي الفعل ، وهذا ليس هو مذهب المؤلف ، بل مذهبه إثبات الفعل للعبد على سبيل الحقيقة والاختيار ، وإن كان يرى أن الفعل مخلوق لله سبحانه وتعالى لكنه عبر بالكسب عن الفعل فقط ، وقوله في المقطع السابق : (وأفعال العباد خلق لله) ينص على أنه مع أهل السنة والجماعة حيث جعلها خلقا لله ، لكن الأوضح لو قال : وأفعال العباد خلق الله وهي أفعالهم ، لكنه قال : (خلق الله وكسب من العبد) يعني وفعل لهم .

المذهب الثالث (١):

مذهب الجبرية و الأشاعرة منهم ، فإنهم يثبتون للعبد كسبا وينفون عنه الفعل .

والعلماء كلهم يقولون إن العقلاء مجمعون على أنه ليس هناك كسب غير الفعل ، بل الكسب هو الفعل والفعل هو الكسب ، فمن أثبت الكسب لزمه ثبوت الفعل ومن نفى الفعل لزمه نفي الكسب فالفعل والكسب سواء ، هذه هي الحقيقة .

لكن الأشاعرة يفرقون ، فيثبتون كسبا لا يعقل وقصدهم التستّر وهم يثبتون ذلك مغالطة ، وإلا فهم في باب أفعال العباد جبرية ، وقد صرح ابن تيمية في أكثر من موضع بأن الأشاعرة جبرية محضة ، لأنهم يقولون أفعال العباد أفعال الله لكن لهم كسب ، مع أنه لا فرق بين الفعل والكسب ، فإذا قالوا إن العبد لا يفعل وإنما أفعاله هي أفعال الله إذاً فقولهم له كسب لا معنى له .

والعلماء قالوا إثبات الكسب ونفي الفعل من الأمور المستحيلة عقلا .

فالجبرية يقولون إن العبد ليس له فعل وليس له اختيار وليس له مشيئة بل هو مجبور على ما يصدر عنه من أفعال وهذه الأفعال التي تصدر عنه هي أفعال الله تبارك وتعالى فإذا قالوا قرأ فلان أو كتب فإنهم يعنون قرأ الله وكتب الله ، يلزمهم هذا ، لأنهم يقولون ليس للعبد فعل مطلقا .

فإذا قيل لهم لماذا يسمى إذاً فاعلا وتنسب إليه الأفعال ؟

قالوا : تنسب إليه على سبيل المجاز المرسل لأنه محلها ، فنسبة الفعل إلى العبد إذا قلت قام فلان نسبة مجازية علاقتها المحليّة ، كما تقول خرج الجامع وكما تقول خرجت الكلية وتقول خرجت المدرسة وأنت تعني خرج الطلاب فكذلك قام فلان وقعد فلان مثل ذلك تماما ، يعني قام الله وقعد الله ، تعالى الله عما يقول هؤلاء علوا كبيرا ، فلا يثبتون للعبد فعلا مطلقا ولا مشيئة ولا اختيارا ، بل هو مجبور وحركته بأفعاله كحركة أغصان هذه الشجرة إذا هبت بها الرياح تماما ،

---

(١) في المقطع السابق ذكر مذهب أهل السنة ومذهب القدرية .

فكما أن الشجرة تتحرك أغصانها بدون إرادة وبدون مشيئة وليست هي المتحركة بل هي محركة ، فكذلك العبد إذا فعل فهو مجبور عليه وحركته مفعولة فيه ، فعلها الله وليس هو الفاعل لها .

وبالنسبة لفعل العبد فإن في مذهب القدرية جزء منه حق وجزء منه باطل ، وفي مذهب الجبرية جزء منه حق وجزء منه باطل ، ومذهب أهل السنة والجماعة هو مجموع جزئي الحق الموجودين في مذهب القدرية وفي مذهب الجبرية .

فالقدري يقول إن للعبد فعلا ومشيئة واختياراً وهذا حقٌ ، ثم يقول ولكن هو الخالق لفعله ، وهذا هو الباطل في مذهب القدرية يعني مذهب القدرية جزآن ، العبد فاعل لفعله حقيقة له فعل وله اختيار له مشيئة وله إرادة وهذا حق ثم يقولون والخالق لأفعاله هو وليس الله خالقهما .

والجبرية يقولون إن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لأفعال العباد ، خلقها وشاءها وأرادها وقدرها وهذا حق ، ولكن يزيدون على هذا ويقولون العبد ليس له فعل بل هو مجبور على أفعاله وهذا باطل .

إذاً فقول القدرية العبد فاعل حقيقة وله مشيئة واختيار وقول الجبرية الله خالق أفعال العباد ومقدرها هذا حق أيضا .

فاجمع هذا مع هذا يظهر لك مذهب أهل السنة والجماعة .

أهل السنة والجماعة يقولون العبد فاعل حقيقة وله مشيئة واختيار ، والمعتزلة يقولون كذلك ، ويقول أهل السنة والجماعة الله خالق أفعال العبد ومقدرها ومريدها ، وهكذا تقول الجبرية إنما الخلاف بين أهل السنة و الجماعة وبين القدرية هو خلق الفعل ، فأهل السنة والجماعة يقولون الخالق له الله والمعتزلة يقولون الخالق له العبد .

والخلاف بين أهل السنة والجماعة وبين الجبرية أن أهل السنة والجماعة يقولون كما تقول الجبرية بأن الله خالق أفعال العباد ومقدرها ومريدها ، ولكن نقطة الخلاف بينهم وبين الجبرية أن العبد مجبور كما تقول الجبرية وأهل السنة والجماعة يقولون العبد ليس مجبوراً بل هو مختار وفاعل ومريد لفعله .

بقى أن نعرف شبهة الجبرية بعد أن عرفنا شبهة القدرية :

الجبرية يستدلون بقوله تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)(سورة الأنفال آية:١٧) يقولون هذه الآية نص على أن العبد لا فعل له ، فإنه نفى عنه الفعل فقال : (وما رميت) وأثبت الفعل لله فقال : (ولكن الله رمى) إذاً فالفاعل هو الله وإن تحرك العبد بالفعل .

وأهل السنة والجماعة أجابوا عن هذه الشبهة وهذا الاستدلال الخاطئ فقالوا :

إن الرمي يطلق في لغة العرب ويراد به أحد أمرين :

١ — تارة يطلق ويراد به الإصابة ، إصابة السهم للهدف .

٢ — وتارة يطلق ويراد به إرسال السهم .

والله سبحانه وتعالى نفى عن العبد أحد النوعين وهو الإصابة وأثبت له أحدهما وهو الإرسال فقال سبحانه : (إذ رميت) وهذا إثبات ، لأن العبد رمى ولكن نفى عنه الإصابة ، فكأنه يقول ما أصبت إذ حذفت أو أطلقت السهم .

و قد رد عليهم من نفس الآية .

(ولم يكلفهم الله تعالى إلاّ ما يطيقون ، ولا يطيقون إلا ما كلفهم)

الشرح : قوله : (ولا يطيقون إلا ما كلفهم) هذه الفقرة عليها شيء من الملاحظة .
فقوله : (ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون) هذا صحيح ، الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، لا يكلف أحداً ما لا يطيق ، وهذا هو الراجح من مذهب الأصوليين أن التكليف بغير المستطاع لا يجوز ، وليس من الحكمة أن يكلف الله أحدا بمالا يطيقه عقلا ، و الشرع كذلك دل على ذلك كقوله تعالى : (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)(سورة البقرة آية:٢٨٦) ، لكن قوله : (ولا يطيقون إلا ما كلفهم) هذا عليه ملاحظة ، لأن الله سبحانه وتعالى كلف الناس بتكاليف ، كلفنا بخمسة فروض في أربع وعشرين ساعة ، وكلفنا بصيام شهر من اثني عشر شهراً ، لكن هل معنى ذلك أننا لا نطيق سوى هذا ؟ لو أن الله سبحانه وتعالى جعل الفرائض ستة : الفجر والضحى والظهر والعصر والمغرب والعشاء ؟ هل نطيق ذلك أولا نطيق ؟ نطيق ذلك بسهولة ، ولكن مقتضى كلام المؤلف أننا لا نطيق أكثر مما كلفنا لقوله : (ولا يطيقون إلا ما كلفهم) وهذا غير صحيح ، لذلك فالعبارة فيها خطأ ، ويلتمس لها تصويب ، ومما التمس لها من التصويب قول بعض العلماء إنه يعني بقوله (ولا يطيقون إلا ما كلفهم) أي لا يطيقون بدون مشقة وبدون ثقل إلا ما كلفهم ، أما ما لم يكلفهم به فإنهم يطيقونه ولكن بمشقة وجهد ، فلو أن الله سبحانه وتعالى فرض علينا صيام شهرين في السنة لأطقنا ذلك ، لكن يكون في ذلك كلفة وفيه ثقل وفيه مشقة ، فقوله : (ولا يطيقون إلا ما كلفهم) أي ولا يطيقون بيسر وسهولة إلا ما كلفهم به ، أما ما لم يكلفهم به فلو كلفهم به لأطاقوه ولكن بمشقة وعسر .

هذا ما أجاب به العلماء عما في هذه العبارة من قلق وأظن الشارح أشار ولا حظ عليها ووجهها بتوجيهات منها الصحيح ومنها غير الصحيح لكن أحسن ما يقال في الاعتذار عن المؤلف بما

سبق ، وكونه مثلا فرض على النبي ﷺ كل يوم وليلة هذا تكليف ، لكنهم لما كانوا لا يطيقونه عادة أي يصعب عادة أن يؤدي الإنسان خمسين فرضا في أربع عشرين ساعة نسخ لكنه شرع في الأول .

وينظّرون لذلك بقولهم :

كما لو أن إنسانا يبغض إنسانا قال : أنا لا أطيق النظر إلى فلان هل معنى ذلك أنه ليس في استطاعته أن ينظر إليه ، لا . هو يقدر ويطيق ذلك لكنه لا يطيقه إلا بثقل وعسر .

والتكليف بما لا يطاق محل بحثه في أصول الفقه وفي علم الكلام .

والراجح أن الله سبحانه وتعالى لا يكلف بما لا يطاق عقلا ، أما مالا يطاق عادة فقد يكلف به سبحانه وتعالى .

(وهو تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله ، نقول لا حيلة لأحد ولا حركة لأحد ولا تحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله ، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله تعالى)

الشرح : قوله لا حول ولا قوة إلا بالله يعني لا يكلفهم الله إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم ، أي أن الإنسان لا حيلة له ولا تحول له من حال المعصية إلى الطاعة أو العكس إلا بتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، فالإنسان لا قوة له على التحول من المعاصي للطاعات والعكس إلا بالله سبحانه وتعالى ، لا حيلة لأحد أي لا قوة إلا بالله ، ولا تحول من حال إلى حال إلا بالله سبحانه وتعالى .

(وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره ، غلبت مشيئته المشيئات كلها ، وغلب قضاؤه الحيل كلها ، يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً)

الشرح : هذا من تمام الكلام على القضاء والقدر ، علم كل شيء وقدره وشاءه قبل أن يكون ، وكل شيء يجري من ابن آدم على حسب ما قضاه الله وقدره وشاءه من خير أو شر .

والظلم معناه وضع الشيء في غير موضعه ، والله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً ، والقران مليء من الآيات التي تنص على أن الله لا يظلم أحداً (وما ربك بظلام للعبيد)(سورة فصلت آية:٤٦) وقوله تعالى : (ولا يظلم ربك أحداً)(سورة الكهف آية:٤٩) وقوله تعالى : (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم)(سورة هود آية:١٠١) وكثيرا ما ينزه نفسه سبحانه عن الظلم ، بل وحرم الظلم على نفسه كما في الحديث القدسي أن الله سبحانه قال : (إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته

بينكم محرما فلا تظالموا)(١) فهو حرم على نفسه سبحانه وتعالى أن يظلم الناس لأن الظلم لا يليق به سبحانه وتعالى وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة وهو أن الله لا يظلم أحداً لا لعجزه عن الظلم ولكن لتنزيهه نفسه عنه ، فالظلم ممكن عقلا ولكنه ممتنع عادة ، فالله سبحانه وتعالى أجرى العادة أنه لا يظلم أحداً ، ولا نقول إنه مستحيل على الله ولو أراد أن يظلم لعجز ، لا . نقول الظلم ممكن ولكنه حرمه على نفسه ونزه نفسه عنه ، ولو كان الظلم مستحيلا عقلا لما جاز نفيه ولما جاز تأمين الناس منه : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما)(سورة طه آية:١١٢) لو كان الظلم مستحيلا لما أمّن الله المؤمنين من الظلم ، ولما كان لهذه الآية معنى في نفي الظلم ، وذلك أن المستحيل لا يخاف منه – لما أمّن المؤمنين من الظلم دل ذلك على انه ممكن وليس بمستحيل ويحرمه على نفسه .

أما القدرية والمعتزلة فإنهم ينزهون الله عن الظلم ولكنهم يقولون إنه لا يقع منه الظلم لعجزه واستحالته عن أن يفعل ذلك ، ولو أراد أن يظلم أحدا لما قدر (٢) ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

(تقدس عن كل سوء وحين ، وتنزه عن كل عيب وشين)

الشرح : السوء ما يسوء من الأفعال الرديئة ، والحَين بفتح الحاء الهلاك ، والله منزه سبحانه وتعالى عن أن يتصف بسوء وعيب ، وهو قديم أزلي أبدي لا يجوز عليه الفناء ولا يجوز عليه الهلاك سبحانه وتعالى .

(لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون)

الشرح : هذه قاعدة من القواعد التي نهج عليها السلف رضوان الله عليهم أنهم لا يسألون عن أفعال الله سبحانه سؤال احتجاج واعتراض ، وإنما يسألون سؤال استفهام واستعلام لمعانيها ، لأن أفعاله سبحانه وتعالى صادرة عن حكمة ومشيئة وإرادة ، فإن أدركنا معنى الفعل أو معنى التشريع وحكمته فبها ، وإن عجزنا فلا نرده ونقول إننا لا نعلم معنى هذا الفعل أو هذا التشريع ، الله سبحانه وتعالى أفعاله وتشريعاته كلها تصدر عن حكمة ، لكن منها ما ندرك حكمته ونعرفها وتظهر لنا ومنها ما يخفى علينا ، والكثير مما لا نعلمه أكثر مما يظهر لنا ونعلمه ، لأن الله سبحانه

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) .

(٢) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ٣ / ١١٢ ت يوسف البقاعي .

وتعالى : (لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون)(سورة الأنبياء آية:٢٣) فالسؤال بلِمَ لا يجوز ، لا يجوز أن تقول لم فعل كذا لم شرع كذا لم خلق كذا ، هذا اعتراض على حكم الله وعلى إرادته سبحانه وتعالى .

وإن كان السؤال عن معاني أفعاله وتشريعاته لتُعلم فهذا جائز .

(وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات)

الشرح : هذه مسألة إهداء الثواب للغير ، أي تصلي وتصوم وتحج وتقرأ قرآنا وتتصدق وتهدي ثواب هذه القُرَب لغيرك .

قوله : (منفعة للأموات) ليس ذلك خاصاً بالأموات ، بل المسألة تعم الأموات وغيرهم .

ومسألة إهداء القُرَب ، هل ينتفع به المهدى له ويصل إليه ويستفيد منه أم لا ؟

هذه المسألة فيها ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : أن كل ما يهدى من طاعات للغير من المسلمين سواء كان ذلك لحيٍ أو ميتٍ يجوز ذلك ويصل ثوابه للمهدى إليه ، وسواء أكان المهدى ثواب عمل بدني أو مالي أو غير ذلك ، مطلقا ، وهذا في القرآن والسنة الكثير من الأدلة عليه من حيث العمومات .

من ذلك قوله تعالى : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ)(١) فهؤلاء استغفروا لغيرهم ودعوا لهم ، فلو لم يكن ذلك ينفع لما ورد مثله في القرآن ، والرسول عليه الصلاة والسلام أخبر في مواضع كثيرة أن من حج عن غيره نفعه ذلك (٢)، ومن صام عن غيره نفعه ذلك (٣)، ومن تصدق عن غيره نفعه ذلك(٤) ، في آثار كثيرة في هذا المعنى ، وهذا عليه مذهب الإمام أحمد وكثير من العلماء .

---

(١)[سورة الحشر ١٠]

(٢) منها ما روى البخاري في صحيحه (١٨٥٢) باب الحج والنذور عن الميت : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال : (نعم حجي عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟! اقضوا الله فالله أحق بالوفاء) .

(٣) لحديث (من مات وعليه صيام صام عنه وليه) رواه البخاري (١٩٥٢) ومسلم (١١٤٧)

(٤) لما روى البخاري في صحيحه (٢٧٥٦) : أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن أمي توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها أن تصدقت عنها؟ قال : (نعم) قال : فإني أشهدك أن حائط المخراف صدقة عنها) ، وما رواه مسلم (١٦٣٢) وغيره عن أبي هريرة أن رسول الله (قال : (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) .

المذهب الثاني : أن القُرَب تنقسم إلى قسمين :

١ — قرب مالية .

٢ — وقرب بدنية .

فالقرب المالية يصح إهداء ثوابها وتصل إلى من أهديت إليه ، وأما القرب البدنية فلا يصح إهداؤها ولا يصل إلى المهدي إليه ، وهذا عليه كثير من العلماء أيضا ، منهم الإمام الشافعي وكثير من أصحابه .

وهؤلاء يستدلون على ذلك بأمور :

منها أثر يروى عن ابن عباس أنه قال (لا يصوم أحد عن أحد ولا يصلي أحد عن أحد)(١) وهذا الأثر موقوف على ابن عباس ، وليس مرفوعا إلى النبي ﷺ ، ولو صح لكان معنى لا يصلى أحد عن أحد بمعنى لا ينوب أحد عن أحد في الفرض ، أي لا يقوم إنسان ويصلي صلاة الظهر عن إنسان يعفيه من الصلاة ، وليس معناه أنه لا يجوز أن يتبرع بثواب صلاة من صلوات التطوع أو غيرها .

المذهب الثالث : منع ذلك مطلقا سواء أكانت العبادة بدنية أو مالية ، وهذا رأي لبعض علماء الكلام وبعض المتصوفة وهو مذهب باطل .

ويحتجون على ذلك بنحو قوله تعالى : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)(سورة النجم آية:٣٩) ونحوها ، يقولون فيها دلالة على أن الإنسان لا ينتفع إلا بسعيه هو .

ولكن القائلون بجواز إهداء ثواب القرب أجابوا عن هذه الآية ونحوها بجوابين :

الجواب الأول : بالمنع ، قالوا لا نسلم أن الآية تدل على أن الإنسان لا يستفيد من سعي غيره ، إنما الآية دليل على أن الإنسان لا يملك إلا سعي نفسه ، أما سعي غيره فللغير إن شاء تبرع به وأهداه وإن شاء منعه ، وفرق بين قولهم لا ينتفع الإنسان إلا بسعيه وبين قوله لا يملك إلا سعيه ، فكونه لا يملك إلا سعيه هذا مسلم به وتدل عليه الآية الكريمة ، ولكن لا ينتفع إلا بسعيه هذا معنى آخر والآية لم تتعرض له ، ولو قالت الآية لا ينتفع أحد إلا بسعيه ، لكان فيها دليل لكن الآية تقول : (ليس للإنسان إلا ما سعى) اللام هنا للملك ، يعني ليس للإنسان على سبيل الملك إلا سعيه ، أما سعي غيره فهو للساعي إن شاء تبرع به للغير وأفاده ونفعه وإن شاء أمسكه وحبسه لنفسه .

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى ١٤١/٣ بسند صحيح .

الجواب الثاني : بالتسليم ، قالوا نسلم جدلاً أن الإنسان لا يستفيد إلا من سعيه ، لكن كل ما يُهدى إلى الإنسان فهو من سعيه ، لأن المهدي إما أن يكون ولداً وإما أن يكون زوجا وإما أن يكون صديقا ، والمهدى له سعيه في الصداقة وسعيه في التزوج وسعيه في إنجاب الأولاد هذا هو الذي جعلهم يتصدقون ويهدون له ، فما يهدى له من ثواب أي قربة كانت فهو من سعيه لأنه سعى إلى التزوج فكان إهداء زوجه له من سعيه ، ولأنه سعى إلى إنجاب الأولاد فكان إهداء ولده من سعيه .

فإن قيل : لو أهدى مسلم لمسلم آخر ثواب قربة وهو ليس ولداً وليس زوجا وليس مثلا صديقا فكيف يكون من سعي المهدى له ؟ قالوا إنه بدخوله في الإسلام وانتسابه لأخوة الإسلام يعتبر هذا سعيا له ، وسعيه كونه مسلما وأخا للمهدى له ، فيكون كل ما يهدى للإنسان من ثواب قربة فهو حصل له ذلك بسعيه .

ومع كثرة الأدلة الدالة عليه قالوا : حتى القياس العقلي يدل عليه ، ويرد به على الذين فرقوا بين القرب المالية والقرب البدنية والمخالفين ، قالوا :

إن الأجير الخاص لو أنه استؤجر على عمل بأجر فإنه لا يجوز له أن ينيب غيره في العمل الذي استؤجر عليه ، لكنه إذا استحق الأجر وقبضه يجوز له أن يتبرع به لغيره ، فكذلك الأعمال البدنية وإن كانت لا تدخلها النيابة ولا يصح النيابة فيها فإن ثوابها لا بأس بإهدائه لغيره .

والراجح أن ثواب القرب يصل مطلقا ، سواء أكانت بدنية أو مالية ، وسواء أكانت لحي أو لميت هذا عليه أكثر العلماء من السلف .

(والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات)

الشرح : قوله : (والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات) هذا المذهب الحق هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو أن الله سبحانه وتعالى يستجيب الدعوات وأن الدعاء ينفع الداعي كما قال سبحانه تعالى (ادعوني استجب لكم)(سورة غافر آية:٦٠) وكما قال سبحانه وتعالى : (أدعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين)(سورة الأعراف آية:٥٥) وكما دعا سبحانه تعالى في مواطن كثيرة وأمر عباده بالدعاء ، وقد قال ﷺ : (الدعاء مخ العبادة)(١) وفي لفظ : (الدعاء هو العبادة)(٢) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١) بسند فيه ضعف .

(٢) رواه أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) وابن ماجه (٣٨٢٨) بسند صحيح .

والدعاء من أخلص أنواع العبادة لأن الإنسان يلجأ إلى الله ويتجه إليه سبحانه وتعالى ويضرع إليه وحده وهذا نهاية الإخلاص ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام الدعاء : (مخ العبادة) أي صافيها وخالصها .

وقد خالفت بعض الطوائف كالفلاسفة وعلماء الكلام في فائدة الدعاء وقالوا : إنه لا يُشرع ولا يَنفع ، واستدلوا على ذلك بقياس فاسد ، قالوا :

الدليل على أن الدعاء لا ينفع أن ما يدعو به الإنسان لا يخلو من أمور :

الأول : إما أن يكون الله سبحانه وتعالى قضى حصول ذلك الأمر وقدره .

الثاني : وإما أن يكون قضى وقدر عدم حصوله .

وعلى كلا التقديرين فإنه لا ينفع .

والذي لم يلم بأصول وقواعد السبر والتقسيم قد يقول إن هذا الدليل حجة صحيحة ، وذلك انه إما أن يكون الله قضاه وأما أن يكون لم يقضه ، وعلى كلا التقديرين فإن الدعاء لا ينفع ، لأنه إن كان الله قد قضاه وقدره فإنه سيحصل ولا محالة ، وإن كان الله قدر عدم حصوله فإنه لن يحصل وإن دعا الإنسان طيلة عمره .

ولكن هذا الدليل العقلي الذي أوردوه ناقص ، لأن السبر والتقسيم دليل صحيح إذ كملت شروطه ، أما إذا نقصت الشروط فإنه يكون دليلا فاسداً ، ومن شروط صحة الاستدلال بالسبر والتقسيم أن يكون التقسيم حاصراً ، بمعنى أن المستدِل أتى بجميع الأقسام الممكنة في المحل .

ونحن إذا تأملنا هذا التقسيم وجدناه ناقصا ، والتقسيم الصحيح – كما ذكره ابن القيم رحمه الله – أن يقال :

القسم الأول : إما أن يكون الله قدر وقضى حصول المدعو به مطلقا .

القسم الثاني : وإما أن يكون قدر عدم حصوله مطلقا .

القسم الثالث : إما أن يكون قدر حصوله بشرط الدعاء .

وهذا القسم الثالث أهمله المستدل ففسد دليله .

ونقول : إن الله سبحانه وتعالى يمكن أن يكون قدر حصول الأمر المدعو به بشرط أن يدعو الداعي بحصوله .

فبطل هذا الاستدلال ، وبان فساد هذا الدليل الذي سموه برهانا ودليلا عقليا .

ولكن قد يرد سؤال هنا ويقول قائل : إننا نرى أن هناك من يدعو الله فلا يستجاب له فكيف يجاب عن ذلك مع قوله : (وقال ربكم ادعوني استجب لكم)(سورة غافر آية:٦٠) ، وهذا معناه أن من دعا الله فإن الله يستجيب له ؟

والجواب عن هذا أن يقال : إن إجابة الله سبحانه وتعالى للدعاء شيء ، وحصول المدعو به المعين شيء آخر ، فليست إجابة الدعاء هي حصول الأمر المعين الذي سأل الإنسان ربه إياه ، بل قد تكون الإجابة بحصول ذلك ، وقد تكون بأمر آخر.

فنقول دعاؤه أجيب ولكن :

١ – إما أن يكون الله سبحانه وتعالى ادخر له في الآخرة من الثواب ما هو خير له من أن يعطيه عين ما سأل .

٢ – وإما أن يكون قد صرف عنه من الشر ما هو أهم وأصلح له من أن يحصل له ذلك الأمر الذي سأل الله إياه .

فإجابة الدعاء أعم من إعطاء السائل عين ما سأل ، وهذا ما أشار إليه ﷺ بقوله : (ما من عبد يدعو الله بدعاء ليس فيه إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه به أحد ثلاثة أمور ، إما أن يعطيه عين ما سأل ، وإما أن يصرف عنه من الشر ما هو خير له من ذلك ، وإما أن يدخر له الثواب في الآخرة)(١) وهذا يبين هذا المعنى .

ثم يقال أيضا : الإجابة لها شروط ولها موانع ، إذا كملت الشروط وانتفت الموانع فإن الإجابة حاصلة لا محالة ، وإن وجد مانع يمنع من الإجابة فإن المدعو به لا يحصل ، كما قال ﷺ في الحديث السابق : (ما من عبد يدعو الله بدعاء ليس فيه إثم ولا قطيعة رحم ..) الحديث ، فهذا يدل على أن من شرط إجابة الداعي أن لا يكون في دعائه إثم – أي معصية – ولا قطيعة رحم ، فإن اشتمل الدعاء على ذلك فإنه لا يجاب ، ولا تشمله الآية التي تدل على أن الله يستجيب الدعاء .

وكذلك القول في قوله :(ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين)(سورة الأعراف آية:٥٥) فمن دعا بدعاء فيه اعتداء على غيره فإن الله لا يجيب دعاءه .

---

(١) رواه احمد في المسند (١١١٣٣) والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠) والبيهقي في الشعب (١١٣٠) والترمذي (٣٥٧٣) بلفظ مقارب ، وسنده صحيح .

وكذلك الحديث الصحيح الذي ورد فيه : (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا) إلى قوله : (ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء ومطعمه حرام ومأكله حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك)(١) أي فكيف يستجاب له .

بقي شبهة أخرى يوردونها أو يستدلون بها على هذا المذهب الباطل وهي قولهم :

لو أن الدعاء ينفع ويجدي للزم أن يكون الداعي أثّر في الله سبحانه وتعالى حتى جعله يجيب الدعاء ويعطيه المسئول ، وان الله لم يكن يريد أن يجيبك حتى دعوته وأثّر دعاؤك فيه .

ولكن أجاب أهل السنة عن ذلك وقالوا إن الداعي ليس هو الذي أثر في الله ابتداء وجعله يعطيه ما دعاه به ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي حرك في نفس الداعي نية الدعاء والتوجه إليه وأثر فيه ، ويسر له أسباب الدعاء وجعله يدعوه (٢) .

إذاً فالدعاء من الله والإجابة من الله وليس العبد هو الذي أثر في الله .

(ويملك كل شيء ولا يملكه شيء)

الشرح : الله سبحانه وتعالى هو المالك لكل شيء وهو المتصرف في كل شيء ولا يملكه أحد ولا يتصرف فيه شيء .

(ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحين)

الشرح : الإنسان مفتقر إلى الله سبحانه وتعالى دائما (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد)(سورة فاطر آية:١٥) فكل إلى الله فقير والله سبحانه وتعالى غني عن كل شيء ، ومن زعم أنه يستغني عن الله فقد كذب وأثم وصار من أهل الحين — أي الهلاك — في الدنيا والآخرة ، لأن الله سبحانه وتعالى هو المالك المتصرف المدبر للخلق وهو الذي يملك الخلق ولا يملكه أحد من الخلق سبحانه وتعالى ، فلا أحد يشاركه في الخلق والتدبر والتصرف والنفع والضر ، ولا أحد له عليه سلطان في تشريع أو في فعل من الأفعال أو في قضائه وقدره ، بل هو الواحد الفاعل وحده ، الفاعل بإرادته ومشيئته دون التوقف على غيره .

---

(١) رواه مسلم (١٠٥١) والترمذي (٢٩٨٩) وأحمد في المسند (٨٣٤٨)

(٢) انظر منهاج السنة لابن تيمية ١ / ٤٢١ .

(والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى)

الشرح : هذا شروع من المؤلف في بيان إثبات صفات الفعل لله سبحانه وتعالى ، وكذلك شروع منه في الرد على الأشاعرة والكلابية والماتريدية وغيرهم الذين فرقوا بين صفات الفعل وصفات الذات ، فأقروا بصفات الذات ونفوا صفات الفعل ، لأن الغضب والرضى صفتان فعليتان للباري سبحانه وتعالى .

والعلماء قسموا الصفات إلى قسمين :

١ – صفات ذات

٢ – وصفات فعل .

فالسلف الصالح أقروا بصفات الذات وصفات الفعل .

وبعضهم قسمها إلى ثلاثة أقسام اصطلاحا ، فقالوا :

١ – صفات الذات .

٢ – وصفات الفعل .

٣ – والصفات الخبرية .

قالوا :

الصفات الذاتية : هي الصفات التي تكون لازمة لذات الباري تعالى ، كالعلم والحياة والقدرة والإرادة ونحوها .

والصفات الفعلية : هي الصفات التي تقوم بالباري إذ شاء فعلها وإذا شاء لم يفعلها ، وتسمى الصفات الفعلية ، وتسمى الصفات الاختيارية كالغضب والرضى و النزول والاستواء والمجيء وغير ذلك .

الصفات الخبرية : اصطلحوا على تسمية هذه الصفات بالخبرية ، قالوا لأن مجال ثبوتها الخبر ، وهي اليد والقدم والإصبع والعين والساق وغير ذلك .

فالسلف رضوان الله عليهم يثبتون لله جميع الصفات إذا ثبتت في الكتاب والسنة ، ولا يفرقون بين كونها صفات ذاتية أوصفات فعليه أو صفات خبرية .

والناس في مسألة الصفات والأسماء على ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : مذهب الغلاة في التنزيه ، وهم الجهمية والمعتزلة ، هؤلاء ينفون عن الله سبحانه وتعالى جميع الصفات ولا يثبتون له شيئا من الصفات التي يوصف بها الإنسان مطلقا ، بل جميعها ينفونها ، ويعطلونه منها ، وكل ما ورد من القرآن أو من الحديث أوّلوه ، إما أن يردوه إن كان

آحاداً ويكذبوه ، وإما أن يؤولوا مدلوله إذا كان متواترا ، فينفون عن الله جميع الصفات الفعلية والخبرية والذاتية ولا يثبتون له شيئا ، اللهم إلا المعتزلة يثبتون له الأسماء ولكن مجردة عن المعاني ، فيثبتون لله العليم القدير ولكن مجردة عن العلم والقدرة وغيرها .

المذهب الثاني : مذهب معظم علماء الكلام الأشاعرة والكلابية والماتريدية ، فهؤلاء :

يثبتون لله صفات الذات .

وينكرون الصفات الفعلية والصفات الخبرية ولا يقرون بشيء منها .

وإذا قيل لهم لماذا فرقتم فأثبتم صفات الذات ونفيتم الصفات الفعلية والخبرية ؟

قالوا إن صفات الذات يثبتها العقل ، أما الصفات الأخرى فإن العقل لا يثبتها ، فما أثبته العقل أثبتناه وما لم يثبته العقل نفيناه .

فإذا قيل لهم ما هي الطريقة التي أثبت العقل بها هذه الصفات ؟

قالوا : العلم يدل على التخصيص ، لذا أثبتنا الحكمة لله سبحانه وتعالى .

قالوا : والإرادة تستلزم التخصيص .

يعني الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يكون كذا على كذا وكذا فقد كان في فعله هذا تخصيصا دل على الإرادة فأثبتناها ، فلما وجدنا في فعله تعالى تفريقا و وتخصيصا بين شيء وشيء عرفنا أنه ما فعل ذلك إلا بإرادة فأثبتنا له الإرادة .

واستمروا في هذه الطريقة ، لأنهم يأخذون من الاسم أمراً يدل على الصفة القائمة بذلك الاسم ، أو متصلة بذلك الاسم .

فالإحكام والإتقان في أفعاله سبحانه وتعالى يجعلونه دليلا على صفة العلم .

وكذلك –كما قلت – التخصيص والتنويع دليل على إثبات الإرادة .

والمشيئة والخلق والإيجاد دليلا على صفة القدرة .

وقالوا : العالم القادر المريد لابد وأن يكون حياً ، لأن المتصف بهذه الصفات لا يخلوا من الحياة أو ضدها ، إذاً فالله سبحانه وتعالى موصوف بالحياة .

قالوا والحي لا يخلوا إما أن يكون سميعا بصيراً متكلما ، وإما أن يكون أصم أبكم أعمى وأحسن الأوصاف وأعلاها سميعا بصيراً متكلما .

قالوا فالعقل أثبت الصفات السبع من هذه الطريقة .

قالوا أما ما عداها فإننا لا نجد العقل يدل عليها فلا نثبتها .

وقد ناقشهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه المسألة كتابة ومشافهة ومناظرة وأفحمهم إفحاما ، وقال لهم :

أما قولكم إن العقل لا يثبت ما عدا الصفات السبع وانتم لا تثبتونها(١) ، يجاب عن هذا بجوابين:

الجواب الأول : لا يسلم لكم أن العقل لا يثبتها ، بل يقال :

كما أن العقل أثبت الصفات السبع التي أثبتموها فهو يثبت الصفات الأخرى بالطريقة التي أثبتم بها الصفات السبع :

فكما أنكم تقولون إن التخصيص دل على الإرادة عقلا فنقول نحن الانتقام منه سبحانه وتعالى يدل على الغضب عقلا والإحسان يدل على الرحمة عقلا ، فنثبت ما نفيتم عقلاً بالطريقة التي أثبتم بها ما قبل ذلك .

ثم قال رحمه الله :

هناك دليل آخر :

وهو أننا نسلم لكم أن العقل لا يثبت صفات الفعل ، ولكنه لا ينفيها ، وكونه لا ينفيها أو لا يدل عليها لا يلزم منه ارتفاعها ، أو عدم وجودها ، فإذا كان هناك مدلول مختلف فيه ثم انتفى دليل معين على القيام بالدلالة على هذا المدلول فلا نقول يلزم من ذلك انتفاء المدلول ، لأنه يمكن أن يكون هذا المدلول ثابتا في نفس الأمر بدليل أخر ، هاتوا لنا دليلا عقليا ينفيها ، وليس لديهم دليل عقلي ينفيها ، بل مجرد استدلالهم لا يكفي دليلا لنفيها وعدم وجودها ، فقد تكون ثابتة في نفس الأمر بدليل أخر كما هو واقع ، فإن الصفات التي انتفى دليل العقل عن الدلالة عليها ثابتة بالدليل السمعي القرآن والسنة وغير ذلك .

فالشيخ رحمه الله أفحمهم بهذه المسألة عن طريق هذه المناظرة وقد قال لهم باختصار :

إذا كنتم تثبتون سبع صفات وتقولون دل عليها العقل وتنفون الباقي لأن العقل لم يدل عليها فنجيب عن ذلك بهذين الأمرين :

إما أن نسلم لكم أن العقل لم يدل عليها ونثبتها بدليل أخر .

وإما أن نثبت لكم أن العقل دل عليها بالطريقة التي سلكتموها أنتم في إثبات الصفات السبع .

فالشيخ رحمه الله ناقشهم في مسألة الغضب والرضى واحتجاجهم بعدم صحة إثبات صفات الفعل وزعمهم أن إثباتها يقتضي التشبيه ، وقد مثلوا لذلك بقولهم :

---

(١) الضمير عائد إلى غير الصفات السبع .

إن الغضب غليان دم القلب ، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك ، فرد عليهم الشيخ رحمه الله وناقشهم فقال :

الغضب الذي فسرتموه بغليان دم القلب هو غضب الإنسان ، أما غضب الله سبحانه وتعالى فليس كذلك ، وأبطل عليهم هذه الشبهة من مذهبهم فقال :

أنتم تثبتون لله الإرادة ، والإرادة هي ميل القلب إلى المراد ، فأنتم أثبتم الإرادة وهي تقتضي التشبيه !

فقالوا : لا . الإرادة التي أثبتناها ليست هي التي بمعنى ميل القلب ، إذ الإرادة التي بمعنى ميل القلب هي إرادة المخلوق أما الإرادة التي نثبتها فهي إرادة تليق بجلاله وعظمته ولا تماثل إرادة المخلوقين . فقال ﷺ : نحن نقول أيضاً إن الغضب الذي يفسر بغليان القلب هو غضب الإنسان أما غضب الله سبحانه وتعالى فهي صفة تليق بجلاله وعظمته ، فقولوا في الغضب والرضى كما قلتم في الإرادة.

المذهب الثالث : أهل السنة والجماعة ، وسبق الكلام عليه في عدة مواضع من الكتاب .

أما المفوضة فليسوا فرقة رابعة في أهل الإثبات والنفي للصفات لأنهم يقولون : الله أعلم بمعناها ، فيفوضون معناها ، ومنهم من يقول أنه لا معنى لها إطلاقاً ، وهم مع ذلك لا يعقلون ، وإنما يقولون يقتصر فيها على اللفظ والقراءة .

و ابن تيمية رحمه الله في التدمرية أطال في بيان تناقضهم كما في القاعدة الخامسة فليراجع .

ثم إنه لا يقال : هل للمفوضة تأويل سائغ أو غير سائغ ، لأنهم أصلا لم يؤولوا الصفات ، بل سكتوا عنها ، وهم مع ذلك ضلال ، لكن لا يقال بكفرهم .

(ونحب أصحاب مُحَمَّد ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم وبغير الحق يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير ، وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان)

الشرح : الصحابي هو كل من رأى النبي ﷺ أو صحبه وآمن به ، وإن كانت صحبته ساعة من نهار ، وكل الصحابة عدول بتعديل الله تعالى ورسوله ﷺ لهم ، فنؤمن بأن خير الأمة بعد نبيها هم الأربعة ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وهم الخلفاء الراشدون المهديون ، وفيهم كانت الخلافة والنبوة (١) .

---

(١) هذا التعريف منقول من كتاب الشيخ حمود رحمه الله : مختصر عقيدة أهل السنة والجماعة .

وقد قال سبحانه وتعالى : (مُحَمَّد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا)(سورة الفتح آية:٢٩) وقال عز وجل : (والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان)(سورة الحشر آية:١٠) الآية يعني المهاجرين والأنصار ، وقال سبحانه وتعالى : (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى)(سورة الحديد آية:١٠) والقرآن فيه كثير من الثناء على الصحابة ومدحهم وبيان رضي الله سبحانه وتعالى عنهم ، كما قال سبحانه : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة)(سورة الفتح آية:١٨) .

لأجل هذا ، ولأجل أنهم رضوان الله عليهم هم الذين ظهر الدين على أيديهم وعلى أكتافهم وهم الذين أعلوا كلمة لا إله إلا الله ورفعوا رايتها وجعلوها عالية فوق كل شيء .

ولأنهم هم الذين ضحوا بكل غال ورخيص في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر كلمة التوحيد ، ضحوا بالأموال ضحوا بالأبدان ضحوا بالأهل ضحوا بالنفوس كل ذلك ضحوا به و أرخصوه في سبيل نصرة النبي ﷺ ونصرة دينه .

والذين هذا شأنهم وهذه صفاتهم لهم فضل كبير على الأمة ﵃ .

ومع هذه الفضائل كلها هم الذين نقلوا لنا الشريعة وأخذوها عن النبي ﷺ سليمة خالية من الغش والباطل والفساد ، نقلوها لنا نقية واضحة لا لبس فيها ، فهم حلقة الوصل بين الأمة وبين رسولها ﷺ في تحمل وتلقي الشريعة أصولا وفروعا .

لما كانت هذه ميزاتهم وهذه صفاتهم كان لهم علينا الحق الكبير .

فكان من خلاصة مذهب السلف في الصحابة رضوان الله عليهم أنهم يحبونهم ويتولونهم ويترضون عنهم ويبغضون من يبغضهم ويتولون من يتولاهم ، ويعتقدون لهم الفضل الكبير على من دونهم ، ولا يخوضون فيما حصل بينهم من خلافات ونزاع وحروب ، ويمسكون عما شجر بينهم مطلقا .

إذ من المعلوم أنه حصلت فتنة بين عثمان ﵁ وبين الذين ثاروا عليه وخلعوه ، وبين عائشة ﵂ والزبير وطلحة ﵄ من جهة و بين علي بن طالب ﵁ من جهة في حرب الجمل ، وما حصل بين علي ومعاوية رضي الله عنهما أيضا في حرب صفين .

هذه كلها فتن وجدت في الإسلام بسبب كيد اليهود ، لأنها كلها وراءها اليهودي ابن سبأ الذي جاء مدعيا للإسلام ، فأوقع هذه الفتن بين المسلمين .

فمذهب السلف رضوان الله عليهم فيما وقع بين الصحابة الإمساك عنه وعدم الخوض فيه ، واعتقاد أن كل فريق منهم إما أن يكون مجتهدا مصيباً له أجر اجتهاده وأجر إصابته ، وإما أن يكون مجتهداً مخطئا له أجر اجتهاده وخطؤه مغفور .

ويقولون إنما حصل منهم نزر يسير إذا نسب إلى ما لهم من الفضائل والكرامات والأعمال الصالحات .

والناس في مسألة الصحابة وموالاتهم ثلاث فرق :

الفريق الأول : أهل السنة والجماعة مذهبهم ما ذكرته قبل قليل .

الفريق الثاني : الروافض ، و الروافض مذهبهم موالاة بعض الصحابة من آل البيت ومعاداة جل الصحابة وتكفيرهم .

فيوالون علياً وآله ونزراً يسيراً من الصحابة كسلمان الفارسي ، ويعادون جميع الصحابة ويبغضونهم بل ويكفرونهم .

وأشد الصحابة بغضا عند الروافض أبو بكر وعمر وعثمان .

الفريق الثالث : النواصب ، وهم قوم عادوا أهل البيت وأبغضوهم ونصبوا لهم العداء وجعلوا سبهم وشتمهم مذهبا من مذاهبهم ، وهذا ظاهر في بعض حكام بني أمية وأتباعهم ، فإنهم نصبوا العداء وكرهوا أهل البيت ، وجعلوا سبهم وشتمهم ديدنهم حتى إنهم جعلوا في خطبة الجمعة فصلا ثابتا لسب بعض أهل البيت وشتمهم ، إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز رحمه الله فأبطل هذه البدعة وهذه الضلالة وأزال الفصل من الخطبة وجعل بدلا منه آية كريمة وهي قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)(سورة النحل آية:٩٠) .

و النواصب ينصبون العداء لأهل البيت فقط أما بقية الصحابة فإنهم لا يعادونهم بل يوالونهم .

ولهذا قال شيخ الإسلام رحمة الله في الواسطية وغيرها :

إن أهل السنة والجماعة وسط في أصحاب رسول الله بين الرافضة والنواصب ، فالرافضة يغلون في آل البيت ويكفرون من عداهم ، والنواصب يبغضون آل البيت ويسبونهم ويوالون من عداهم ، لكن أهل السنة والجماعة يحبون الجميع ويوالون الجميع ويترضون عن الجميع ويتولون الجميع .

وهناك بحث حول رواية الصحابي وقوله ومن هو الصحابي ، وهذا موضوعه مكان آخر .

أما درجات الصحابة وفضلهم فقد ذكر العلماء في كتبهم وبينوا أنهم على درجات مختلفة ، فمثلا منهم من شهد النبي ﷺ له بالجنة كالعشرة المبشرين بالجنة وكثابت بن قيس بن شماس (١) وغيره ، ومنهم من دون ذلك ، ومنهم أهل بدر الذين أطلع الله عليهم فقال : (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)(٢) ومنهم أصحاب بيعة الرضوان (٣)، ومنهم السابقون الأولون ، ومنهم من هم دون ذلك ، فدرجات الصحابة رضوان الله عليهم مختلفة حسب فضلهم وقدم إسلامهم .

يدل على هذا أنه عليه الصلاة والسلام غضب على خالد بن الوليد ، وهو كما يُعلم من فضلاء الصحابة ومن خيرتهم ، غضب عليه لما حصل بينه وبين عبد الرحمن بن عوف خلاف في بعض مسائل الغنيمة ، غضب غضبا شديداً وقال وهو يخاطب خالدا (لا تسبوا أصحابي والذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)(٤) يعنف خالدا سيف الله ، يقول له لا تسب صاحبي عبد الرحمن بن عوف ، فأنت لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما بلغ جبلك هذا مد عبد الرحمن ولا نصيفه ، فهذا يدل على فضيلة سبق الصحبة والتقدم والإبلاء في الجهاد والإنفاق وغير ذلك .

(ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ، أولاً لأبي بكر الصديق ﷺ تفضيلا له وتقديما على جميع الأمة ، ثم لعمر بن الخطاب ﷺ ، ثم لعثمان ﷺ ، ثم لعلي بن أبي طالب ﷺ ، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون)

الشرح : هذه مسألة الخلافة ، المسلمون مجمعون على أن أبا بكر الصديق ﷺ هو الخليفة الشرعي بعد رسول الله ﷺ وليس هناك من يخالف – حسب ما أعلم – في شرعية خلافة أبي بكر الصديق إلا الرافضة ، هذا بالنسبة لشرعية الخلافة .

أما بالنسبة لأولوية أبي بكر في الخلافة فإن هناك من ينضم مع الرافضة وهم الزيدية من الشيعة فإنهم وإن أقروا بخلافة أبي بكر وقالوا إنها شرعية إلا أنهم يقولون إن عليا أولى بها منه .

أما مسألة ثبوت الخلافة لأبي بكر الصديق فكما قلت : هي ثابتة ولكن ماهو الدليل على ثبوتها ،

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٣) ومسلم (١١٩) .

(٢) رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤) .

(٣) في صحيح مسلم (٢٤٩٦) قال عليه الصلاة والسلام : (لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد ، الذين بايعوا تحتها) وفي مسلم أيضا (٢٤٩٥) أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لغلام حاطب بن أبي بلتعة : (كذبت ، لا يدخلها – أي النار – فإنه شهد بدرا والحديبية) .

(٤) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠) .

هل ثبتت له بالنص من المصطفى ﷺ أو بالاختيار والانتخاب من الصحابة رضوان الله عليهم ، **فيه خلاف بين العلماء** :

القول الأول : من يقول إن الرسول عليه الصلاة والسلام نص على خلافة أبي بكر الصديق وعهد له بها وأنه تولاها بعهد منه .

القول الثاني : أنها ثبتت لأبي بكر الصديق بالاختيار والاتفاق والانتخاب .

والذين قالوا إنها ثبتت من الرسول بالنص والوصية أوردوا عدة أدلة استدلوا بها على ذلك ، لكن سنبين عند مناقشة تلك الأدلة أنها لا توصل إلى ما ذهبوا إليه :

قالوا من ذلك ما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال في مرض موته لعائشة رضي الله عنها : (ادعي لي أباك وأخاك لأكتب لأبي بكر كتابا – ثم قال – يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر)(١) ، ولم يكتب ، قالوا : فقوله ادع لي أخاك لأكتب لأبي بكر كتابا معناه أنه نص على أنه هو الخليفة .

ومنها ما صح أن امرأة أتت النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه ، قالت : أرأيت إن لم أجدك ؟ كأنها تريد الموت ، قال : (إن لم تجديني فأتي أبا بكر)(٢) . قالوا فهذا نص على أن أبا بكر هو الخليفة .

قالوا و مما يستدل به أيضا أنه عليه الصلاة والسلام أقام أبا بكر الصديق إماما عنه في مرضه (٣) ومنها أنه قال : (سدوا كل خوخة على المسجد إلا خوخة أبي بكر)(٤).

قالوا كل هذه نصوص على أن أبا بكر الصديق هو الخليفة ، وذكروا آثارا كثيرة في هذه المسألة .

وأما الذين قالوا إن الخلافة ثبتت لأبي بكر الصديق باتفاق الصحابة عليه واختيارهم له استدلوا بأن عمر رضي الله عنه لما قيل له : ألا تستخلف ؟ قال : إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني – أبو بكر – ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني – رسول الله)(٥) .

قالوا : فقوله وإن أترك فقد ترك من هو خير مني – رسول الله ﷺ– نص من عمر أن رسول الله ﷺ عليه وسلم لم يستخلف . وكذلك ما رواه مسلم في صحيحه أن عائشة رضي الله عنها سئلت : من كان رسول الله ﷺ مستخلفا لو استخلف ؟ قالت : أبو بكر ، فقيل لها : ثم من بعد أبي بكر ؟ قالت : عمر ثم قيل لها : من بعد عمر ؟ قالت أبو عبيدة عامر بن الجراح (٦) .

---

(١) رواه مسلم (٢٣٨٧) والبخاري قريبا منه (٥٦٦٦) و (٧٢١٧)

(٢) رواه البخاري (٧٣٦٠) ومسلم (٢٣٨٦)

(٣) رواه البخاري (٦٦٤) ، (٦٧٩) ومسلم (٤٢٠) .

(٤) رواه البخاري (٤٦٧) ومسلم (٢٣٨٢) .

فقول السائل : لو كان مستخلفا ، وإقرار عائشة له على ذلك يدل على أنه لم يوص .

وأقوى الأدلة والذي هو في نظري يرجح القول بأن الخلافة ثبتت لأبي بكر بالاتفاق والاختيار — اختلاف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ في سقيفة بني ساعدة (١) فيمن يكون خليفة ، وهي قصة مشهورة معروفة ومستفيضة في كتب الحديث والتاريخ ، أنه لما توفي النبي ﷺ اجتمع الصحابة رضوان الله عليهم في سقيفة بني ساعدة ، واختلفوا فيمن يكون خليفة ، فالأنصار قالوا نحن الذين نصرنا رسول الله ﷺ ونحن الذين ظهرت على أيدينا نصرة الإسلام وظهر الإسلام على أيدينا ، فنحن أحق بها منكم ، وقال المهاجرون نحن قوم النبي ﷺ ونحن الذين أيدناه وخرجنا معه ، تركنا بلادنا وأهلينا وأموالنا في سبيل الله نصرة للإسلام فنحن أحق بها ، وتفتقت قريحة أحدهم وقال بل الحل الوسط أن يكون منا أمير ومنكم أمير ، إلى أن جاء أبو بكر الصديق ﷺ وخطب الناس وقال : إن العرب لا تعرف لهذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، إلى أن قال : ولكني رضيت لكم أحد هذين الرجلين إما عمر وإما أبو عبيدة ، فقام عمر وقال : بل نحن نبايعك ثم قاموا جميعهم فبايعوه .

فلو كان عندهم نص من النبي ﷺ هل يجوز للصحابة أن يختلفوا في أمر فيه نص صريح عن النبي ﷺ ؟ لا يمكن أبداً .

إذاً فهذا دليل قوي على أن الخلافة ثبتت لأبي بكر الصديق ﷺ بالاختيار والاتفاق .

يبقى مناقشة أدلة القائلين بأن النبي ﷺ نص وعهد بالخلافة لأبي بكر فقد أجاب العلماء عنها فقالوا :

أولا : قوله : (ادعي لي أخاك وأباك لأكتب لأبي بكر كتابا ..)(٢) الجواب عليه من وجهين :

الوجه الأول : أنه لا يعلم ما الذي أراد أن يكتبه ﷺ ، لا نعلم هل أراد أن يكتب له ولاية على الصلاة أو أراد أن يكتب له ولاية على أهله أو أراد أن يكتب له ولاية على بيت المال ، هو أراد أن يكتب كتابا لكن لم يقل إنه يريد أن يكتب له بالخلافة .

= (٥) رواه البخاري (٧٢١٨) ومسلم (١٨٢٣) .

= (٦) رواه مسلم (٢٣٨٥) والنسائي في الكبرى (٨٢٠٢) وأحمد في الفضائل (٢٠٤) وفي المسند بلفظ مقارب (٢٤٣٤٦) .

(١) رواه البخاري (٣٦٦٨)

(٢) رواه مسلم (٢٣٨٧) والبخاري قريبا منه (٥٦٦٦) و (٧٢١٧) .

الوجه الثاني : أنه حتى لو كان ينوي أن يكتب له عهداً بالخلافة فإنه لم يكتب ولم يحصل ذلك ، إذاً فلم يحصل منه عهد ولا نص لأبي بكر بالخلافة .

ثانيا : وأما قوله للمرأة : (ائتي أبا بكر)(١) فلا ندري ما الأمر الذي جاءت لأجله المرأة ، هل جاءت تطلب مالا أو جاءت تستفتي فلا يعلم ماذا تريد ، و أبو بكر رضي الله صالح لقضاء حاجتها من جهة المال وصالح لقضاء حاجتها من جهة الفتيا ، ولم يقل (أبو بكر الخليفة بعدي ، أو عهدتُ له بالخلافة فأتيه ، ولو كان هناك نص ظاهر لم يكن ليخص أبو بكر على كل الصحابة ولم يكن مع هذا يعلم بهذا النص أحدهم ، ولهذا لما كان هناك شيء يتعلق بهذا الموضوع وإن لم يكن نصاً في المسألة أوردوه ، فقد قام رجل وقال : إن رسول الله ﷺ قال (الأئمة من قريش)(٢) ، وقد كان الصحابة كلهم مجتمعون كبارهم وصغارهم ولم يقل واحد منهم أن الرسول ﷺ عهد إلى أبي بكر .

وأما علي ﷺ فقد غاب عن ذلك لأنه كان مشغولا بتطمين زوجته فاطمة ﷺ ومواساتها في مصابها بوفاة النبي ﷺ ، وهو حتى لو لم يبايع فهو معذور في ذلك .

ثالثا : وأما تخليف النبي ﷺ لأبي بكر في إمامة الصلاة فهذا يدل على فضل أبي بكر وحب رسول الله ﷺ له ، ولا يعني الخلافة .

إذاً كلها أدلة محتملة ، وإذا كانت محتمله ، فالأدلة الأخرى أوضح منها وأقوى ، والذي أراه وأرجحه هو القول الثاني وهو أن الخلافة ثبتت لأبي بكر بالاختيار .

وترتيب الخلفاء الذي عليه أهل السنة والجماعة أبو بكر الصديق ، فالخلافة ثبتت له بالاختيار ، ثم عمر بن الخطاب ﷺ ، والخلافة ثبتت له بالنص والعهد والاستخلاف من أبي بكر ، ثم عثمان ﷺ والخلافة ثبتت له بالنص من بين عدة نفر ، ثم علي ﷺ وأرضاه .

ومسألة ترتيب الخلفاء في الخلافة هذا هو الذي يترتب عليه التضليل وعدمه ، يعني أن يقدم عمر على أبي بكر أو يقدم عثمان على عمر أو يقدم علي على عثمان ، هذا يعتبر من البدع المضلة ، بخلاف تقديمهم وترتيبهم في الفضل فإنه أهون .

ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في الواسطية وغيرها إن المسألة التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة أما مسألة الفضل فإنه لا يضلل من خالف فيها (٣) .

---

(١) رواه البخاري (٧٣٦٠) ومسلم (٢٣٨٦) .

(٢) رواه الإمام احمد في المسند ٢/ ١٨٣ وصححه احمد شاكر .

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٣ / ١٥٣

وجمهور السلف على أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة ما عدا الأحناف وبعض العلماء فإنهم قدموا علياً في الفضل على عثمان فقط (١) ، أما في الخلافة فالمسلمون كلهم مجمعون على أن أبا بكر أولهم ثم عمر ثم عثمان ثم علي .

(وأن العشرة الذي سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله (وقوله الحق ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة ﷺ أجمعين)

الشرح : نعم هؤلاء العشرة شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة (٢) فنشهد لهم بها .

(ومَنْ أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس و ذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق)

الشرح : حب الصحابة رضوان الله عليهم وحب زوجات الرسول وحب ذريات الرسول ﷺ هذا من علامات الإيمان ، والطعن فيهم أو في أحد منهم من علامات النفاق ، ولهذا الروافض يعتبرون منافقين لأنهم يظهرون حب الرسول ﷺ ولكنهم يبطنون بغضه وبغض دينه ، بدليل أنهم يكرهون الصحابة الذين أظهروا الدين وتولوه ، يبغضونهم ويسبونهم ، وهذا يدل على أنهم منافقون .

مع العلم أن النفاق أصل من أصولهم ، التقية عند الروافض أصل من أصولهم ، والتقية معناها النفاق ، وهي إظهار أمر وفي الباطن ما يخالفه ، فبغض الصحابة نفاق ، لأنه لا يمكن أن يبغضهم إلا وهو يبغض ما جاؤوا به من شرع الله ودين الله ، وهولا يبغضهم إلا على ذلك ، إذاً هو منافق .

(وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يُذْكَرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل)

الشرح : وكذلك العلماء رضوان الله عليهم أئمة هذه الأمة ، علماء الشريعة أصولا وفروعا الذين كرسوا أنفسهم لتأليف الكتب في الفقه والحديث والأصول وغيرها ، اهتموا بذلك ووقفوا حياتهم كلها على خدمة الشريعة شرحا وتأليفا وتعليما ، هؤلاء أيضاً نكن لهم الاحترام والتقدير ،

---

(١) ذكر ابن عبدالبر رحمه الله في الاستيعاب ٣ / ٢١٤ أن أهل السنة استقر قولهم على تقديم عثمان على علي رضي الله عنهما في الفضل .

(٢) رواه الترمذي (٣٧٤٨) واحمد في الفضائل (٢٧٨) والبغوي (٣٩٢٥) بسند صحيح .

ولا نذكرهم إلا بخير ، ونذم ونسب ونعادي من يعاديهم ، لأنه لا مجال ولا معنى لمعاداة أئمة الأمة وعلمائها إلا لأجل ما حملوه ولأجل ما قاموا به من خدمة لهذه الشريعة .

(ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء)

الشرح : الله سبحانه وتعالى أثنى على أوليائه بقوله : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(سورة يونس آية:٦٢) وبين سبحانه وتعالى من هم الأولياء فقال : (الذين آمنوا وكانوا يتقون)(سورة يونس آية:٦٣) هؤلاء الأولياء ، ولكن صار في اصطلاح المتصوفة وغيرهم للولي مفهوم غير هذا ، فالولي عند المتصوفة هو العارف الذي وصل في زعمهم إلى النهاية ، أي وصل إلى الله سبحانه وتعالى ، وقد ضل في هذا الباب كثير من الناس وأضلوا ، حيث جعلوا الولي أرفع من النبي وأرفع من الرسول ، فقالوا : إن الرسول والنبي كلاهما يأخذ الوحي عن الله بواسطة الملك ، أما الولي فإنه يأخذ الوحي عن الله مباشرة ، يزعمون أن الولي يجتمع مع الله ويجلس في حضرة الله ويأمره الله وينهاه ويكلمه مشافهة ، ومن هؤلاء الضلال ابن عربي الطائي والتلمساني وابن الفارض والحلاج وغيرهم ، هؤلاء الملحدون الذين هم أئمة في الاتحاد والإلحاد والقول بوحدة الوجود — هؤلاء يزعمون أنهم أولياء ويزعمون أنهم أفضل من الأنبياء والرسل ولذا قالوا:

مقام النبوة في برزخ * فويق الرسول ودون الولي (١)**

فالترتيب في الفضل عندهم :

الولي أفضل من الأنبياء والرسل ، والنبي أفضل من الرسل ، والرسول في المرتبة الثالثة .

وبرروا ذلك بقولهم : إن الولي يأخذ عن الله مباشرة والرسول والنبي يأخذ عن الملك ، الولي يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك ، فهو أفضل من الأنبياء وأفضل من الرسل ، قاتلهم الله ، والشيخ رحمة الله يقول إن نبياً واحدا أفضل من جميع الأولياء وهذا باتفاق المسلمين ، فالمسلمون يرون أنه لا أحد دون النبي يصل درجته ، والرسالة أعلى ثم النبوة ثم الولاية الصحيحة الحقيقية ، وأولياء الله (الذين امنوا وكانوا يتقون)(سورة يونس آية:٦٣) الذين امنوا بالله وبرسوله واتقوا الله فيما يفعلون ويدعون ، هؤلاء هم أولياء الله ومع هذا فالأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أفضل من هؤلاء وأرقى منهم درجة .

---

(١) ينظر جامع الرسائل لابن تيمية ١ / ٢٠٩

وكثير من الناس – من المتصوفة وغيرهم من القبوريين – يضلون في مسألة التبرك بالولي والتقرب إليه ، فإنهم يعطون الولي من الخصائص مالله من كشف الضر وجلب النفع وشفاء المريض وغير ذلك ، يطلبون منهم حتى بعد موتهم ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد ضل في ذلك فئام من الناس من المتصوفة وغير المتصوفة ، فالولي إذا كان من أولياء الله حقا فإن الله سبحانه وتعالى أمّنه من الخوف والحزن ولكنه بشر لا ينفع ولا يضر لاسيما إذا مات وأصبح في قبره عاجزاً عن نفع نفسه ، فكيف ينفع الآخرين ، وتجد الواحد من القبوريين يتبرك بصاحب قبر أو يطوف به أو يدعوه فإذا نهيته قال هذا من أولياء الله والله تعالى يقول : (ألا أن أولياء لله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(سورة يونس آية:٦٢) ومن هذا الطريق حصل الفساد والضلال والخرافات التي أفسدت عامة المسلمين بسبب التلبيس في أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم)

الشرح : الكرامات جمع كرامة وهي ما يكرم الله بها بعض عبادة وأوليائه .

والكرامة : أمر خارق للعادة ، ممكن عقلا ، خال من التحدي ، خال من دعوى النبوة ، ويجريه الله على يد عبد مستقيم ومتبع لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

وممكن عقلا يعني غير مستحيل ، فالعقل يقبله ولكنه خارق للعادة يعني العادة أن مثل هذا الأمر لا يجري على يد الناس لكنه جرى على يد هذا الرجل فخرق العادة .

ثم لابد وأن يكون خاليا من دعوى النبوة ومن التحدي ، وإلا لو اقترنت به دعوى النبوة والتحدي لكان معجزة وليس كرامة .

ثم أيضا لابد أن يكون أجراه الله على يد عبد صالح من عباده الصالحين ، وإلا لو وجد أمر ممكن عقلا خارق للعادة خال من دعوى النبوة والتحدي ولكنه جرى على يد رجل معروف بالفسق وبالضلال وبعدم السلوك الحسن أو بالبدعة فإنه يفسر بأنه من خوارق العادات الشيطانية .

فلابد من هذه القيود حتى يكون هذا الأمر كرامة .

ومذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء ، الإقرار بها والاعتراف بها والإيمان بها وتصديقها إذا وقعت ، فإن الله سبحانه وتعالى يكرم بعض عباده فيجري على يده ما يخرق العادة ، **ومصدر الكرامة أحدى ثلاثة أمور :**

١ – بالتأثير .

٢ – أو الغنى .

٣ – أو الكشف .

فالكرامة بالتأثير : معناها أن يجري الله على يد عبد من عباده أمراً يؤثر في أمور لا يقدر عادة غيره أن يفعلها ، كمن يمشي على الماء ولا يغوص فيه ، أو يطير في الهواء ، أو يدخل النار ولا تحرقه ، مثل ما حصل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام حينما ألقي في النار ولم يحترق ، فهذه كرامة من كرامات الله سبحانه وتعالى .

والكرامة بالغني : معناها أن يؤت الله من يريد كرامته من أوليائه من الأمور التي لا تؤتى لغيره عادة ، كمثل ما حصل لمريم عليها السلام حيث كانت تأتيها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء .

وأمثلة الكرامة بالغنى كثيرة جدا كرزقه سبحانه وتعالى لبعض عباده برزق لم تجر العادة بحصوله في ذلك المكان أو في ذلك الزمان ، كما حصل للجيش الذي كان بقيادة بعض الصحابة رضوان الله عليهم لما نفد ماؤهم في شدة الصيف في الدهناء (١) ولا ماء ولا مورد ، فلما قاربوا من الهلاك أنشأ الله سبحانه وتعالى سحابة في ذلك الوقت الذي لا يأتي المطر فيه عادة فأمطرتهم فارتووا منها وسقوا رواحلهم وملئوا قربهم ، وهذه كرامة من كرامات الله ساقها الله لهم ، وهي من نوع الكرامة بالغني ، احتاجوا وافتقروا إلى الماء فأغناهم الله بهذه .

والكرامات بالكشف : وهو أن يكشف الله لعبد من عباده أموراً من المغيبات والمسائل العلمية التي لم تجر العادة بفتحها على غيره وكشفها لغيره .

وكما قلت مذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامة الأولياء ، على البيان الذي بينته .

أما المعتزلة فإنهم ينكرون الكرامات ويقولون ليس هناك كرامات للأولياء ، ويحتجون على ذلك بأنه لو وجدت الكرامات لالتبست بمعجزات الأنبياء ، فلا يعرف الولي من النبي .

فيقال الدعوى غير صحيحة يوضح ذلك تعريف كل من المعجزة والكرامة ، ثم انه بعد نبينا محمد ﷺ كيف يكون ذلك ، فلا يمكن أن يبعث نبي بعده حتى يخشى المعتزلة من الالتباس بينه وبين الولي .

---

(١) الدهناء صحراء معروفة في نجد .

(ونؤمن بأشراط الساعة)

الشرح : الأشراط جمع شَرَط بحركتين ، بخلاف الشروط فإنها جمع شَرْط وهي ليست **مما** معنا ، والأشراط هي العلامات ، وواحدها شرَط بالفتح ، يقال شَرَط الساعة أي علامتها ، **و أشراط الساعة هي علاماتها وأماراتها التي تدل على قيامها وهي ثلاثة أقسام** :

القسم الأول : أشراط وقعت ومضت .

القسم الثاني : أشراط تأتي ، ولكنها ليست مقارنة لقيام الساعة .

القسم الثالث : أشراط تقارن قيام الساعة وتصاحبها .

فأشراط بعيدة هي التي مضت وانتهت كما أخبر ﷺ : (أعدد ستا بين يدي الساعة ، موتي ثم فتح بيت المقدس ثم موتان يأخذ فيكم كعقاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا) (١) هذه كلها مضت ، و أشراط متوسطة ليست بعيدة ولا قريبة مقارنة وملاصقة للساعة ، وهي التي أشار إليها الرسول عليه لصلاة والسلام في أحاديث كثيرة كقوله : (لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه ، وحتى تعود جزيرة العرب مروجا وأنهاراً)(٢)، أو : لا تقوم الساعة حتى يحصل كذا وحتى يحصل كذا وحتى يحصل كذا .

وأما أشراط الساعة الكبيرة القريبة ، فمنها خروج الدجال والدخان والدابة ونزول عيسى بن مريم سيأتي إن شاء الله ذكرها .

(من خروج الدجال)

الشرح : أحاديث كثيرة تبلغ حد التواتر عند بعض العلماء بأن الدجال يخرج في آخر الزمان وأنه رجل كافر يضل الناس ويفتنهم ، يأتي ومعه المغريات من الأموال ، ولديه بطش وقدرة وقوة ، فيفتتن به كثيرون من الناس ويخرجون معه من أصفهان ولا يبقى بلد إلا ويدخله إلا المدينة المنورة ومكة ، فإنه لا يدخلهما ، والأحاديث الواردة في كثيرة جدا .

---

(١) رواه البخاري (٣١٧٦) وابن ماجه (٤٠٤٢) .

(٢) رواه مسلم تحت حديث (١٠١٢) .

ولهذا من مذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بخروج الدجال في آخر الزمان ، وانه يعيث في الأرض الفساد إلى أن ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقتله وتنتهي فتنة وينتهي شره ، والرسول ﷺ قال : (إني أنذركموه وما من نبي إلا أنذره قومه .. ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه : إنه أعور وليس ربكم بأعور وإن إحدى عينيه كأنها عنبة طافية ومكتوب بين عينيه ك ف ر يقرأها من يقرأ ومن لا يقرأ)(١) فهذا كله وردت به الآثار والأحاديث .

أما ابن صياد فالراجح أنه ليس هو الدجال .

(ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء)

الشرح : ونزول عيسى بن مريم أيضا من أشراط الساعة ، لأنه ينزل في آخر الزمان ، والله سبحانه وتعالى أخبر بذلك في قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً)(سورة النساء آية:١٥٩) ، فإنه ينزل ويحكم في أهل الأرض حكماً عادلا ويبطل القوانين والطواغيت و يحكم بشريعة مُحَمَّد ﷺ ويقتل الدجال .

(ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها)

الشرح : وطلوع الشمس من مغربها من أشراط الساعة أيضا ، ولكنها من أشراط الساعة القريبة جداً ، والتي إذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس كلهم ، وذلك حين لا ينفعهم إيمانهم ، لأنهم رأوا الأمر معاينة وذهب الإيمان بالغيب وأصبح إيمانهم لا فائدة فيه ولا ثمرة له ، فيكون إيمانهم في ذلك الوقت غير مجدٍ وغير نافع .

(وخروج دابة الأرض من موضعها)

الشرح : وكذلك الدابة ، وردت آثار بأنها تخرج من الأرض ، وأنها دابة عظيمة كبيرة طويلة ، وأنها تكلم الناس كما قال تعالى : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)(سورة النمل آية:٨٢) .

قيل إنها تخرج من جبل جياد في مكة وقيل من غيره والله تعالى أعلم ، ولكن الإيمان بها واجب لأن الله سبحانه وتعالى أخبر عنها ، والرسول ﷺ ذكرها .

---

(١) رواه البخاري (٧١٢٨) ومسلم (٢٩٣٣) .

يأجوج ومأجوج :

وكذلك يأجوج ومأجوج خروجهم من أشرط الساعة ، وهذا لم يذكره المؤلف ، ولكنه جاء في القرآن وجاءت فيه أحاديث كثيرة جدا (١) ، ومن معتقد أهل السنة والجماعة الإيمان بخروجهم ، وأن الله إذا أذن لهم بالخروج خرجوا فعاثوا فساداً في الأرض ، شربوا المياه وأكلوا الثمار وأفسدوا ، وهم موجودون الآن لكن الله أعمى عنهم بصائر الناس .

ومن الناس من ينكرهم ويقول : كيف يكونون موجودين الآن علماً بأن الاكتشافات لم تترك شبراً من الأرض إلا ووصلته ورأته ، ولكن هذا معارضة للنص بالرأي ، والله سبحانه وتعالى أخبرنا : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون)(سورة الأنبياء آية:٩٦) وأخبرنا عنهم في سورة الكهف ، فبيّن طريقة خروجهم ، وبين طريقة السد الذي أوجده لمنعهم ، فلا يعترض على هذه النصوص بكون الناس ما رأوهم وما اكتشفوهم ، فالله سبحانه وتعالى يمكن أن يكون قد أضل أبصار الناس وأعماها عنهم إلى أن يأتي الوقت الذي يأذن لهم فيه فيخرجون .

الدخان :

وكذلك الدخان من أشراط الساعة ، وهو دخان يظهر في آخر الزمان ، وقد أشار القرآن إليه : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم)(سورة الدخان آية:١١-١٠) .

وشارح الطحاوية رحمه الله تكلم عليها واحداً واحداً وبسط الكلام عليها وأطال فالرجوع إليه مهم جداً .

(ولا نصدق كاهنا ولا عرافا ولا من يدعي شيئا يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة)

الشرح : قوله : (ولا من يدعي شيئا يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة) كالمنجم والساحر وغيره ، فإن الكهانة والسحر والعرافة والتنجم كل هذه أفعال محرمة وكلها يشبه بعضها بعضا .

فالساحر : هو الذي يتعاطى السحر .

---

(١) روى البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بن جحش زوج النبي ﷺ أنها قالت : خرج رسول الله ﷺ يوما فزعا محمر الوجه يقول : (لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها قالت فقلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث) .

والسحر : معناه في اللغة مأخوذ من الخفاء واللطف ، وكل ما دق ولطف وخفي سببه فإنه يسمى سحرا ، ولهذا يسمى آخر الليل سحراً لخفائه وظلمته ولقلة من يسير فيه ، والسَّحر الذي يكون في الحيوان سمي سَحَراً لأنه يكون في آخر مجنة الصدر خفي ، وسواء أكان السحر سحرا حقيقيا بالعقاقير أو بالنفث والعقد وغيرها أو كان أمراً آخر بالشعوذة والدجل وغيرها فإنه كله يسمى سحراً .

والسحر تعلمه محرم وتعاطيه محرم ، ولا يجوز للإنسان أن يذهب إلى الساحر ليسحر له لقوله عليه الصلاة والسلام : (من آتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّد)(١) وقوله : (من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)(٢) .

من العلماء من يرى أن السحر كفر وأن الساحر كافر ، لأنه يتقرب إلى الشياطين بعمله السحر من نفث ورقى ، وكذلك العقاقير التي يعملها ، ولأجل هذا حكم عليه بالكفر عند بعض العلماء. وبعض السلف يرون أنه يقتل كفراً وبعضهم يرى أن يقتل حداً ولا يصل إلى درجة الكفر ، وبعضهم يقول إن قَتل بسحره قُتل وإن لم يقتل بسحره فإنه يعزر تعزيرا رادعا يردعه ويمنعه من تعاطي السحر .

وكذلك اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو هو تخييل ، والراجح عند السلف والخلف أن السحر له حقيقة يؤثر بالمسحور حقيقة ، يؤدي إلى مرض المسحور وقد يؤدي إلى التفريق بين الرجل وزوجه بمعنى أنه يجعل أحدهما يكره الآخر حتى تحصل الفرقة بينهما .

والرسول عليه الصلاة والسلام سُحر حقيقة ، حتى قالت عائشة ﵂ كان يخيل إليه أنه يفعل الأمر ولا يفعله(٣) بسبب ما أصيب به من السحر حينما سحره اليهودي لعنه الله ، وكان السحر قد أثر فيه ﷺ فيما يتعلق بالأمور الدنيوية أما الوحي وأما ما يخبر به عن الله فلم يكن للسحر عليه تأثير ولم يكن له عليه أثر (٤) .

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٠٤) وابن ماجه (٦٣٩) بسند صحيح وانظر غاية المرام للألباني رحمه الله ص ١٧٣

(٢) رواه مسلم (٢٢٣٠) .

(٣) رواه البخاري (٥٧٦٦) ومسلم (٢١٨٩) . يقول مُحَمَّد فؤاد عبدالباقي في تعليقه على الحديث من سنن ابن ماجه (٣٥٤٥) عند قول عائشة ﵂ (يخيل إليه ..) قال : أي يخيل إليه القدرة على الفعل ثم يظهر له عند المباشرة أنه غير قادر عليه ، وليس المراد أنه يخيل إليه أنه فعل والحال انه ما فعله . وانظر فتح الباري لابن حجر ١٠ / ١٩٣ .

(٤) ينظر كلام عبدالرحمن المعلمي في الأنوار الكاشفة ص ٢٥١ .

وعلى كل تقدير فجمهور المسلمين متفقون على أن الساحر يقتل سواء قتل ردة عند من يرى أن الساحر كافر ، أو يقتل حداً عند من يرى أنه لا يكفر بسحره وإنما يقتل لأنه ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم قتلوا السحرة (١)، فحفصة أم المؤمنين ثبت عنها أنها قتلت جارية لها سحرتها فأمرت بها فقتلت (٢) ، وكذلك جندب ﷺ رأى ساحرا بالبصرة يسحر الناس ويريهم أنه يقطع رأسه ثم يعيده فضربه بالسيف فقطع رأسه وقال الآن أعده (٣) ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (حد الساحر ضربه بالسيف)(٤) .

لأجل هذه النصوص وأمثالها ذهب جمهور المسلمين إلى أن الساحر يقتل سواء وصل به سحره إلى الكفر أم لا .

ورأي الجمهور أن للسحر حقيقة –كما تقدم– وأنه يمرض ويعطل الرجل عن امرأته ، ويفرق بينهما ، ويمرض العقل و الجسم وله أثر ملموس .

وبعضهم قالوا إن السحر تخييل وليس له حقيقة ، وإنما هو تمويه من الساحر وتخييل على المسحور ، وهذا مذهب مخالف لرأي الجمهور ومخالف لواقع السحرة ، لكن هؤلاء يستدلون بقوله تعالى في حق سحرة فرعون : (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى)(سورة طه آية:٦٦) ، قالوا يخيل إليه ، ومعنى ذلك أنه ليست الحبال والعصي تسعى حقيقة وإنما في نظر موسى خُيل له ذلك ، وهذا ليس نصا في الموضوع لأن معنى يخيل إليه أي رآها .

والكاهن والعراف هما ممن يدعي علم الغيب ويزعم أنه يعرف شيئا من ذلك ، فالكاهن هو الذي يفعل أفعالاً يزعم أنه بها يطلع على الغيب ، يعني شيطانه يطلعه على شيء من الغيب .

---

(١) أخرج الشافعي في بدائع المنن (١٥٣٢) وعبدالرزاق ١٠ / ١٧٩– ١٨٠ وأبو داود (٣٠٤٣) وصححه ابن حزم ١١/ ٣٩٧ عن بجالة بن عبدة قال : (كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر) ، وقد ذكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد في باب ما جاء في السحر انه من رواية البخاري ، والأثر في صحيح البخاري (٣١٥٦) لكن دون ذكر قتل الساحر فلعله في نسخة لديه .

(٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير ٢٢٢/٢ والبيهقي ١٣٦/٨ بسند صحيح ، وقد صححه الشيخ محمد ابن عبدالوهاب في كتاب التوحيد باب ما جاء في السحر .

(٣) رواه مالك في الموطأ في كتاب العقول ، باب ماجاء في الغيلة والسحر ٨٧١/٢ عن محمد بن سعد بلاغا ، ووصله عبدالله بن احمد في مسائل أبيه ص ٤٢٧ والبيهقي ١٣٦/٨ وقد صححه الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد في باب ماجاء في السحر .

(٤) رواه الترمذي (١٤٦٠) وقد أشار إلى أن وقفه على جندب هو الصحيح .

والكهانة والعرافة لها طرق ، فمن الكهنة والعرافين من يستعمل الخطوط ، يخط بالأرض — يسمى الطرق — ومنهم من يستعمل شيئا من الخرز أو الودع يضرب به في الأرض ، ومنهم من يستعمل الحصى يضرب به الأرض بضربات محصورة أو مُعدّة كما قال لبيد :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله صانع (١)

يعني الضوارب بالحصى التي تضرب بالحصى وبالودع وبالخرز وبغيرها وتدعي أنها بذلك تعلم الغيب ، وهذا كله باطل لأن الله سبحانه وتعالى حرس السماء ، بالشهب ، فأصبحت الشياطين لا تدرك شيئا من أخبار الغيب وعلم الوحي ، وكانت في السابق تسرق ، يصعدون إلى السماء ويستمعون ما يقضى فيه من الأمر فيأتون به إذا أخذوا كلمة من الوحي زادوها مائة كذبه ووضعوها لعميلهم ، فإذا أخبر بأمر فوقع قالوا : أليس قد قال كذا يوم كذا وكذا فكان ما قاله صحيحا فيكذبون على إثر هذه الكلمة الصحيحة بمائة خبر كله كذب .

وكذلك المنجم الذي يدعى علم الغيب بالنظر في النجوم ، ينظر في النجوم ويرى أن الطالع الفلاني طلوعه يدل على كذا وغروبه يدل على كذا ، وهو يقول ذلك على أنه عَلِمه عن طريق عميله من الشياطين .

وهذه التي تفعل الآن من الكهانة والعرافة والتنجيم وغيرها كل هذا من باب التخرص والحدس والظن ، وكذلك الشعوذة التي يفعلها المشعوذون كل هذه مبنية على غير برهان ويقين .

أما قبل أن تحرس السماء فكانوا قد يحصلون على كلمة مما يقال في السماء فيلقونها على عملائهم من الإنس ويتكلموا بها ، أما بعد ذلك كما ذكر سبحانه وتعالى عن شياطين الجن أنهم قالوا : (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً)(سورة الجن آية:٩) ، يقول كنا نقعد منها أي من السماء مقاعد للسمع واستماع الخبر لكن يقول من يذهب إلى السماء لاستراق السمع فإنه يجد له شهابا يرصده ويضربه ويحرقه ، فانتهت هذه الطريقة التي كانوا يسرقون بها علم الغيب بحراسة الله سبحانه وتعالى للسماء بهذه الشهب التي لا تدع أحدا من هؤلاء الشياطين يصعد إلى السماء ويقترب منها .

---

(١) ينظر تفسير اللباب لابن عادل ١٦ / ٢٩٤

(ونرى الجماعة حقا وصوابا والفرقة زيغاً وعذاباً)

الشرح : هذا مذهب أهل السنة والجماعة ، يرون الجماعة يعني إتباع الجماعة و إتباع سنة النبي ﷺ ، يقصد بذلك ما ورد في قول النبي ﷺ لما سئل عن الفرقة الناجية قال في بعض ألفاظ الحديث : (وهي الجماعة)(١) ،كما في قوله ﷺ افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقه وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقه وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقه كلها في النار إلا واحدة) قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)(٢) . إذاً فالجماعة هم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، وهم من اجتمعوا على الحق سوء أكانوا هم الأكثر أم كانوا هم الأقل ، إذاً فالجماعة حق وصواب ، ومخالفتهم ومفارقتهم زيغ وعذاب ، زيغ : أي ضلال عن سواء السبيل ، وعذاب : في الدنيا والآخرة . فالتمسك بما جاء به النبي ﷺ واتباعه والسير على طريقه هذا هو الحق وأما المفارقة والمخالفة والشذوذ عن الحق والشذوذ عن جماعة المسلمين فهذا عذاب وزيغ أيضا ، ولهذا كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يحثون على التمسك بالسنة والتمسك بإتباع الجماعة ، ويحذرون من الافتراق والخلاف والشذوذ عن طريق المحققين من المسلمين .

فهذا الذي قرره رحمه الله هو مذهب أهل السنة والجماعة وهو اتباع الجماعة واجتناب الخلاف والفرقة والشذوذ .

(ودين الله في الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام قال الله تعالى : إن الدين عند الله الإسلام ، وقال تعالى : ورضيت لكم الإسلام دينا ، وهو بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والقدر ، وبين الأمن و الإياس ، هذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ، ونحن براء إلى الله من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه)

الشرح : يقصد أن ما قدمه في هذه الرسالة هو اعتقاده الذي يدين الله به وهو بريء من كل من خالفه ، فكل من خالف ما قرره في هذه العقيدة فإنه بريء منه لأنه يرى أنه مخالف لطريقة السلف ولسنة النبي ﷺ، ودين الله واحد ليس هناك دين صحيح سوى الإسلام ، فالإسلام هو دين الله ولا يقبل الله من أحد سواه : (إن الدين عند الله الإسلام)(سورة آل عمران آية:١٩) .

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٩٦) والدرامي ٢٤١/٢ واحمد ١٠٢/٤ و ابن ماجه (٣٩٩٢) .

(٢) رواه احمد في المسند (٨٣٩٦ ، ١٢٢٠٨) والترمذي (٢٦٤٠ – ٢٦٤١) وقال حديث حسن صحيح ، قال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ٣٤٥/٣) : الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد ..

قوله : (دين الإسلام) بهذه الجملة حصر للدين في الإسلام ، وهذه طريقة من طرق القصر ، فإنه قصر الدين هنا على الإسلام ، فالدين معرفة والإسلام معرفة ، إذاً فهو أخبر رحمه الله بأن الدين الصحيح مقصور على الإسلام ، وأنه لا دين سواه كما قال سبحانه وتعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه)(سورة آل عمران آية:٨٥) .

والدين يَقصد به توحيد الله وشريعة نبيه ﷺ فالدين واحد والشريعة واحدة فلا يجوز لأحد أن يدين الله بدين اليهود ولا أن يدين الله بدين النصارى ويقول هذا دين الأنبياء .

كما لا يجوز له أن يحكّم شريعة التوراة أو شريعة الإنجيل أو غيرها لأن الله سبحانه وتعالى حصر الدين في الإسلام فقال : (إن الدين عند الله الإسلام)(سورة آل عمران آية:١٩) وقال : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)(سورة آل عمران آية:٨٥) ودين الأنبياء كلهم واحد – بالنسبة للتوحيد وعبادة الله –كلهم يدعون إلى عبادة الله وحده من أولهم إلى آخرهم ، كما قال عليه الصلاة والسلام : (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد والأنبياء أخوة لعلات ديننا واحد)(١) يعني كلنا ديننا التوحيد وديننا عبادة الله وحده ولهذا ما بعث الله من نبي إلا دعا قومه لعبادة الله وحده ونبذ ما سواها من عبادة الأصنام وغيرها ، أما شرائع الرسل عليهم السلام فإنها قد تختلف ، قد تختلف شريعة موسى عن شريعة عيسى ، قد تختلف شريعة عيسى عن شريعة مُحَمّد ﷺ كما قال سبحانه وتعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)(سورة المائدة آية:٤٨) الشرائع بالنسبة للتحريم والتحليل تختلف ، أما بالنسبة للتوحيد فدين الأنبياء واحد لا يختلف ، كلهم من أولهم إلى آخرهم دينهم واحد هو عبادة الله وحده لا شريك له والكفر بما يعبد من دونه .

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥)

(ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وحالفوا الضلالة ونحن منهم براء ، وهم عندنا ضلال و أردياء ، وبالله العصمة والتوفيق)

الشرح : رحمه الله ، نعم هذا الذي ذكره مذهب أهل السنة والجماعة وهو أنهم يبرؤون من كل هؤلاء الضلال ويرون أنهم ضالون وأنهم زائغون عن طريق الحق ، وهو يسأل الله ، والله حريٌ أن يثبته على الإيمان وأن يعصمه من طريق هؤلاء الزائغين كالجهمية والمعتزلة والجبرية والمشبهة وغيرهم ، لأن هؤلاء هم الذين ضلوا في العقيدة ، فالمشبهة ضلوا حيث شبهوا الخالق بالمخلوق فحادوا وضلوا وأزاغوا عن طريق الحق ، والجبرية ضلوا حيث جعلوا العبد مجبوراً على أفعاله ونسبوها إلى الله وقال إن هذه الأفعال هي أفعال الله ، والمعطلة الجهمية وغيرهم ضلوا حيث عطلوا الباري عن صفات الكمال ونفوها عنه ولم يثبتوا له شيئا من صفات الكمال ، وهؤلاء كلهم زائغون .

والمؤلف رحمه الله يسأل ربه أن يعصمه ويجنبه طريقهم فنحن نسأل الله لنا ولإخواننا المسلمين ذلك.

انتهى ولله الحمد ..

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢
المنهزمون والحروب الصليبية	٣
سيرة مختصرة للشيخ حمود العقلاء الشعيبي	٦
من المآخذ على متن الطحاوية ما يتعلق بالإيمان والكفر	٧
أقسام التوحيد	٨
خلاف الناس في تسلسل الحوادث	١١
التفريق بين قول ابن تيمية والفلاسفة في تسلسل الحوادث	١٢
أقسام الصفات	١٣
ابن تيمية يحتج على الأشاعرة بدليلهم العقلي	١٤
أنواع الإرادة	١٥
قوله : لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام	١٦
قوله : خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤونة	١٧
طريقة السلف في تفسير (ليس كمثله شيء ..)	١٨
طريقة السلف في إثبات صفات الكمال	١٩
طبقات القدرية	٢٠

قوله : وقدر لهم أقداراً وضرب لهم آجالاً.................................... ٢٠

الإرادة والمشيئة نوعان.. ٢١

مشيئة العبد والرد على الجبرية.. ٢٢

أنواع الهداية... ٢٣

مناظرة عبدالجبار الهمذاني للاسفرائيني.................................. ٢٣

الفرق بين الرسول والنبي.. ٢٤

الأجماع على أن محمد ﷺ خاتم الأنبياء وكفر من إدعى النبوة................ ٢٥

حديث (سيكون في أمتي كذابون ثلاثون) للحصر............................ ٢٦

الرد على المعتزلة في نفيهم كرامات الأولياء................................ ٢٦

خلاف الناس في كلام الله سبحانه... ٢٧

الخلاف بين الأشاعرة والكلابية والماتريدية خلاف لفظي...................... ٢٨

هل الأشاعرة الأقرب إلى أهل السنة ، وتعليق الشيخ ٣٢

إثبات الأشاعرة للصفات السبع على غير طريقة أهل السنة..................... ٣٣

رؤية الله يوم القيامة.. ٣٣

رؤية الله في المنام وتوجيه الشيخ حمود لكلام ابن تيمية...................... ٣٦

هل اختلف السلف في المعتقد.. ٣٦

مخالفة المؤولة لأهل اللغة في معنى قوله تعالى (إلى ربها ناظرة)............. ٣٨

قول الطحاوي (وتفسيره على ما أراده الله) وملاحظة الشيخ حمود............. ٣٨

أقسام المفوضة..٣٩

هل كيفيات الصفات من المتشابه...٤٠

الحكمة والتعليل..٤١

التأويل في أصول الدين لا يقبل...٤٢

نفي التشبيه لم يثبت في الكتاب والسنة...................................٤٢

جواز وصف الله بالفرد والفردانية من باب الإخبار.........................٤٣

ملاحظة الشيخ على قول الطحاوي : (تعالى عن الحدود والغايات ..) ٤٤

الكلام في الجسم والجهة والتحيز...٤٤

الإسراء والمعراج..٤٥

هل الإسراء والمعراج كان يقظة أم مناما.................................٤٦

تضعيف رواية شريك في المعراج...٤٧

الحوض و الكوثر..٤٨

أنواع الشفاعة..٤٩

الميثاق هو ما أودعه الله ونصبه من الدلائل والبراهين.......................٥٢

مراتب القضاء والقدر..٥٤

افتراق الناس في القضاء والقدر..٥٥

نشأة بدعة القدر..٥٦

القدرية لا يرون النصوص حجة على مسائل المعتقد..........................٥٧

الخالق في اللغة له عدة اطلاقات..٥٧

قوله : وكل ميسر لما خلق له..٥٩

الجبرية الطائفة الإبليسية..٦٠

الخاتمة هي مناط السعادة والشقاوة..٦٠

القضاء والقدر مترادفان..٦١

أول واجب على المكلف..٦٢

كفر من رد حكم الكتاب..٦٣

تعريف العلم المفقود والعلم الموجود..٦٣

أيهما خلق أولا : العرش أم القلم..٦٤

الألباني لم يفهم مقصود ابن تيمية في مسألة بدء الخلق..٦٥

الإيمان بأن الله كتب القضاء والقدر في اللوح المحفوظ..٦٧

نفاة القدر كأنهم يخاصمون الله..٦٨

معتقد أهل السنة في العرش..٦٩

صفة الخلة والرد على منكريها..٧٠

ردا على المعتزلة : ليس كل كلام يحتاج إلى لسان وأسنان..٧٢

الجواب على قول الشاعر : إن الكلام لفي الفؤاد..٧٣

مُحَمَّد عبده وتأويله للملائكة بأنهم قوى..٧٤

أيهما أفضل الملائكة أم صالح البشر..٧٥

الفرق بين النبي والرسول..٧٦
التفريق بين المعجزة والكرامة والخارق الشيطاني..............................٧٧
هل يوصف النبي بالعبقري..٧٨
رجل واحد يتحدى أمة..٧٨
الإيمان بالكتب المنزلة إجمالاً وما نزل على مُحَمَّد ﷺ تفصيلاً........................٧٩
الإيمان بالنسخ الأحكام والفرق بينها وبين التخصيص........................٨٠
ليس كل من أدى أركان الإسلام صار مسلما دائما........................٨١
من حكم القوانين الوضعية فهو كافر حتى لو صام وصلى........................٨٢
كل حكام المسلمين يحكمون بالقانون..٨٢
الكلام على محاكم فض المنازعات التجارية..٨٢
مسمى الإيمان عند أبي حنيفة هو التصديق فقط........................٨٢
القول عند الأحناف ركن لكن ليس من الإيمان........................٨٢
الإسلام تعريفه في اللغة والشرع..٨٣
ذم الخوض في ذات الله والنهي عن الجدال بالباطل........................٨٤
مذاهب الناس في معنى أن القرآن كلام الله..٨٦
مناظرة الكناني للمريسي عند المأمون..٨٧
اختلاف الناس في كلام الله..٨٨
خلاف الناس في التكفير بالكبيرة..٩٠

الأصول الخمسة عند المعتزلة.. ٩١

الرد على المعتزلة في نفيهم الشفاعة.. ٩١

معنى الخزي في قوله تعالى (فقد أخزيته) أي سببت له الخجل.................... ٩٢

أحوال مرتكب الكبيرة عند أهل السنة....................................... ٩٢

طبقات المرجئة.. ٩٣

اتفاق الصحابة على جلد قدامة بن مظعون مع كونه متأولا......................... ٩٣

الإيمان عند الطحاوي يضعف لكن لا ينقص.................................. ٩٤

الخلاف في تعلق الثواب والعقاب بالعمل..................................... ٩٤

الشهادة للمعين بالجنة أو النار لا يكون إلا بالنص.............................. ٩٧

ملاحظة الشيخ على الطحاوي في مسألة كفر الجحود............................ ١٠٠

اختلاف الطوائف في مسمى الإيمان.. ١٠١

العطف لا يقتضي المغايرة دائما... ١٠٢

حقيقة الإيمان شرعا ووجه ارتباطه لغة...................................... ١٠٣

الأحناف يقيد إرجاؤهم بإرجاء الفقهاء أو أرجاء أهل السنة...................... ١٠٤

ابن أبي العز حاول أن يجمع بين قول الطحاوي في الإرجاء وأهل السنة.............. ١٠٤

الخلاف بين أهل السنة والأحناف في الإيمان خلاف معنوي....................... ١٠٤

من يقيد الكفر بالاعتقاد فهو مرجئ.. ١٠٥

تكفير المحكّم للقانون الوضعي والرد على المرجئة............................... ١٠٥

ملاحظة الشيخ على قول الطحاوي : الإيمان واحد وأهله في أصله سواء.............١٠٥

النطق باللسان عند الأحناف لا يدخل في الإيمان...............................١٠٥

إيمانك وإيمان أبي بكر عند الأحناف سواء....................................١٠٥

الإيمان عند الأحناف يقوى ويضعف لكن لا يزيد ولا ينقص.......................١٠٥

معنى الإيمان بالله...١٠٧

الإيمان بالملائكة..١٠٨

الاشتغال بالتفضيل بين الملائكة وصالح البشر شغل وقت دون فائدة.................١٠٨

تحكيم بعض الشريعة من الإيمان ببعض والكفر ببعض.............................١٠٩

تعريف الكبيرة وضابطها..١١٠

الشرك الأصغر لابد فيه من تطهير صاحبه بالنار..............................١١١

منشأ مذهب الخوارج والمرجئة..١١٢

طريقة تولي الإمام للحكم..١١٢

حكم الصلاة على الحاكم المرتد..١١٢

القول الراجح في مسألة الصلاة خلف الإمام الفاسق............................١١٣

سبب ذكر السلف لبعض مسائل الفقه في كتب العقائد..........................١١٣

الحكم على المعين بالجنة أو النار وخلاف أهل العلم في ذلك....................١١٤

الحكم على المعين بالكفر أو الإسلام منوط بما يظهر منه..........................١١٦

متى يحل دم المسلم...١١٧

الخروج على الحاكم المرتد يكون عند الإمكان.................................١١٧

أئمة اليوم لا أحد منهم ينطبق عليه حديث (ما أقاموا فيكم الصلاة)...............١١٨

اطلاقات السنة لغة..١١٨

الكثرة غالبا تكون بخلاف الصواب...١١٩

جذور البدع وجدت في زمن النبوة...١٢٠

بغض الإمام لا يفهم منه الخروج عليه..١٢١

المسح على الخفين وسبب إدخال السلف له في المعتقد............................١٢٢

وجوب الجهاد مع كل إمام براً كان أو فاجراً...................................١٢٣

الجهاد ركن من أركان الإسلام..١٢٤

حالات وجوب الجهاد على الأعيان..١٢٤

جماعة التبليغ ، ومؤامرات الانجليز للوقوف ضد الجهاد............................١٢٤

الملائكة الكاتبين والملائكة الحفظة...١٢٦

قوله : (يتعاقبون فيكم ملائكة). ولغة أكلوني البراغيث.............................١٢٧

الجمع بين قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس) وقوله (قل يتوفاكم ملك الموت)...............١٢٨

دلالة الكتاب والسنة على عذاب القبر ونعيمه...................................١٢٩

عذاب القبر يكون للمقبور وغير المقبور.......................................١٣١

العذاب والنعيم في القبر هل هو للروح أو للجسد أو لكليهما........................١٣١

البعث في اللغة يطلق على معنيين...١٣٣

ذكر خلاف الناس في البعث بعد الموت..................................١٣٤

الأدلة العقلية على البعث بعد الموت..................................١٣٤

قوله تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا) وعلاقتها بالبعث.............١٣٥

السبب في تكرار القرآن لأدلة الإلوهية والبعث..............................١٣٧

الرد على شبهة الفلاسفة في أن غير مُحَمَّد من الأنبياء لم يتكلم في البعث...............١٣٧

الجزاء يوم القيامة على ثلاثة أنواع.....................................١٣٩

قوله (وقراءة الكتاب)...١٤٠

مسألة ارتباط الثواب بالعمل ومذاهب الناس في ذلك..........................١٤١

اختلاف السلف في وصف الصراط..١٤٢

تفسير قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) وان الراجح عدم دخولها.................١٤٢

إيراد المعتزلة لشبهتين في إنكار الميزان والجواب عليهما........................١٤٣

الوزن يوم القيامة للعمل والعامل والصحف.................................١٤٤

كلام الشيخ حول اختصاره شرحه متن الطحاوية..............................١٤٥

تعريف الجنة والشواهد اللغوية..١٤٥

تعريف جهنم لغة وأن أصلها فارسي.......................................١٤٨

الجواب على شبه المعتزلة في إنكارهم وجود الجنة والنار.........................١٤٨

فناء النار والجنة ومذاهب الناس..١٥٠

رأي ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله في فناء النار............................١٥٢

القول بفناء النار مسألة اجتهادية.......................................١٥٣
الاستطاعة عند أهل السنة ومتى تكون.................................١٥٤
خلق أفعال العباد وخلاف الناس ١٥٧
رد شبهة القدرية بإلزامهم بصفة العلم لله...............................١٥٨
الإجابة على شبهة المعتزلة في تعدد الخالقين من وجهين.........................١٥٩
الأدلة السمعية عند أهل الكلام ليست حجة على مسائل الأصول.................١٦٠
مسألة الكسب عند الطحاوي هو فيها على مذهب أهل السنة...................١٦١
الأشاعرة جبرية محضة...١٦٢
إثبات الكسب ونفي الفعل مستحيل عقلا.....................................١٦٢
الإجابة على شبهة الجبرية في نفي فعل العبد.....................................١٦٢
تفسير قوله تعالى (وما رميت إذ رميت) وأن لها معنيين...........................١٦٣
ملاحظة الشيخ على الطحاوي في قوله (ولا يطيقون إلا ما كلفهم)...............١٦٤
الجواب على مقولة القدرية في عجز الله عن الظلم.......................................١٦٦
مسألة إهداء ثواب القُرَب ومذاهب الناس فيها......................................١٦٧
الراجح في مسألة إهداء ثواب القرب.....................................١٦٩
الجواب على كلام الفلاسفة في عدم فائدة الدعاء....................................١٧٠
إجابة الدعاء له شروط وموانع....................................١٧١
شروع الطحاوي في الرد على معطلة الصفات.....................................١٧٣

مذاهب الناس في إثبات ونفي الصفات.......................................١٧٣

ردا على الأشاعرة : إذا كان العقل لم يثبت صفات الفعل فإنه لم ينفيها...............١٧٥

المفوضة ليسوا من فرق الإثبات والنفي للصفات........................١٧٦

المفوضة ليس لهم تأويل سائغ...١٧٦

كل الصحابة عدول بتعديل الله ورسوله لهم...............................١٧٧

الناس في مسألة موالاة الصحابة على ثلاث فرق..........................١٧٨

خلافة أبي بكر كانت بالاختيار والانتخاب...............................١٨٠

ترتيب الصحابة في الخلافة هو الذي يترتب عليه التضليل وعدمه...............١٨٢

الرافضة منافقون...١٨٣

ابن عربي والتلمساني .. يرون أن الولي أفضل من النبي......................١٨٤

شروط ثبوت الكرامة للأولياء...١٨٥

أنواع كرامة الأولياء..١٨٦

أقسام أشراط الساعة...١٨٧

أحاديث المسيح الدجال تبلغ حد التواتر.....................................١٨٧

ابن صياد ليس هو المسيح الدجال...١٨٨

عيسى بن مريم عليه السلام ينزل ويبطل القوانين والطواغيت....................١٨٨

طلوع الشمس من مغربها..١٨٨

خروج دابة الأرض من موضعها..١٨٨

الجواب على شبهة بعض المعاصرين في إنكاره يأجوج ومأجوج........................١٨٩

الدخان من أشراط الساعة...١٨٩

تحريم تعلم السحر وتعاطيه...١٩٠

الاتفاق على قتل الساحرة ولو لم يصل سحره إلى الكفر.........................١٩١

انتهاء استراق السمع..١٩٢

معنى قوله (ونرى الجماعة حقا وصوابا والفرقة زيغاً وعذاباً)......................١٩٣

قول الطحاوي (دين الإسلام) طريقة من طرق الحصر...........................١٩٤

تحريم تحكيم شريعة التوراة والإنجيل...١٩٤

الطحاوي يبرأ من دين المشبهة والجهمية والجبرية والقدرية.......................١٩٥

الفهرس...١٩٦